

التعريب



مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

الأخنة
العربية
هويتنا
القومية

المنظمة
العربية
للتربية
والثقافة
والعلوم

54

رمضان 1439هـ - حزيران (يونية) 2018م

السنة الثامنة والعشرون
العدد الرابع والخمسون

التعمیر



التعريب

مجلة نصف سنوية

العدد الرابع والخمسون

حزيران (يونيو) 2018

المدير المسؤول:

الأستاذ الدكتور زيد إبراهيم العساف

مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

رئيس التحرير:

الأستاذ الدكتور محمود السيد

هيئة التحرير:

الأستاذ الدكتور عدنان الحموي

الأستاذ الدكتور دفع الله عبد الله الترابي

الأستاذ الدكتور محمد حلمي هليل

الأستاذة الدكتورة زهيدة درويش جبور

الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسني

الأستاذ الدكتور صالح بلعيد

الأستاذ الدكتور ميلود حبيبي

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد

مجالات اهتمام المجلة

إن اهتمامات المجلة مركزة في الإسهام في تحقيق أهداف المركز في مجال تعريب التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره، ومتابعة الجديد مما ينشر في ميادين المعرفة في العالم، للتعريف به وترجمة الجيد الملائم منه، وكذلك ترجمة روائع الفكر العربي في العلوم والآداب والفنون إلى اللغات الأجنبية العالمية. وفي هذه الأطر تفتح المجلة صفحاتها للدراسات والبحوث الجادة والأصيلة فكرياً وموضوعاً في أحد المجالات التالية:

- * تعريب التعليم العالي في الوطن العربي.
- * بحوث مترجمة ودراسات في التعريب.
- * التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره.
- * من أعلام الحضارة العربية والإسلامية.
- * عروض للجديد من الكتب والرسائل الجامعية.
- * الإعلام بالأنشطة العربية والدولية في مجال أهداف المركز .

إن مضمين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

ولا تمثل بالضرورة رأي المنظمة أو المركز

يسمح باستعمال ما ورد في هذه المجلة من مواد بشرط الإشارة إلى مصدرها

التنضيد والإخراج الفني حسنة تلو

التعريب: مجلة نصف سنوية مُحَكَّمة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة

والتأليف والنشر بدمشق . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

دمشق - ص.ب: 3752 - هاتف / 3334876 - www.acatap.org - E-mail: acatap2@gmail.com

ع 2018/6/15

السنة الأولى: 1991 . دمشق

الاشتراك: قيمة الاشتراك السنوي: داخل الوطن العربي: 25 دولاراً أمريكياً

خارج الوطن العربي: 35 دولاراً أمريكياً

قيمة النسخة الواحدة بدون أجور البريد 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها

في هذا العدد

- * افتتاحية العدد 9
- * قواعد النشر في المجلة 11
- * بحوث في التعريب والمصطلحات
- الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة (القسم الثاني) 17
د. محمود السيد
 - واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية 43
مربة الشويخ
 - روافد الترجمة العلمية في الوطن العربي 57
د. والي دادة عبد الحكيم
 - المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية 71
د. عبد الغني بن صوله
 - المصطلح النحوي في كتاب سيوبه بين الاستعمال والإهمال 89
د. كمال رقيق
 - الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة لـ ش. بيرلمان وأ. تتيكا 105
د. بشير دردار

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

- 129 • فوضى المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية الجزائرية
سارة لعقد

*** بحوث مترجمة**

- 143 • حول الترجمة
ترجمة د. قاسم المقداد
- 173 • علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية
ترجمة د. حسني إبراهيم عبد العظيم
- 207 • تاريخ العلوم المعرفية
ترجمة د. محمد أحمد طجو

*** بحوث في الحضارة العربية الإسلامية**

- 223 • دور الوراقة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية
د. إيفلين شفيق جبارة
- من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة
في عصر الأيوبيين والمماليك في مصر والشام
د. يعرب نبهان
- 247 • الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"
د. تيسير عبد الله الناعس
- 279 •

* التعريف بالكتب

• الدراسات المعجمية لدى محمد البكري في كتاب

"شفاء القلب العليل بتحقيق شرح منظومة البكري في أوصاف الخيل" 297

د. عز الدين حفار

* من أنشطة المركز خلال النصف الأول من عام 2018 321

التحريج العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

الافتتاحية

بقلم الدكتور سعود هلال الحربي

المدير العام للمنظمة العربية

للتربية والثقافة والعلوم

هل بنتا بعد اثني عشر قرناً بحاجة إلى تحديث المصطلح النحوي؟ وهل صار ذلك المصطلح الذي جاء به سيبويه غير صالح للاستعمال في هذا الزمن؟ وهل تجرأ من جاء بعده على الخروج عليه؟

ثلاثة أسئلة، وغيرها كثير، تجول في خاطر والعقل، وغالباً ما كان جوابنا غامضاً، أو متأرجحاً، فكأننا نخاف أن نُجيب، خوفاً من التطور الذي يجب أن يصيب لغتنا، حتى نحونا العربي.. فمن عاش عصر سيبويه لم يكن يتوقّع ماذا سيكون بعده، أما من يعيش الآن فعليه أن يعلم أنّ اللغة تتطور، وأن عليه أن يُساير هذا التطور..

إنّ من حقّ لغتنا علينا أن نجعلها تواكب كلّ تطور يحدث في الحياة الاجتماعية، فاللغة جزء أساسي من هذه الحياة، ولكن من دون الإخلال بال قاعدة التي وُضعت للشاهد، سواءً كان من القرآن الكريم أم من الشعر الذي يُحتج. وعلينا بدايةً أن نعيد قراءة الشعر القديم، وسنكتشف - لا محالة - أن ثمة قواعد لم تُصَب كثيراً من الشواهد/الأبيات الشعرية، أو أن كثيراً من الأبيات لا تنتظم في قاعدة نحوية مما جاء به القدماء..

إن هذه المهمة ليست بالمستحيلة، ولا هي صعبة، ولا تحتاج إلى جهود مؤسسات ووزارات، بل إلى بعض التأمّني والتفكير والإحصاء والرصد نصل في نهايتها إلى أن نصوغ مصطلحاً أو

قاعدةً ثلاثم أدبنا ولاسيما الشعر، في عصر صارت له لغته، وأساليبه وتعابيره التي تأثرت بما يحيط بها من الفنون الأدبية والترجمة، ولا شك في أن للترجمة أثراً كبيراً في هذا التطور.

لا نستطيع أن نتجاوز مرحلة الترجمة في لغتنا، ولا يجوز لنا ألاّ نترجم من آداب الأمم الأخرى، وإلاّ تجمّدت لغتنا ووقفت عند حدود لا نريدها، وانقطعنا عن علوم تلك الأمم، فالترجمة صارت واقعاً منذ زمن بعيد، وقررون زادت على العشرة، والترجمة تتطلب مصطلحات جديدة لم نكن نعرفها سواء في الفنون الأدبية أم العلوم، وهذا يفرض علينا واقعاً جديداً علينا أن نقبل به ونسير في طريقه، لأجل لغتنا قبل لغات الآخرين..

إن المصطلح الذي تُرجم من نصّ يجب أن نعني به، وندرسه، ونقوم صحته بما يتلاءم مع لغتنا، ونكون بهذا قد قدّمنا خدمة كبيرة إضافية للغتنا.

ولا شك في أن دراسة المصطلح وتعريفه من أبرز الأمور التي يجب أن تلقى العناية والاهتمام اللازمين من أصحاب العربية، من هنا كان الواجب علينا في المجلة أن نركز على هذا الموضوع، إلى جانب الأبحاث الأخرى التي يتصل بعضها بالمصطلح، وبعضها بالترجمة، يُضاف إليها عدد من الأبحاث المتنوعة التي شكّلت روافد علمية غنية فأغنت هذا العدد الذي يُعتبر من الأعداد المتميزة التي تطرح مسائل مهمة جديدة بالدراسة.

والله وليُّ التوفيق.

قواعد النشر في المجلة

تنتشر المجلة المواد المتعلقة بأحد مجالات اهتمامها من دراسات وبحوث وترجمات وفق القواعد التالية:

1. ألا يكون البحث أو المادة المقدمة للنشر في مجلة التعريب قد سبق لهما أن نشرا أو قدّما للنشر في أيّ من أوعية النشر، وعلى الباحث أن يرفق ببحثه تصريحاً خطياً يفيد بأنه لم يسبق له أن نشر أو أرسل بحثه للنشر لدى أي جهة أخرى.

2. أن تتسم المادة المقدمة للنشر بالمنهجية العلمية في العرض والمعالجة والاستنباط، وأن تتميز بالمتانة في الأسلوب والدقة في الإسناد والتوثيق.

3. ترسل المادة المراد نشرها مرقونة بالحاسوب باستعمال برنامج مايكروسوفت word، ترسل نسخة إلكترونية على بريد المجلة الإلكتروني إلى عنوان المركز التالي:

acatap2@gmail.com

مع مراعاة مايلي:

أ. ألا يتجاوز عدد صفحاتها /20 صفحة/ من الحجم العادي (6000 كلمة).

ب. أن تكون المادة خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية.

ج. ضرورة استعمال علامات الترقيم أصولاً.

د. أن تكون الجمل مترابطة ومتناسكة.

4. تتلقى المجلة المواد المقدمة للنشر من الرعايا العرب من داخل الوطن العربي ومن خارجه، مكتوبة باللغة العربية، على أن ترفق المادة بملخص واف ودقيق لها بحدود 20/1 من عدد صفحاتها.

5. ترفق المادة المقدمة للنشر متضمنة:

- أ. اسم المؤلف الثلاثي بالعربية وبالحروف اللاتينية.
- ب. نبذة مختصرة من سيرته.
- ج. الصفة أو المرتبة العلمية، مثال (دكتور، أستاذ دكتور، باحث أكاديمي... الخ)
- د. عنوان البريدي الكامل.
- هـ. عنوان بريده الإلكتروني.
- و. رقم هاتفه.

6. تُستهل المادة بمقدمة في سطور تبين أهميتها والنتائج والاستنتاجات المستفادة منها، كما تُذيل ببيّنات للمصادر والمراجع المستعملة بحيث يكتب اسم المؤلف أولاً، فاسم المصدر أو المرجع، يليه مكان النشر، فاسم الناشر (دار النشر)، وأخيراً تاريخ الصدور فرقم الصفحة.

7. تقدم الرسوم والأشكال، في حال وجودها في مكانها في النص، وترسل أيضاً بملف أو ملفات منفصلة بحيث تكون واضحة وبدقة صالحة للطباعة أعلى من 200 dpi بحيث تتضمن جميع الشروح والإيضاحات اللازمة والحجم المناسب، على أن يشار إشارة واضحة إلى أمكنتها في متن النص، مع ضرورة مراعاة حقوق الملكية الفكرية للشكل.

8. تُعَرَّب المقالات والبحوث الصادرة بلغات أجنبية وفقاً لـ "تعليمات تعريب البحوث والمقالات" المعمول بها في المركز، والتي تقوم رئاسة التحرير بتزويد المعرّب بها في حال الموافقة المبدئية على تعريب البحث أو المقالة المقترحة من قبله، وعلى المعربين الالتزام التام بهذه التعليمات.

9. تنشر المجلة عروضاً للكتب والبحوث والرسائل الجامعية الحديثة، التي لا يتعدى الفاصل الزمني بين ظهور المادة المعروضة ووصول العرض إلى المجلة أكثر من عام، هذا ومن الضروري عند تقديم العروض مراعاة التعليمات التالية:

- أن يتضمن العرض ملخصاً يتسم بالإيجاز المحكم للمادة المعروضة.

قواعد النشر في المجلة.....

- أن يكون تركيز العارض على رأيه في المادة المعروضة وتقويمه لها.
 - ألا يتجاوز عدد صفحات العرض 7 صفحات /2000 كلمة/.
 - أن يصحَبَ العرضَ معلوماتٌ ببيولوجرافية دقيقة عن المادة المعروضة.
10. يبلغ أصحاب المواد المقدمة للنشر بتسَلُّم موادهم وبالموافقة المبدئية أو عدمها على النشر، وذلك قبل صدور العدد الجديد بثلاثين يوماً.
11. تعرض المواد المقدمة للنشر في حال قبولها مبدئياً على محكِّم أو أكثر من ذوي الاختصاص، وذلك على نحو سري، لبيان مدى أصالتها وقيمتها العلمية وسلامة منهجيتها، ومن ثمَّ صلاحيتها للنشر، وللمجلة أن تأخذ بتقرير المحكِّمين أو أن تعرض المادة مرة أخرى على محكم آخر، ولها أيضاً أن تتخذ قراراً بالنشر أو عدمه إذا رأت خلاف ما يراه المحكم.
12. يحق للمجلة - إذا رأت ضرورة لذلك - إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها، أما إذا رأت المجلة أو المحكِّم وجوب إجراء تعديلات جوهرية عليها حتى تصبح صالحة للنشر، فإنها تعيدها إلى صاحبها للقيام بهذه التعديلات اللازمة.
13. يبلغ أصحاب المواد المقدمة للنشر بالقرار النهائي بالموافقة على النشر أو عدمها وذلك خلال ستة أشهر من تاريخ تسلمها، علماً بأن المجلة ليست ملزمة بإبداء أسباب عدم النشر، كما أنها ليست ملزمة برد المواد التي لا تنشر لأصحابها.
14. تراعي المجلة في أولوية النشر عدة اعتبارات أهمها: تاريخ التسلم والأهمية العلمية للمادة المقدمة، ومدى صلاحيتها وجاهزيتها للنشر، وكذلك تنوع مادة العدد والتوزع الجغرافي لمصدرها من مختلف الدول العربية.
15. لا يحق لصاحب المادة المنشورة في مجلة التعريب، ولا لأي جهة أخرى، إعادة نشرها في أي وعاء آخر للنشر إلا بعد مرور ستة أشهر على تاريخ نشرها في المجلة، وبموافقة خطية من رئيس التحرير، مع ضرورة الإشارة إلى هذه الموافقة، وإلى رقم وتاريخ العدد الذي نشرت فيه من المجلة.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

16. إن مضامين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها، ولا تمثل بالضرورة رأي المركز أو المجلة.

17. تقدم المجلة مكافأة مالية رمزية عن كل مادة تنشر فيها تصل إلى /100/ دولار أمريكي كحد أقصى، علماً أن (الصفحة الواحدة تعادل 300 كلمة حسب الفقرة (3 - أ)).

18. تعتذر هيئة التحرير عن عدم نشر أية مقالة لا تلتزم بالشروط الواردة آنفاً.

19. ترسل المواد وتوجه المراسلات باسم الأستاذ الدكتور زيد إبراهيم العساف مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر إلى العنوان:

المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر

دمشق - ص.ب: 3752

هاتف: 3334876 - 11 - 963+

فاكس: 3330998 - 11 - 963+

البريد الإلكتروني: E-mail: acatap2@gmail.com

الموقع على الإنترنت: www.acatap.org

الصفحة على فيس بوك: المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر



بحوث في التعريب والمصطلحات

الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

القسم الثاني

د. محمود السيّد

رئيس التحرير

عرضنا في القسم الأول من هذا البحث مفهوم الأمن اللغوي والدواعي التي دعت إلى توفير الأمن اللغوي للعربية الفصيحة، وتناولنا فيه أيضاً قضية التعدد اللغوي واللغة الواحدة، وقدمنا نماذج من التنوع اللغوي في بعض الدول كما هو في كندا وإسبانيا والصين، ووقفنا على مسوّغات اعتماد العربية الفصيحة اللغة الموحّدة والموحّدة على الصعيد العربي.

ونعالج في هذا القسم الثاني من البحث إجراءات توفير الأمن اللغوي العربي على الصعيدين الحكومي الرسمي والأهلي على النحو المبين فيما يلي:

رابعاً: من إجراءات توفير الأمن اللغوي العربي

ثمة إجراءات اتخذتها بعض الحكومات العربية لتوفير الأمن اللغوي، وإجراءات أخرى اتخذتها جمعيات أهلية. وفيما يلي إطلالة على جانب من هذه الإجراءات على الصعيدين الحكومي الرسمي والأهلي.

1. إجراءات حكومية

عملت بعض الحكومات العربية على وضع قوانين لحماية اللغة العربية، وكان أول قانون صدر لحمايتها في سورية بعد حصولها على استقلالها، وقانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية في العراق، وقانون حماية اللغة العربية في الأردن، ومشروع تطوير اللغة العربية في دولة

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

الإمارات العربية المتحدة، ومشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة الذي تقدمت به سورية إلى مؤتمر القمة العربي الذي عقد في دمشق عام 2008، وقانون حماية اللغة العربية في قطر، وقانون تعميم استعمال اللغة العربية في الجزائر ...

قانون حماية اللغة العربية في سورية:

صدر المرسوم التشريعي ذو الرقم 139 والتاريخ 1952/11/6 والمتضمن حماية اللغة العربية، وذلك بمنع إطلاق الأسماء الأعجمية على المَحالّ العامة والخاصة، والعمل على وضع التسميات العربية على المَحالّ التجارية والخدمية والسياحية، كما صدر بتاريخ 1970/5/7 بلاغ من رئاسة مجلس الوزراء رقمه 95/ب/5/1709، ويتضمن الحد من طغيان الأسماء الأجنبية على المَحالّ العامة والخاصة. وبعد عشر سنوات صدر أيضاً تعميم من رئاسة مجلس الوزراء موجه إلى الجهات المعنية رقمه 2721/1 وتاريخه 1980/5/28 يتضمن الموافقة على توصية اللجنة الثقافية المتخذة في جلستها المنعقدة بتاريخ 1980/3/4 بخصوص تعريب أسماء المَحالّ القائمة في البلاد.

ونصت المادة الثالثة من قرار وزير السياحة ذي الرقم 397 لعام 1980 على أن تختار المكاتب والمنشآت السياحية على اختلاف درجاتها وفئاتها في التصنيف أو التأهيل أسماءً عربية فقط، ويحظر عليها استخدام أسماء أجنبية، واستثنى القرار المنشآت السياحية الأجنبية ذات المستوى والتصنيف الدوليين والخاضعة لأنظمة الوزارة والمرتبطة بها بموجب العقود المبرمة معها.

وعلى الرغم من هذه العناية التي أولتها سورية للغتها الأم العربية الفصيحة تفاقمت ظاهرة إطلاق التسميات الأجنبية والعامة على المَحالّ التجارية والمصانع والمعامل والمطاعم والفنادق والمقاهي والنوادي والشركات وما يماثلها، وعلى المنتجات الوطنية والإعلانات في الشوارع والمَحالّ العامة وفي وسائل الإعلام، وهذا السلوك يؤدي إلى انقاص من قيمة لغتنا، واستهتار بانتمائنا، وخطر على ذاتيتنا الثقافية وهويتنا القومية، وهذا ما دعا رئيس الجمهورية إلى التنبيه

الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

على هذا الخطر في خطاب القسم، وإلى إصداره القرار الجمهوري ذا الرقم 4 لعام 2007 بتشكيل لجنة التمكين للغة العربية، وجعل من مهامها وضع خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها، كما بادرت سورية إلى تقديم مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة إلى مؤتمر القمة العربي الذي عقد في دمشق في 2008/3/30، واعتمد المؤتمر هذا المشروع مقدماً الشكر للجمهورية العربية السورية على مبادرتها لإطلاقه.

ولقد تبين للجنة التمكين ولمجمع اللغة العربية أن ثمة حاجة ميدانية ماسّة وملحّة لوضع قانون لحماية اللغة العربية بعد أن مضى على إصدار القانون الذي وضع لحمايتها بعد الاستقلال ما يزيد على خمسة وخمسين عاماً طرأت خلالها مستجدات ومتغيرات على الصعيدين العربي والعالمي.

ووافق مجلس الوزراء على مشروع قانون جديد يشتمل على عشرين مادة، وجاء فيه أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ويشمل ذلك المراسلات والمذكرات والأعمال الإدارية في جميع الجهات العامة ومؤسسات القطاع العام والخاص والمشارك والمنظمات الشعبية والنقابات المهنية والجمعيات والمنظمات غير الحكومية، وفي الاجتماعات والمفاوضات والمؤتمرات والندوات، ويجوز استعمال اللغة الأجنبية في بعض الحالات على أن تشفع بترجمة إلى اللغة العربية، كما أن التدريس والتعليم في المراحل التعليمية كافة يكون بالعربية ما عدا مقررات اللغات الأجنبية.

وأشار القانون إلى أنه لا يجوز الترخيص لأي مؤسسة تعليمية وطنية التعليم أو التدريس باللغة الأجنبية، وتلتزم المدارس الأجنبية بتدريس مقرر اللغة العربية في كل سنة من سنوات الدراسة فيها وتدريس تاريخ سورية والوطن العربي وجغرافيتها فيها، وتدعم الدولة مدارس الجاليات العربية السورية التي تعنى بتعليم أبنائها اللغة العربية في المهجر، ويلتزم الإعلام العام والخاص المقروء والمسموع والمرئي باللغة العربية السليمة، وتراعى اللغة العربية الميسرة في البرامج الخدمية والمنوعات، وترجم البرامج الأجنبية إلى اللغة العربية، ويستثنى من ذلك برامج

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

الإعلام الموجهة إلى الخارج باللغات الأجنبية من إذاعة وتلفزة وصحافة، ولا يجوز استعمال اللهجات العامية في الإعلانات واللافتات والدعايات، ونحوها من أشكال الترويج. ولا يجوز تسمية المحالّ والشركات والمؤسسات الوطنية بغير اللغة العربية، وتعد التسميات المستمدة من اللغات القديمة كالآرامية والسريانية والآشورية.. الخ بحكم المسميات العربية. كما يحق للمواطنين تسمية محالهم بأسمائهم الشخصية. أما المؤسسات والشركات العالمية فيكتب اسمها بالعربية أولاً إلى جانب اسمها الأجنبي وبمساحة أكبر من مساحة اللغة الأجنبية.

وتضمّن القانون أيضاً إثبات العلامات التجارية الوطنية بأسماء عربية، ويستثنى من ذلك المواد المعروفة بأسماء تجارية عالمية المرخص بيعها في سورية. أما ما هو معدّ للتصدير فتوضع عليها التسمية العربية إلى جانب الاسم الأجنبي.

وأشار القانون إلى ضرورة استعمال المصطلحات العلمية العربية وتحرير عقود العمل في الشركات والمؤسسات الأجنبية العاملة في سورية باللغتين العربية والأجنبية. وعلى المؤسسات والشركات والمصارف والمحال الأجنبية إجراء مراسلاتها باللغة العربية وتقديم بياناتها مثل الإيصالات والفواتير والكشوف والتعليمات بالعربية، ولا يجوز الاكتفاء بالأجنبية. وتلتزم الشركات المصدرة بكتابة اسم المنتج ودليل استعماله باللغة العربية إلى جانب اللغة الأجنبية. كما تلتزم الشركات الموردة بكتابة ملصق على المنتج باللغة العربية يتضمن اسمه ومكوناته ونحوها. ويلتزم ممثلو الجمهورية العربية السورية في المنظمات الدولية والإقليمية باستعمال العربية في خطاباتهم ومداخلاتهم في المحافل الدولية، كما تلتزم الجهات العامة بالتدقيق اللغوي لما يصدر عنها من مكاتبات وتعميمات وقرارات وتعليمات وإعلانات.

وأشار القانون إلى فرض عقوبات على مخالفي القانون بعد إنذارهم، ويحق لكل ذي مصلحة مادية أو معنوية في تطبيق القانون التظلم أمام الجهات المختصة من أي تصرف مخالف لأحكامه أو سوء تطبيقه. ومنح القانون مدة أقصاها ستة أشهر من تاريخ صدوره للمؤسسات والشركات والمحال لتسوية أوضاعها وفق مقتضياته.

قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية في العراق:

صدر قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية في العراق ذو الرقم 64 لعام 1977، وينص في مادته الأولى على أن تلتزم الوزارات وما يتبعها من الدوائر والمؤسسات والمصالح والشركات والجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية، واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها، وذلك بجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية.

ونصت المادة الثانية على اعتماد العربية لغة للتعليم في المؤسسات التعليمية في المراحل الدراسية كافة، كما نصت المادة الثالثة على التزام مؤسسات النشر والإعلام باللغة العربية والحرص على سلامتها، وأوجبت المادة الرابعة التحرير بالعربية لجميع الوثائق والمذكرات والمكاتبات وغيرها من المحررات المقدمة إلى الدوائر الرسمية وشبه الرسمية، ومنها المصالح والمؤسسات والشركات العامة، وإذا كانت هذه المحررات بلغة أجنبية وجب أن ترفق بها ترجمتها العربية، وكذلك السجلات والمحاضر والعقود والإيصالات والمكاتبات المتبادلة بين المؤسسات والجمعيات والشركات العامة أو بينها وبين الأفراد، واللافئات على واجهات المحال، ويمكن كتابتها عند الحاجة بلغة أجنبية بشرط أن تكون الكتابة باللغة العربية أكبر حجماً وأبرز مكاناً.

ونص القانون أيضاً على كتابة العلامات والبيانات التجارية بالعربية، ويجوز إضافة الأجنبية إلى جانب العربية فيما يتعلق بالبضائع الواردة من الخارج أو المعدة للتصدير إلى خارج العراق.

وثمة مادة تتعلق بوجوب استعمال المصطلحات العربية، وتجنّب استعمال المصطلحات الأجنبية إلا عند الضرورة.

وأشار القانون في المادة الثامنة منه إلى أن على الوزارات أن تنشئ أجهزة لها تُعنى بسلامة العربية في وثائقها ومعاملاتها بما يكفل تطبيق هذا القانون.

وعُدَّ المجمع العلمي العراقي المرجعية الوحيدة في وضع المصطلحات العلمية والفنية.

وثمة مادة تنص على العقوبات الانضباطية للمخالفين لأحكام القانون وبالعقوبات المنصوص عليها في القوانين المرعية.

لجنة التمكين للغة العربية في سورية:

شُكلت هذه اللجنة بموجب القرار الجمهوري ذي الرقم 4 لعام 2007، وقد اشتملت الخطة التي وضعتها اللجنة على أربعة أقسام، تناول أولها المسوّغات التي دعت إلى وضعها، وتناول القسم الثاني الواقع اللغوي والعوامل المؤثرة فيه، ووقف القسم الثالث على سبل المواجهة. أما القسم الرابع والأخير فبحث في القضايا الملحة التي تتطلب المعالجة السريعة.

وانطلقت الخطة في معالجة الموضوع الذي تناولته من أن اللغة مسؤولية المجتمع، ولذلك ورّعت الأدوار المنوطة بكل جهة من جهات المجتمع، وركزت على الأمور الإجرائية التي على كل جهة أن تقوم بتنفيذها على أن تتكامل الأدوار.

وإذا كانت اللجنة المشكلة بموجب القرار الجمهوري هي **اللجنة العليا** للتمكين في سورية، فإن ثمة لجنة تتصوي تحتها في كل من وزارات التربية، الثقافة، التعليم العالي، الإعلام، الأوقاف، وفي كل محافظة من المحافظات السورية، وهي لجنة للتمكين أيضاً.

وتتابع اللجنة العليا تنفيذ البنود الواردة في الخطة، وترفع تقاريرها إلى السيدة نائب رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية الأستاذة الدكتورة نجاح العطار، وتتلقى ملاحظاتها بهذا الخصوص.

قانون حماية اللغة العربية في الأردن:

صدر في الأردن قانون لحماية اللغة العربية رقمه 35 وتاريخه 2015/5/17، ويشتمل على ثماني عشرة مادة، صاغها مجمع اللغة العربية في الأردن، وتضمن في المادة الثالثة منه أن على الوزارات والدوائر الحكومية والمؤسسات الرسمية العامة والخاصة والبلديات والنقابات والجمعيات والنوادي والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني والشركات أن تلتزم باستخدام اللغة العربية في نشاطها الرسمي، ويشمل ذلك تسمياتها ووثائقها ومعاملاتها وسجلاتها وقبورها والوثائق والعقود والمعاهدات والاتفاقيات والعطاءات التي تكون طرفاً فيها، والكتب الصادرة عنها ومنشوراتها وقوائمها ولوائح أسعارها والبيانات والمعلومات المتعلقة بالمصنوعات والمنتجات الأردنية، ويشمل ذلك المنتجات التي تصنع في المملكة بترخيص من شركات أجنبية، وأنظمة العمل الداخلية لأي

الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

شركة أو مؤسسة أو هيئة رسمية أو أهلية أو خاصة، أو عقود العمل والتعليمات الصادرة بموجب القوانين والأنظمة وأدلة الإجراءات والعمليات الخاصة بها، وأي إعلانات مرئية أو مسموعة أو مقروءة موجهة للجمهور، أو أي منشورات دعائية وغير دعائية وأي حملات إعلامية. ونصت المادة الحادية عشرة من القانون على أن تصاغ جميع تشريعات الدولة باللغة العربية.

وفي حال استخدام الجهات لغة أجنبية فعليها أن ترفق بها ترجمة إلى اللغة العربية.

وثمة مادة تتعلق بلغة الإعلانات وترجمة الأفلام والمصنفات الناطقة بغير العربية، ومادة تتعلق بكتابة اللافتات وأوراق النقد والمسكوكات والميداليات والشهادات والمصدقات باللغة العربية، ويجوز أن تضاف إلى الكتابة العربية ما يقابلها بالأجنبية على أن تكون اللغة العربية أكبر حجماً وأبرز مكاناً.

واشتمل القانون في مادته السادسة على أن تسمى الشوارع والأحياء والساحات العامة والمؤسسات التجارية والمالية والصناعية والعلمية والاجتماعية والخدمية والترفيه والسياحة باللغة العربية، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة والأهلية.

وألزم القانون الجهات المشمولة بأحكام القانون باستعمال المصطلحات العلمية والفنية التي يعتمدها المجمع، كما ألزم المعلمين في مراحل التعليم كافة باستعمال العربية في عملهم ونشر البحوث بها، ويجوز النشر بلغات أجنبية على أن يقدم الباحث ترجمة للبحث بالعربية. وينطبق ذلك على المتحدثين في المؤتمرات والندوات والاجتماعات المنعقدة في المملكة.

وأجاز القانون للمؤسسات التي تستورد سلعاً وبضائع أجنبية استخدام اللغة الأجنبية على أن تضاف إليها ترجمة عربية. ونصت المادة العاشرة على عدم تعيين أي عضو هيئة تدريس في التعليم العالي أو مذيع أو معدّ أو محرر في أي مؤسسة إعلامية إلا إذا اجتاز بنجاح امتحان الكفاية في اللغة العربية. كما نصت المادة الثالثة عشرة على أن تلتزم مؤسسات التعليم العالي الرسمية والخاصة والمؤسسات التعليمية على اختلاف أنواعها ودرجاتها بالتدريس باللغة العربية في جميع العلوم والمعارف، ما عدا ما تقرره وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي والبحث

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

العلمي بهذا الخصوص. وألزم القانون في مادته الرابعة عشرة مؤسسات الدولة كافة بالعمل على سيادة اللغة العربية وتعزيز دورها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ومؤسسات المجتمع المدني، وفي الأنشطة العلمية والثقافية: واللغة العربية هي لغة المحادثات والمفاوضات والمذكرات والمراسلات والاتفاقيات والمعاهدات مع الحكومات الأخرى والمؤسسات والمنظمات والهيئات الدولية، وهي لغة الخُطب التي تلقى في المجتمعات الدولية والمؤتمرات الرسمية، كما تعتمد العربية في كتابة العقود والمعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بين المملكة والدول الأخرى والشركات ذات الجنسية غير الأردنية، على أن يرفق بأي منها ترجمة إلى اللغة المعتمدة لدى الطرف الآخر.

وثمة نص على العقوبات في المادة الخامسة عشرة من القانون.

مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة:

أسهمت اللجنة العليا للتمكين في الجمهورية العربية السورية بصوغ هذا المشروع، وتقدمت به الجمهورية العربية السورية إلى مؤتمر القمة العربي الذي عقد في دمشق عام 2008، واعتمده المؤتمر بعد مناقشته، وكلف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإنفاذه بالتنسيق مع الدول الأعضاء، ومع الجمهورية العربية السورية باعتبارها هي من أطلقت هذا المشروع، ثم وضعت آليات تنفيذه في قمة الدوحة عام 2009.

ويهدف هذا المشروع إلى الحفاظ على الهوية العربية متمثلة في لغتنا الأم (العربية الفصحى)، والاهتمام باللغة العربية على أنها وعاء للمعرفة، وسبيل الأمة نحو التوجه إلى مجتمع المعرفة، ودعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الدول العربية استناداً إلى دور اللغة الأم في هذه المجالات.

وكانت الدوافع وراء اتخاذ قرار مؤتمر القمة:

1. معالجة القضايا المعاصرة للغة العربية للتوجه بالدول العربية نحو مجتمع المعرفة، والاقتصاد القائم عليها، والتعامل مع الفرص والتحديات التي يطرحها هذا التوجه.
2. تدارك تأثير الضعف اللغوي على عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

3. معالجة مسائل التنمية البشرية ذات العلاقة باللغة كالتعليم والتعلم مدى الحياة والتواصل.

ولقد توخى واضعو المشروع ومقرروه أن يحقق النتائج الآتية:

1. توطين المعرفة بلغة المجتمع وإتاحتها له.
 2. حماية الهوية العربية والثقافة العربية، وترقية اللغة العربية، والحفاظ على مكانتها بين اللغات العالمية الحية.
 3. ربط مخرجات التعليم العالي والبحث العلمي العربي بالقوى العاملة العربية، ونقل المعرفة إليها.
 4. تسهيل تداول المعرفة المتخصصة ضمن كل قطاع بلغة العاملين فيه، ومن ثم رفع الإنتاجية والقدرات المعرفية والابتكار.
 5. تعزيز قيام الصناعات والخدمات القائمة على المعرفة.
 6. الرقي باللغة العربية في الأنشطة الإعلامية والإعلانية والوسائط المتعددة، والإسهام في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- أما مجالات عمل المشروع فكانت:

1. وضع سياسة لغوية قومية، وسياسات وطنية متناسقة معها، ووضع خطط لتنفيذها من خلال برامج وطنية وقومية.
2. وضع برامج قومية ووطنية لمعالجة قضايا اللغة العربية ذات الأولويات في الميادين الآتية:
 - تحديث مناهج تعليم اللغة العربية، واستخدام تقانة المعلومات والاتصالات، وزيادة عدد مؤسساتها، واعتماد مبدأ التعلم مدى الحياة في ذلك، والعناية بمدرسيها وأساتذتها.
 - تعريب العلوم والتقانات وتوطينها لدى القوى العاملة العربية في جميع القطاعات، تعليمياً وتأليفاً وترجمة، مع الاهتمام باللغات الأجنبية اهتماماً كبيراً.
 - تعزيز استعمال اللغة في الإعلام والإعلان والرقي بهذا الاستخدام، ووضع سياسات وإجراءات تنفيذية لذلك.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

3. وضع برامج لتعزيز البحث والتطوير وزيادة عدد المؤسسات العاملة في مجال بحوث اللغة العربية، وتنسيق البرامج على المستوى القومي، وتنفيذها في الجامعات ومعاهد البحوث العربية، وإنشاء هيئة تنسيقية عليا من وزارات التعليم العالي والبحث العلمي والمؤسسات التابعة لها.

4. توجيه هذه البحوث إلى القضايا اللغوية ذات البعد التقني وخاصة مسائل المصطلحات والذخيرة اللغوية، والمعاجم، وتعليم اللغة، وتقييم استعمال اللغة العربية في تقنية المعلومات والاتصالات، وتطبيقاتها في اللغة العربية، والترجمة الآلية، ومسألة اعتماد "التشكيل" في الكتابة، وتعرف الحرف العربي، ومعالجة الكلام العربي تعرفاً وتوليداً، وإدارة المعرفة باللغة العربية... الخ.

5. إصدار تشريعات وطنية لحماية اللغة العربية وترقية استخدامها، وتطوير استعمالاتها في الإعلام والإعلان بكل أشكاله، وفي المواقع العربية على الشبكة (الإنترنت)، وزيادة المحتوى العربي على هذه الشبكة.

6. وضع برامج للتوعية بأهمية اللغة العربية في التوجه نحو مجتمع المعرفة واقتصاد المعرفة، كونها وعاء المعرفة الوحيد للغالبية العظمى من المجتمع العربي.

7. تأكيد استعمال اللغة العربية رسمياً في المحافل الإقليمية والدولية والنشاطات العلمية والثقافية، كالمؤتمرات والندوات... الخ.

ولقد التزمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بناء على تكليف من مؤتمر القمة بتنفيذ المشروع بالتنسيق مع الدول الأعضاء كما سبقت الإشارة، ومع التزام الحكومات العربية بهذا الإنفاذ، إلا أن المشروع تضمن الطلب إلى القطاع الخاص والمجتمع المدني إقامة مدن للصناعات اللغوية مثل صناعة المحتوى، وصناعة البرمجيات اللغوية العربية، وصناعة تعرف الحروف، وتعرف الكلام، وصناعات الجيل القادم للحوسيب، والاتصالات القائمة على الدلالة،

* أي ضبط أحرف الكلمة بالحركات.

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

وتشجيعهما على القيام بالتعلم والبحث والتطوير والابتكار في هذه المجالات.

والسؤال الذي يمثل أماننا: هل أنجزت بعض المشروعات التي دعا إلى إنفاذها المشروع ؟

الواقع كان ثمة إنجاز لبعض البنود التي تضمنها المشروع، ومما قامت المنظمة بإنفاذه:

1. إصدار ستة مجلدات حول مصفوفة اللغة العربية، والدليل الإرشادي لمعلمي اللغة العربية، وتتضمن المجلدات نصوصاً تحت عنوان «العربية لغتي» للصفوف الأول والثاني والثالث لمرحلة التعليم الأساسي.
2. إنجاز مصفوفة للغة العربية لمرحلة التعليم الأساسي من الأول وحتى الصف التاسع.
3. إنجاز دراسة علمية حول أسباب تدني مستوى تعليم اللغة العربية ومسبباتها.
4. إنجاز دراسة حول استخدام التقانات الحديثة في تطوير اللغة العربية، ووضع الإطار العام لبرامج البحث والتطوير، وهي: برامج المصطلحات، برامج المعالجة الآلية، برامج البحوث الدلالية، برامج الترجمة الآلية، برامج أساليب تقويم المهارات اللغوية.
5. إنجاز وثيقة السياسة اللغوية القومية للغة العربية.
6. إنجاز دراسة مسحية لواقع تعليم اللغة العربية في الوطن العربي بدءاً من التعليم الأساسي وانتهاء بالتعليم الجامعي.
7. إنجاز القاموس المدرسي الموحد بالتعاون مع مكتب تنسيق التعريب بالرباط.
8. إنجاز مشروع تطوير المحتوى الرقمي على الشابكة بالتعاون مع المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق.
9. التنسيق مع جامعة محمد الخامس في المملكة المغربية لإنجاز مشروع اختبارات الكفاية اللغوية على غرار اختبار «التوفل» باللغة الإنجليزية.
10. إنجاز دراسة عن تطوير استخدام اللغة العربية في وسائل الإعلام والإعلان.
11. إنجاز دليل مرجعي لرفع مستوى أعضاء الهيئة التدريسية لغوياً.
12. إنجاز دليل استرشادي للكاتب المؤلفة ضمن سلسلة «العربية لغتي».

مشروع تطوير اللغة العربية في دولة الإمارات:

وهي مبادرة من سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، وقد ظهرت في إمارة أبو ظبي «أكاديمية اللغة العربية» أواخر عام 2009 عقب مؤتمر القمة العربي الذي عقد في الدوحة في آذار (مارس) 2009، ومؤتمر القمة العربي الذي عقد في دمشق في آذار (مارس) 2008.

وجاء في البيان الصادر عن الأكاديمية:

«إيماناً منا بأهمية العناية باللغة العربية وضرورة تحديثها وتطويرها لاستيعاب إيقاعات العصر واتخاذ المبادرات الإيجابية الخلاقة، واستناداً إلى ما أثبتته هذه اللغة على مدى الحقب التاريخية المتلاحقة من قدرة على الصمود المكين والانطلاق المتجدد، وأمام التحديات الجسيمة التي تواجه اللغة العربية، والتي ما انفكت تتعاظم بحيث باتت تقلص إشعاعها، وتهدد مصيرها، ويخشى أن تنذر بأفول نجمها، نشأت في أبو ظبي «أكاديمية اللغة العربية» تجسماً للشعور العميق بالمسؤولية التاريخية نحو لغتنا العربية التي هي لسان النص المقدس، ومستودع تراثنا الحضاري، ورمز هويتنا الجامعة، وهي أداة التواصل في الفضاء العربي، وعدة الأمة في الإبداع وبناء الحياة حاضراً ومستقبلاً».

إنّ أكاديمية اللغة العربية مشروع ينطلق من التسليم بأن أفضل المسالك وأنجحها في مواجهة التحديات الراهنة هو الإقدام بجرأة تامة على الأخذ بناصية العلم في معالجة قضايا اللغة العربية لفض الإشكالات العالقة بتناولها، وجعلها اللغة المعبرة عن حاجات العصر ورهاناته النابعة من الثورة المعرفية الكبرى التي تعيشها الإنسانية قاطبة في زمننا الراهن.

إنّ الغاية البعيدة السامية التي ترمي إليها «أكاديمية اللغة العربية» هي أن تظل لغتنا العربية لغة حية، وأن ترقى إلى منزلة اللغات العالمية الكبرى، وأن تتعزز بكل المستحدثات العصرية ولاسيما في مجال الطفرة الحاسوبية الرقمية لتحظى عندئذ بالمكانة الاعتبارية المكيّنة في نفوس أبنائها من مختلف الأجيال.

وبناء على ذلك ستعمل الأكاديمية على الاهتمام بالبرامج الحاسوبية المتصلة باللغة العربية

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

في المجالات المختلفة من الترجمة ومعالجة النصوص إلى المعاجم والموسوعات. وستجعل ضمن أولوياتها تطوير طرائق تعليمها بالإفادة من النقلة المنهجية التي حققتها علوم التربية، كما ستجتهد في نشر الثقافة العلمية بواسطة اللغة العربية متوسلة بتنمية الذاكرة الرقمية في مختلف حقول المعرفة. ولن يفوت الأكاديمية الاهتمام بالوسائط الإعلامية ولاسيما في مجال البحث الفضائي الغزير.

مبادرة «ميثاق اللغة العربية»:

أطلقها حاكم دبي سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في أيار عام 2012، ومما جاء في هذا الميثاق:

المادة الأولى: اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، وذلك بحسب المادة السابعة من دستور دولة الإمارات العربية المتحدة.

المادة الثانية: اللغة العربية هي لغة الحكومة، وعليه تكون جميع الخطابات والمراسلات والوثائق والاتفاقات الرسمية والقوانين والأنظمة والقرارات الصادرة عن حكومة دولة الإمارات باللغة العربية.

المادة الثالثة: اللغة العربية هي لغة التخاطب الرسمي ضمن الجهات الحكومية، وبين الجهات الحكومية والأطراف الأخرى ذات الصلة.

المادة الرابعة: اللغة العربية هي اللغة الأساسية في الخدمات التي تقدمها الجهات الحكومية مع إتاحة هذه الخدمات بلغات أخرى غير الناطقين بالعربية عند الحاجة.

المادة الخامسة: اللغة العربية عنصر أساسي في التعليم في دولة الإمارات، ويجب على وزارة التربية والتعليم وجميع الجهات المعنية في الدولة أن تبذل قصارى جهدها لتطوير أساليب ومهارات تعلم اللغة العربية، وبناء قدرات مدرسي العربية في المدارس الحكومية والخاصة في الدولة بما يتطابق مع أعلى المعايير العالمية، كما توجه الحكومة الجهات المعنية لضمان التزام المدارس الخاصة بالتركيز على اللغة العربية لتمكين الطلاب الإماراتيين والناطقين

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

بالعربية من امتلاك أدوات لغتهم.

وتفعيلاً لميثاق اللغة العربية أصدر المجلس الاستشاري للغة العربية برئاسة وزير الثقافة عام 2013 قراراً يقضي بوضع اختبارات موحدة تقيس مدى كفاءة الطلاب في استعمال العربية، كما أقر المجلس أهمية التنسيق مع مؤسسات النشر الرقمي والتواصل مع البلديات والدوائر الاقتصادية في إمارات الدولة. وكل هذه المبادرات لتمكين اللغة العربية والحفاظ على الهوية والأمن اللغوي.

قانون حماية اللغة العربية في قطر :

أقره مجلس الوزراء القطري في العاشر من شهر شباط لعام 2017، وورد فيه الطلب إلى الوزارات والمؤسسات الرسمية والمؤسسات التعليمية الرسمية في جميع مراحل التعليم والبلديات باستخدام العربية في جميع ما يصدر عنها من أنظمة وتعليمات ووثائق ومعاملات ومراسلات وإعلانات، كما أنه يلزم مؤسسات التعليم العالي التي تشرف عليها الحكومة بالتدريس باللغة العربية في جميع العلوم والمعارف.

إنّ مشروع القانون الجديد يتضمن مواد ملزمة تهدف إلى سيادة اللغة العربية في كل مؤسسات الدولة وتعاملاتها.

قانون تعميم استعمال اللغة العربية في الجزائر :

أصدر المجلس الشعبي الوطني (البرلمان الجزائري) قانون تعميم استعمال اللغة العربية في الجزائر، ولكن هذا القانون جمد بإصدار مرسوم تشريعي يقضي بتجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية في 4 تموز (يوليو) عام 1992، وما زالت الأمور تترنح مكانها.

قانون مجمع اللغة العربية في القاهرة:

لم يصدر قانون خاص لحماية اللغة العربية في مصر، وإنما عدلت الفقرة (ز) من قانون مجمع اللغة العربية في القاهرة، ويتضمن التعديل إلزام الجهات في الدولة بتنفيذ قرارات مجمع

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

اللغة العربية الرامية إلى سلامة اللغة العربية وحمائتها. وأعدّ المجمع حالياً قانوناً لحماية اللغة العربية تمهيداً لعرضه على البرلمان المصري لاعتماده.

تلك هي بعض إجراءات قامت بها عدد من الحكومات العربية، ولسنا الآن في مجال الحصر، وإنما هي إشارات إلى جهود أنجزت على الصعيد الرسمي في بعض أقطار وطننا العربي.

2. إجراءات أهلية

لم يكن الاهتمام بقضايا اللغة العربية مقتصرًا على الحكومات والجهات الرسمية، وإنما اهتمت بها جمعيات ولجان أهلية كان ثمة هاجسٌ عندها لحماية اللغة العربية إن في مشرق الوطن العربي أو في مغربه. ولسنا هنا في مجال الحصر، وإنما سنكتفي بالإشارة إلى بعض هذه الجمعيات على أنها نموذج لما يجري على الصعيد الشعبي في مجال الاهتمام باللغة العربية، والحرص على سلامتها وأمنها. ومن هذه الجمعيات:

1. **جمعية لسان العرب:** وهي منظمة أهلية نشأت في مصر عام 1992، وعنوانها «جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية».

2. **جمعية حماية اللغة العربية في دولة الإمارات العربية المتحدة:** وهي جمعية أهلية جرى إقرارها بدولة الإمارات العربية المتحدة بالقرار الوزاري ذي الرقم 559 سنة 1999، واتخذت مقراً لها في إمارة الشارقة، ثم انتقلت إلى القصباء، وتمثلت أهدافها في غرس الاعتزاز باللغة العربية في نفوس أبنائها، والتوعية بأهمية اللغة العربية على المستويين الشعبي والرسمي، وحث الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة على استخدام اللغة العربية، والعمل على تيسير تعليم العربية لأبنائها، ولغير الناطقين بها، وتنظيم المحاضرات والندوات وحلقات البحث بكل الأشكال المعروفة إعلامياً للنهوض باللغة العربية وسيادتها فصيحة في المجالات كلها، وذلك بعد أن استشرى التلوث اللغوي، بعضه أجنبي غربي، وبعضه أجنبي آسيوي، وبعضه الآخر محلي يرسل العنان للعامة.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

ولهذه الجمعية لجان متخصصة، وهذه اللجان هي: اللجنة الثقافية، لجنة البحوث والدراسات، اللجنة الإعلامية، لجنة العلاقات العامة، لجنة الإدارة والتنظيم، اللجنة النسائية، لجنة الرصد والمتابعة، اللجنة المالية، لجنة أصدقاء اللغة العربية في المدارس والمعاهد والجامعات.

أصدرت الجمعية مجلة متخصصة شهرياً باسم «العربية»، وقامت بطباعة عدد من الكتب المتخصصة بالعربية وعلومها نثراً وشعراً، إضافة إلى طباعة قصص للأطفال، والمشاركة في معارض الكتب المحلية والعربية. وتقيم الجمعية مؤتمراً سنوياً للغة العربية، وتقيم احتفالاً بمناسبة الاحتفال بيوم اللغة الأم، وتجري مسابقات تلفزيونية وإذاعية لوضع برامج ضمن «لغتنا هويتنا» في إذاعة الشارقة. وثمة برامج أنجزتها لتعليم مهارات اللغة العربية وأساليبها للعرب ولغير الناطقين بها بواسطة الحاسوب.

3. **جمعية حماة اللغة العربية في مصر:** أسست عام 2000، وتعمل على التعريف بخصائص اللغة العربية وميزاتها وجمالياتها في الإبداع الأدبي والفكري والعلمي. وتمنح عضوية الجمعية لكل غيور على سلامة اللغة العربية متحمس لتدعيم مكانتها في مصر والأقطار العربية. وتسعى الجمعية إلى إبلاغ ثلاث رسائل هي:

1. اعتزاز باللغة العربية وبمنزلتها، وبقين بقيمتها برغم كل مظاهر الإهمال وعناصر التحديات.

2. عتاب مرير لما يحدث من أهلها من هجر ومجافاة.

3. عين على الماضي تذكرة وذكرى، وأخرى على المستقبل ثقة وأملاً، رسالة تقول: بقدر الاعتزاز باللغة، بقدر اليقين من تجاوز كل الصعاب والعقبات.

أما آلية عمل الجمعية فتتمثل في الآتي:

1. الاتصال المباشر بالجمهور قدر الإمكان عن طريق الندوات المنتظمة.

2. الحرص على المشاركة في المناسبات الثقافية.

3. الاتصال المستمر بالمؤسسات والجمعيات المعنية بالتربية والثقافة.

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

4. الاتصال الدائم بأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة.
5. إبداء الرأي في محتوى الكتب المدرسية ومدى ملاءمتها لعقول التلاميذ أو الطلبة في المراحل العمرية المختلفة.
6. الإسهام في كتابة البحوث الهادفة إلى خدمة اللغة العربية والثقافة العربية.
7. النشر في الصحف والمجلات بوضوح دعماً لرسالة الجمعية نحو لغتنا العربية.
8. المضي قدماً في اتخاذ الخطوات والإجراءات الإدارية لإصدار مجلة فصلية لتكون مرآة للجمعية تعكس عليها نشاطاتها وإبداعاتها اللغوية.
9. فتح نوافذ مهمة على الشبكة (الإنترنت)، والقنوات المسموعة والمرئية للإسهام في تحقيق أهداف الجمعية.

ومن إنجازات الجمعية:

1. أسبوعيات طاهر أبو زيد: برنامج أسبوعي على إذاعة البرنامج العام.
 2. لسان العرب من إذاعة صوت العرب: برنامج يومي يبث من صوت العرب.
 3. ذكريات إذاعة: برنامج يومي على شبكة الشرق الأوسط.
 4. محكمة النقد: برنامج تلفزيوني أسبوعي على القنوات التعليمية.
 5. برنامج أبجد هوز وبالعربي الفصحى على موجات الشرق الأوسط: برنامج إذاعي.
 6. برنامج شعري يومي: برنامج إذاعي على موجات صوت العرب.
 7. لغة العرب: برنامج يومي على شبكة صوت العرب.
- وفي جمهورية مصر العربية أيضاً الجمعية المصرية لتعريب العلوم، وهي جمعية أهلية تخدم اللغة العربية إلى جانب جمعية حماة اللغة العربية.
4. جمعية فعل أمر في لبنان: أسست "جمعية فعل أمر" في لبنان بمبادرة من ناشطين في المجتمع المدني في لبنان تزامناً مع إعلان بيروت عاصمة عالمية للكتاب في شهر نيسان (أبريل) عام 2009، وهي جمعية ثقافية تهدف إلى:

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

1. نشر الوعي الثقافي بهدف الحفاظ على ثقافتنا ولغتنا العربية من خلال تقديم الأرضية المناسبة لاستحداث إنتاج ثقافي معاصر.
2. الإسهام في بناء مجتمع عربي شبابي فاعل من خلال تشجيعه على تعرف ثقافته ومهمتها، وإنتاجه بها.
3. العمل على نشر الثقافة العربية، وجعلها في متناول الجميع.

وتعمل الجمعية على تسليط الأضواء على أهمية اللغة والتراث والتاريخ العربي، وقد اختارت اسمها من صلب القواعد العربية (فعل أمر) داعية إلى التحرك لمواجهة العولمة، وهيمنة ثقافة واحدة على العالم، وتهميش الهوية العربية. كما تعمل على استحداث وعي ثقافي عند جيل الناشئة والشباب، وخصوصاً فيما يتعلق بأهمية اللغة وارتباطها المباشر بالهوية والإنتاج الإبداعي الثقافي.

وتتطلق الجمعية في إطلاق عملها من مقررات المؤتمر العالمي حول «حق الشعوب بالحفاظ على لغتها الأم»، ومن تقرير اليونسكو الذي تضمن الإشارة إلى أن اللغة العربية تعتبر من اللغات المهددة نظراً لعدم تطورها، وسيطرة اللغات الأجنبية، وخاصة الإنجليزية على المؤسسات التربوية في البلدان العربية.

قامت الجمعية بتنفيذ حملات عدة لتوعية الشباب والجمهور، ومن شعار إحدى حملاتها «بحكيك من الشرق بتزد من الغرب»، وشعار آخر هو «نحن لغتنا»، وشعار «تخدمنا كل يوم فلنخدمها يوماً»... الخ.

قانون اللغة العربية في الدول العربية والدول الإسلامية:

وهو القانون الذي وضعه المجلس الدولي للغة العربية، ويشتمل على قسمين أولهما قانون اللغة العربية في الدول العربية، وثانيهما قانون اللغة العربية في الدول الإسلامية. وفيما يلي فكرة عن مضمون كل قسم.

1. قانون اللغة العربية في الدول العربية: ويشتمل على سبعة فصول، وثمة الأسباب

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

الموجبة للقانون وضعت قبل الفصول التي شملت ثلاثاً وعشرين مادة، وفي الفصل الأول ذي العنوان «تعريفات» أربع مواد هي: قانون اللغة العربية، اللغة والسيادة، اللغة العربية «اللغة الوطنية»، مسؤولية التعريب.

وفي الفصل الثاني ذي العنوان «واجبات الدولة» خمس مواد هي: تعليم اللغة العربية، اللغة العربية والصناعات، الوظيفة واللغة العربية، القوانين والسياسات، مجامع اللغة العربية.

وفي الفصل الثالث ذي العنوان «الهيئات العربية والوطنية للتعريب والترجمة» مادتان اثنتان هما: الهيئة العربية للتعريب والترجمة، والهيئة الوطنية للتعريب والترجمة.

وفي الفصل الرابع ذي العنوان «التعريب والترجمة» مادتان اثنتان هما: التعريب، والترجمة، في حين أن الفصل الخامس لا يشتمل إلا على مادة واحدة هي مجالات التعريب، وعنوان الفصل «نطاق التعريب».

وفي الفصل السادس ذي العنوان «في اللغات المحلية والأجنبية واللهجات العامية» ثلاث مواد هي: اللغة المحلية، اللغة الأجنبية، اللهجات العامية.

أما الفصل السابع والأخير من هذا القسم فهو «أحكام مختلفة»، ويشتمل على ست مواد هي: تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، المظهر العام والبيئة، الاستثمار في اللغة العربية، إصلاح اللغة العربية، مخالفة قانون اللغة العربية، العمل بالقانون.

2. قانون اللغة العربية في الدول الإسلامية: ويشتمل على خمسة فصول، وثمة الأسباب

الموجبة في بداية القسم. وفي الفصل الأول ذي العنوان «تعريف» مادتان اثنتان هما: قانون اللغة العربية، اللغة العربية والدين. وفي الفصل الثاني ذي العنوان «واجبات الدولة» أربع مواد هي: اللغة العربية والديناميات الوطنية، اللغة العربية لغة ثانية، سن القوانين، الهيئة الوطنية.

وفي الفصل الثالث ذي العنوان «المدارس والمعاهد والمراكز والمؤسسات» ثلاث مواد هي: إعداد المعلمين والمعلمات، الأقسام التخصصية، النشر والتأليف.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

وفي الفصل الرابع ذي العنوان «المناهج والخطط الدراسية» مادتان اثنتان هما: المناهج الدراسية، التقويم المستمر .

أما الفصل الخامس والأخير فعنوانه «العقوبات»، ويشتمل على ثلاث مواد هي: الاعتداء على اللغة العربية، المخالفات والعقوبات، العمل وقانون اللغة العربية.

وتجدر الإشارة إلى أن اتحاد المحامين العرب درس مشروع القانون وأقره، وأرسل الأمين العام للاتحاد المحامي عمر محمد زين كتاباً رَقْمُه 189 والتاريخ 2013/7/29 باعتماده إلى المنسق العام للمجلس الدولي للغة العربية الأستاذ الدكتور علي بن عبد الله بن موسى، وفي تقديم القانون ورد ما يلي: «يسر المجلس الدولي للغة العربية أن يضع هذا القانون تحت تصرف القادة العرب والمسلمين والمسؤولين وأصحاب وصناع القرار والإداريين والمشرعين والمخططين والقانونيين والمعنيين باللغة العربية للاستفادة منه، والاعتماد عليه في وضع سياسات لغوية تحافظ على اللغة العربية أساساً للهوية والثوابت والمرجعيات، والعمل على تعليمها بشكل سليم، وفرض التعليم والعمل والتعامل بها في بلداننا العربية بقوة القانون أسوة بغيرها من لغات العالم في الدول المتقدمة على مستوى الفرد والمجتمع، والمؤسسات الحكومية والأهلية الوطنية والعربية والإسلامية مع مراعاة الاستفادة القصوى وفق هذا القانون من اللغات الأجنبية بما يحقق المصالح العامة والخاصة.

خامساً: متطلبات توفير الأمن اللغوي العربي

إنّ توفير الأمن اللغوي على نطاق الساحة العربية لا يكون بالنيات الحسنة، ولا بالتمنيات وكثرة التوصيات، وإنما بالحماية القانونية لوضع حدّ للتحديات التي تتعرض لها اللغة من أعدائها والمتفلسفين من أبنائها الذين يتفاخرون بلسان غيرهم، ويتكبرون للغتهم.

ونقلها بكل صراحة وشفافية إن واقعنا اللغوي يدعو إلى الأسف وعميق الأسى لأننا فقدنا البوصلة في الوقت الذي نهضت المجتمعات في مشرق الأرض ومغاربها بلغتها الأم. أما نحن العرب فنَدَّعي أننا مستقلون في أقطارنا، ولا نعلم معنى هذا الاستقلال إذا كانت اللغة الأجنبية

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

تحل محل لغتهم التي تنص على استعمالها دساتير دولهم. ومن يلق نظرة على واقع اللغة العربية في الدول العربية يجد أن ثمة بوناً بين ما تنص عليه الدساتير، وما يطبق على أرض الواقع، وأن ثمة تلوّحاً في تنفيذ التوصيات المنبثقة عن المؤتمرات والندوات، وأن التوصيات المتعلقة بالتعريب في ستينيات القرن الماضي ما تزال تتكرر، ونحن في العقد الثاني من الألفية الثالثة، وأن ثمة عزوفاً عن تطبيق مواد قوانين حماية اللغة العربية التي سبقت الإشارة إليها، وتوانياً عن تنفيذ التعريب، ولقد دعا وزراء التعليم العالي، ووزراء الصحة، وعمداء كليات الطب في الوطن العربي في مؤتمرهم الذي عقد في دمشق في مطلع ثمانينيات القرن الماضي إلى تدريس العلوم الصحية باللغة العربية، وأن ينجز ذلك كلياً في عام 2000، وما نحن أولاء في العقد الثاني من الألفية الثالثة نرى أن تدريس العلوم الصحية بالغة الأجنبية في الجامعات الخاصة في الوطن العربي، وفي أغلب الجامعات الحكومية في الوقت نفسه. وفي تونس على سبيل المثال كان أول قرارات توحيد المنظومة التعليمية سنة 1958 ينص صراحة على العمل لتعريب التعليم بمختلف مراحله خلال عشر سنوات.

وجاء في بيان تونس بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية أنه بعد 7 نوفمبر 1987 وضع الميثاق الوطني الذي وقّعت عليه جُلُّ الأطراف السياسية الفاعلة في البلاد آنذاك، وينص صراحة على أن هوية الشعب عربية إسلامية متميزة، وورد فيه بالنص «إن المجموعة الوطنية مدعوة لدعم اللغة العربية حتى تكون لغة التعامل والإدارة والتعليم، وإن التعريب مطلب حضاري، ويتحتم السعي لتطوير اللغة الوطنية والارتقاء بها حتى تنهض بكفاية واقتدار بقضايا العلم والتقانة (التكنولوجيا) والفكر المعاصر خلقاً وإبداعاً.

وفي 5 يوليو 1993 صدر قانون يجعل الصيغة العربية للنصوص القانونية والترتيبية المرجع الوحيد عند كل تنازع في الشرح والتأويل، وينص على تعميم استعمال اللغة العربية في الإدارة والمحيط العام، وعلى إدراج العناية باللغة العربية ضمن مخطط تأهيل الإدارة، وعلى حظر استعمال أي لغة أجنبية في المراسلات الموجهة إلى التونسيين.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

وفي سنة 1994 أصدرت الوزارة الأولى أوامرها إلى مختلف الإدارات بتطبيق القانون وتوصيات للأجهزة الإعلامية بتتقية لغة التخاطب والمحاورة والتنشيط من الألفاظ الأجنبية. تلك هي إجراءات اتخذتها الدولة على المستوى القانوني النظري، فما واقع حال اللغة العربية في ضوءها؟

إن واقع حال اللغة العربية في جميع مستويات استعمالها وأوجه التعامل معها وبها، هو واقع مريض وشاذ، ويتنافى هو وأحكام الدستور والقوانين، ويهدد الهوية، ويعيق كل مسار للتطور والنهوض الوطني والقومي.

وتتجلى أعراض هذا الواقع في مختلف الميادين تعليمياً وإعلامياً واستعمالاً عاماً وإدارياً ومحيطاً، فالتعليم يشهد في جميع مستوياته ضعفاً في الممارسة اللغوية تخاطباً وإنتاجاً عند المتعلمين وبعض المعلمين. ومازالت المواد العلمية تدرس فيه باللغة الفرنسية، ويعتمد المجال الإعلامي بمختلف أنواعه لغة هجينة ملوثة لا تمت إلى العربية بصلة حتى في القنوات العمومية، ولغة الشارع التونسي في المدن خاصة يصعب إدراجها ضمن الخطاب العربي، وأصبح المحيط الحضري على هيئة يصعب معها الإحساس بالسير في شوارع بلد عربي إذا نظرت إلى لافتات المَحالِّ ومعلقات الإعلانات...

وهذه الحال يشهدها المرء في الدول العربية كافة، وإن كانت تختلف عناصرها ومكوناتها من حيث الدرجة والمستوى، ويتساءل: أليكون الحل لتجاوز هذه الحال في اعتماد اللغة الأجنبية بدلاً من العربية أو اعتماد العامية والهجين اللغوي بديلاً عنها؟

والواقع لن يفلح العرب في كسب رهان التاريخ لا بواسطة اللغة الأجنبية ولا بوسائط لهجاتهم المحلية العامة، ولو أرادوا أن يفعلوا ذلك بالأجنبية لظلوا تابعين طول الدهر ولعجزوا أن يصيروا يوماً متبوعين، ولو شأؤوا أن يفعلوا ذلك بالعامية لتراكم عليهم التخلف عقوداً ريثما يجزّون لهجاتهم جَزاً ليصعدوا بها إلى مرتبة الأداء الذهني المصفى، فاللغة ليست وعاء، ولا اللغات أوعية، والوهم يوحي إلى هؤلاء أنك بأي لغة تستطيع أن تصنع حضارة، ونسأل: من الذي بوسعه

..... الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة

أن يقول لنا ماذا سيفعل العرب بالثورة الرقمية، وبفضائها الافتراضي، وبكل منظوماتها الحاسوبية إذا تخلوا عن لغتهم الفصحى، وراحوا يتحسسون التقنية العالية بواسطة اللغة الأجنبية أو بواسطة العامية؟ كيف نربي الناشئة منذ البداية على ثقافة الحاسوب إن نحن لم نرع مهارته باللغة القومية الناضجة والراسخة؟

إن مجتمع المعرفة الذي ينشد التنمية، ويتكئ على الاقتصاد الخادم للمعرفة والمستثمر لها في الوقت نفسه سيظل متعذراً خارج دائرة اللغة القومية. ومن حظ العرب أن لهم لغة قومية لها جاهزية تؤهلها لاحتضان الثورة المعرفية، وإن توطين العلم وما ينجم عنه من تقنيات أمر مستحيل استحالة قاطعة خارج دائرة اللغة القومية، الرمز الأعلى في الوعي الجمعي المعبر عن الهوية. وليس من سبيل إلى الأخذ بأسباب التنمية إلا بالاعتماد على لغة قومية تجمع ولا تفرق، وتوصل ولا تستأصل، وتستزرع ولا تجتث.¹

وما دامت كل الصيحات التي تتأى عن استعمال العربية الفصيحة تُعدُّ نغماتٍ نشازاً وتبقى الفصيحة هي الغالبة والمنتصرة، فإن حمايتها والحفاظ عليها والارتقاء بها إلى مدارج القوة والسيرورة والانتشار يستلزم ذلك كله اتخاذ الإجراءات الآتية تحقيقاً للأمن اللغوي:

1. **تطبيق قوانين حماية اللغة العربية** بكل جدية في الأقطار التي صدرت فيها قوانين للحماية على أن يكون الحكام والمسؤولون قدوة أمام الآخرين في الالتزام بالعربية السليمة، ومثالاً في تطبيق القانون، وأن تسعى الدول العربية التي لا قانون للحماية فيها إلى وضع هذه القوانين أسوة بما يجري في دول العالم، ولنتذكر أن قانون حماية اللغة الفرنسية صدر أمر رئاسي بتطبيقه في الثالث من مارس (آذار) عام 1995، وجاء في فصله الأول: «إن لغة الجمهورية طبقاً للدستور هي اللغة الفرنسية، وهي الركن الجوهري في السيادة الفرنسية وفي تراثها، وهي لغة التعليم والعمل والمبادلات والمصالح العمومية، ثم هي الصلة الفضلى بين الدول المكوّنة للمجموعة الفرنكفونية».

¹ الدكتور عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، مرجع سابق.

وتطرق القانون إلى إجراءات زجرية فيما يتعلق بالتهاون في استعمال اللغة في الحياة العامة، ولاسيما في مجال الإعلام والإعلانات.

2. **التوعية اللغوية:** إذا كان المسار الأول في تحقيق الأمن اللغوي يتطلب تنفيذ قانون حماية اللغة، فإن المسار الثاني الذي لا يقل أهمية عن المسار الأول هو توفير الوعي اللغوي في عقول أبناء الأمة كي يكونوا على قناعة وإيمان بأهمية اللغة القومية، ودورها في الحفاظ على هوية الأمة وذاتيتها الثقافية. فإذا تسلح أبناء الأمة بالوعي الحضاري والإرادة الكاملة والمتحررة والرامية إلى الانطلاق من قيود الواقع وتغييره نحو الأفضل اعتماداً على المكونات الثقافية الأساسية للأمة وعدم التعارض معها، وَجَبَ أن يكون بناء التنظيم المعوّل عليه ينسّق بين المكونات الثقافية، ويعمل على تقدمها في الاتجاه الصحيح، ويحفظها من الجمود والتبعية للغرب، على أن ينسّم هذا التنظيم بالشمول والتكامل بين العناصر الثقافية، وأن يتوجه نحو تحقيق الأمن الثقافي العربي وحاملته اللغة.

مراجع البحث

- أمنة وكيل، ملامح التخطيط اللغوي في إسبانيا بين الصراع اللساني وحتمية التعايش، قسنطينة، الجزائر 2016.
- الدكتور بسام بركة، نحو أمن لغوي عربي حفاظاً على الهوية، جريدة الحياة، العدد الأربعاء 30 أيلول/سبتمبر 2015.
- الدكتور صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، دار هومة، الجزائر 1993.
- الدكتور طه حسين، نقد وإصلاح، دار العلم للملايين، بيروت 1936.
- الدكتور محمد عبد السلام المسدي، العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة اللسانيات، دراسة وتوثيق، بيروت 2014.
- الدكتور محمود أحمد السيد، في رحاب لغتنا العربية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2017.
- مصطفى المحمودي، العالم الإعلامي الجديد، عالم المعرفة، الكويت د.ت.
- مصطفى محمد طه، الهوية بين الشكل والمضمون، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف في الأردن، مجلة التسامح، العدد الرابع، عمان 2004.
- ممدوح عبد الحميد، المجلس الوطني يطالب بقانون لحماية اللغة العربية، أبو ظبي 2014.
- مؤسسة الفكر العربي، أزمة اللغة العربية في الحاضر العربي.
- الدكتور ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى 1993.

واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

مريّة الشويخ

الرباط - المملكة المغربية

التمهيد

تتحقق إنسانية الإنسان بالقدرة على استعمال الرموز اللفظية للغة استعمالاً منتظماً؛ فبدون اللغة لا يستطيع الإنسان أن يكونَ فكراً، أو يعبر عن فكر. إن اللغة سمة إنسانية، ولهذا يجب أن تكون دائماً في خدمة أهداف الإنسان وأغراضه، من هنا لا بد من النظر في العوامل التي تساهم في تشكيل منهاجها تشكيلاً يستوعب الماضي ويستجيب لآليات العصر، ويجعل منها وسيلة فاعلة في نقل التراث للأجيال القادمة، فما أحوجنا في هذا الوقت إلى إبداء أفكار تساعد على تحسين استعمالنا للغة التي هي عماد الأمة، وذلك لأنها تعيش في سياقات تتطلب تفعيلاً ذكياً لكافة الطاقات الخلاقة، مما يجعلها قادرة على استغلال الموارد المتاحة والفرص المواتية.

لا شك أن نجاح تعميم الوعي والتعليم والمعرفة متوقف على وجود لغة حاملة للمعرفة وقادرة على تبسيطها وتطويعها وإيصالها إلى كل فرد من المجتمع¹. فإذا كانت اللغة كذلك فلأنها تعد بدون منازع أفضل وسيلة للتخاطب بين الأفراد، وهي - إن لم تعد الأداة الوحيدة للاتصال بين الأشخاص - فإنها أداة لا غنى عنها لبني البشر لبناء الحضارات وتشكيل الأمم وتوحيد الأوطان.

وفي ذلك أيضاً يقول الفيلسوف الألماني (فيخته): "أينما توجد لغة مستقلة توجد أمة مستقلة لها الحق في تسيير شؤونها وإدارة حكمها"²

¹ أهمية التخطيط اللغوي: اللغات ووظائفها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2011.

² ماهي القومية، ساطع الحصري، دار العلم الملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص 56.

ولا يمكن لأي لغة، ومنها اللغة العربية، أن تنمو وتتطور إلا باستعمال أهلها لها واعتزازهم بها، محافظة على ثوابتها وأصولها التي لا تكون إلا بها، "فهي منذ كانت، شأنها شأن اللغات الحية التي تعطي وتأخذ وتنمو وتتطور، فتحت ذراعيها، ورحبت بالوافد إليها من اللغات الأخرى من معرب ومترجم ودخيل وموَلَّد، وهي عرضة لأن تموت فيها ألفاظ، وتولد أخرى، ولأن تتغير فيها المعاني والدلالات"¹، ولذلك، فإن الاعتناء باللغة يغدو سمة من سمات التقدم فيها تلجُ المجتمعاتُ فضاءَ التحديث وتجديد القيم.

في التطوع اللغوي

لم يعد الأمر اليوم مقتصرًا على التطوع الخيري الذي يهيم الفقراء والأيتام، بل أصبح لدينا حاجات مهمة أخرى لا تقل عن غيرها من حاجات المجتمع الملحة؛ فالمجتمع في حاجة ماسة وراهنه إلى التطوع لخدمة اللغة العربية، لتنمية قدراته ومعارفه في المجال العلمي والمعرفي والثقافي، وهو أيضاً ما تحتاجه الأمة العربية من تراكم جهود المجتمع بكافة مؤسساته وفعاليته الرسمية والشعبية.

إن ما يفرض علينا التطوع للغة العربية، ويحتم علينا الاهتمام بمستقبل هذه اللغة، هو ارتباطها بالمجتمع، فاللغة ظاهرة من ظواهر الحياة، وقانون من قوانين المجتمع، وظواهر الحياة تتبدل وتتشكل طوعاً لتصريف الزمن، وقوانين المجتمع تتجدد وتتطور وفقاً لما تقتضيه ضرورات الاجتماع². وهي أيضاً العنصر الأساسي الذي يعمل على الحفاظ على وحدة وتماسك المجتمع من خلال أداء عملية التواصل والتفاعل مع كل ظواهر التقدم والتطور العلمي، شأنها في ذلك شأن المنظومات الاجتماعية، بل إن التطور اللغوي هو المؤشر الصحيح إلى التطور الاجتماعي لأن اللغة مرآة المجتمع، ويتجلى صدق هذه العبارة إذا نظرنا إلى لغتنا العربية دينياً واستراتيجياً

¹ الدكتور يوسف بكار، من سبل الحفاظ على اللغة العربية وتنميتها، ملف أفكار، العدد 300، كانون الثاني 2014 ص 52.

² محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، القاهرة، 1956، ص 27.

واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

وتاريخياً وثقافياً، على حدّ تعبير فرجسون Ferguson التي وردت كلمته في مقالة عن اللغة العربية بدائرة المعارف البريطانية، يقول: "إن اللغة العربية اليوم، سواء بالنسبة إلى عدد متحدثيها، أو إلى مدى تأثيرها، تعد إلى حد بعيد أعظم اللغات السامية جمعاء، كما ينبغي أن ينظر إليها كأحدى اللغات العظمى في عالم اليوم"¹.

ولذا فإن العمل التطوعي هو ذلك العمل الذي يقوم به الفرد طوعاً بدون أي مقابل أو أجر مادي منطلقاً من قناعاته الشخصية للقيام به، وهو ليس مجرد إرادة فحسب، بل مهارات وخبرات متراكمة، إذ يعد التطوع عاملاً مهماً لتوثيق التماسك الاجتماعي والانتماء وتعزيز الوعي والمواطنة. ونظراً لهذه الأهمية المتعاظمة للتطوع، فقد حددت منظمة الأمم المتحدة الخامس ديسمبر من كل عام يوماً عالمياً للمتطوع تحت عنوان "اليوم العالمي للتطوع" International Volunteer Day (IVD)².

لقد أضحت التطوع سمة لازمة خصوصاً في المجتمعات المتقدمة، ومؤشراً إلى تفعيل الرأسمال الثقافي وتعزيز التماسك والاندماج الاجتماعي وتعزيز المواطنة، فمثلاً في بريطانيا هناك نحو 300 ألف جمعية، أما المتطوعون فيها فيقدرون بنحو 23 مليون متطوع، وفي كندا تصل الجمعيات التطوعية إلى نحو 160 ألفاً، أما المتطوعون فيللمسون 65 مليون متطوع، وتشير الدراسات الميدانية إلى أن ما نسبته 23% من الأستراليين الكبار يشاركون في أعمال تطوعية³.

وفي المقابل، تشير الدراسات الميدانية إلى انخفاض مستويات العمل التطوعي في العالم العربي وهذا ما أشارت إليه الدراسة الميدانية التي قامت بها الشبكة العربية للمنظمات الأهلية.

¹ C.A Ferguson, «Arabic Language» in the Encyclopedia Britannica pM 182 b, 1971.

² التنمية المستدامة: مدخل تكاملي لمفاهيم الاستدامة وتطبيقاتها مع التركيز على العالم العربي للدكتور، عبد الله بن عبد الرحمن البريدي مكتبة العبيكان، الرياض، 2015.

³ اتجاهات الشباب الجامعي الذكور نحو العمل التطوعي، دراسة تطبيقية على جامعة الملك سعود، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد 112.

يرجع إحجام الشباب في العالم العربي عن التطوع إلى عدة أسباب، منها التنشئة الأسرية والمدرسية التي تهتم فقط بالتعليم دون زرع روح التطوع وبت الانتماء ومساعدة الآخرين، وقلة التحفيز والتوجيه، وقلة التقدير المجتمعي له، فضلاً عن وجود معوقات قانونية وسياسية ومجتمعية¹.

بعد هذا الإيضاح الوجيز للتطوع وأهميته يتعين علينا قصر الحديث عن "التطوع اللغوي" على وجد التحديد.

نحو مقارنة اصطلاحية للمصطلح

يقترن كل تفكير في التطوع اللغوي اليوم بمنطلقين أساسيين لدى المتطوع، هما: أولاً، فهم طبيعة الإنسان المتطوع الذي يجد نفسه مدفوعاً للقيام بأداء مهام فائضة عن الواجب خدمة للآخرين ينحو من خلالها نحو تحقيق أهداف "معنوية" يملئها عليه ضميره أو معتقده،² وثانياً رغبة الجماعات البشرية في إيجاد محاضن اختيارية يقع عليها عبء تنميط الجهود الحكومية والأهلية في خدمة المجتمعات، يكون هدفها سد الثغرات، وتحقيق التكامل في منظومة العقد الاجتماعي³.

يعرّف إبراهيم بن علي الدغيري مفهوم التطوع اللغوي بأنه نشاط اختياري ممنهج، يقوم به

¹ نفس المصدر.

² التطوع اللغوي: مجالاته، أنواعه، د. إبراهيم بن علي الدغيري، بحث منشور ضمن مباحث اللغوية 11 التطوع اللغوي: إطار نظري وتطبيقي للتطوع في خدمة اللغة العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م، الرياض.

³ بحث: دور العوامل الاجتماعية والثقافية في المشاركة التطوعية للشباب السعودي (رؤية اجتماعية ودراسة تحليلية) د/سعيد بن سعيد ناصر حمدان أستاذ علم الاجتماع المشارك مدير مركز البحوث والدراسات الاجتماعية جامعة الملك خالد، أيها، المملكة العربية السعودية، مجلة كلية التربية بالزقازيق، العدد 79، أبريل 2013، ص 271.

واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

الأفراد، أو تقوم به الجماعات، خدمة للغة من غير انتظار جزاء مادي، إذ يوظف هذا المفهوم على معنى الانقياد والطاعة كما ورد في المعجم العربي: (طوع) الطاء والواو والعين يدل على المصاحبة والانقياد، يقال طاعه يَطُوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره. وأطاعه بمعنى طاع له ويقال لمن وافق غيره: قد طاعوه. والعرب تقول: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه، ثم يقولون تطوَّعَ به، فهو من الباب، لكنه لم يلزمه، لكنه انقاد مع خير أحب أن يفعل¹. ولا يقال هذا إلا في باب الخير والبر. وهذا مفاده أن ابن فارس يُدخِل في باب التطوع معنى التبرع والمساهمة، وهو ملمح جميل يثري المصطلح بشكل مباشر.

ولو تأملنا روح القرآن الكريم لأدركنا أن التطوع خلق من أخلاق القرآن، وصفة من صفات أهل الإيمان، وقد ذكر التطوع في أكثر من موطن من مواطن التنزيل، يقول تعالى في سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾²، أي: أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم في أمر الصدقات التي هي أظهر آيات الإيمان - أو الذين يلمزون المتطوعين، أدغمت التاء في الطاء فهي كالمطهرين بتشديد الطاء والمنطهرين، والتطوع في العبادة: ما زاد على الفريضة³.

وورد في المعجم الوسيط أن التطوع في الاصطلاح الفقهي: اسم لما شرع زيادة على الفرض والواجب، وصلاة التطوع: النافلة، ومثلها صدقة التطوع وصوم التطوع، ويؤكد هذا المفهوم الفقهي على أن التطوع هو ما يؤديه المسلم زائداً عن الواجب، وهذا يتسق مع ما ذكر سابقاً أن معنى الكلمة "تطوع" يدخل فيه دخولاً أولاً معنى الانقياد الذاتي.

¹ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، الجزء الثالث الطبعة الثانية 1970م، دار الفكر، بيروت.

² سورة التوبة الآية 79.

³ تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار للشيخ محمد عبد، تأليف محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

إن ما اقترحه الدكتور الدغيري يتفق مع المعنى الاصطلاحي للتطوع عند المختصين بالعلوم الاجتماعية والتربوية، أي: إرادة ومهارة تترجم إلى مبادرات وجهود فردية وجماعية منبثقة تُسهم في تقديم خدمة ملائمة للغة العربية ومعالجة تحدياتها واستغلال ملاءمة فرصها دون توقع منفعة مادية.

يؤكد هذا التعريف أن من أهداف النشاط التطوعي أنه يأتي لخدمة اللغة وإطلاق مصطلح التطوع اللغوي، وهو لا يقصد به التطوع في مجال اللغة بمفهومها المنخص الضيق، وإنما يشمل التطوع في مجالات أخرى من العلوم المتعلقة باللغة مثل التطوع الأدبي والمعجمي والتطوع في معالجة قضايا اللغة وقضايا المصطلح والترجمة والتعريب.

مجالات التطوع اللغوي:

ثمة مجالات واسعة وطُرُق متنوعة لتطوع ضروري نحن ولغتنا في مسيس الحاجة إليه، ولعل أهم هذه المجالات:

المجال البنائي: يقصد بهذا النوع في المجال التطوع اللغوي المساهمات التي يقوم بها المختصون والمهتمون باللغة العربية لبناء علومها، في مسعى لتثبيت أركان هذه اللغة والمحافظة عليها وصيانتها وتعزيز وظائفها وزيادة منسوب اعتزاز أهلها بها على كافة المستويات المجتمعية والقطرية. ومن أبرز مسارات هذا المجال نذكر:

● **التخطيط اللغوي:** لا جدال في أن التخطيط اللغوي يمثل اليوم مبحثاً مهماً في الدراسات اللسانية والاجتماعية والسياسية المنشغلة بأمر اللغة وصيغ استعمالها في المجتمع، ومعالجة المشاكل اللغوية، وهنا يبرز الدور الذي تقوم به مجامع اللغة العربية في المحافظة على نقاء اللغة العربية وتطويرها، مثل المجامع اللغوية العربية والأكاديميات التي تُعنى بإصدار قرارات خاصة باللغة العربية، مع تأكيد الدور التكاملي لأهل السياسة وأهل الفكر في مسار اللغة العربية وحمائيتها ودعمها، فهم الأقدر على تجلية الفرص والتحديات اللغوية التي يتعين الاهتمام بها، وما يتطلبه من تفعيل العمل التطوعي عبر بلورة مفاهيمه وإنضاج استراتيجيات وبرامج علمية،

واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

تلائم متطلبات اللغة من جهة وتناسب أوضاع مختلف الشرائح الاجتماعية من جهة ثانية.¹

● **صيانة اللغة:** هناك عديد من الجهود التي تسعى لتأصيل اللغة العربية وتعميق أهميتها في تعيين هويتها الثقافية وبيان موقعها من اللغات الأخرى، فعلى سبيل المثال، أشاد الميثاق الوطني للتربية والتكوين بأهمية اللغة العربية وأهمية الانفتاح على اللغات الأخرى، جاء فيه "يلتزم النظام التربوي للمملكة المغربية بكيانها العريق القائم على ثوابت ومقدسات يجلبها الإيمان بالله وحب الوطن والتمسك بالملكية الدستورية، عليها يرى المواطنون مشبعين بالرغبة في المشاركة الإيجابية في الشأن العام والخاص وهم واعون أتم الوعي بواجباتهم وحقوقهم، متمكنون من التواصل باللغة العربية، لغة البلاد الرسمية تعبيراً وكتابة، منفتحون على اللغات الأكثر انتشاراً في العالم، متشبعون بروح الحوار وقبول الاختلاف وتبني الممارسة الديمقراطية في ظل دولة الحق والقانون".²

وللغة أيضاً أهمية دينية فهي وسيلة انتشار الدين والتعريف به لأهله ولغير أهله، وجعله حياً بينهم في مجالات حياتهم المختلفة، وقد ألمح القرآن الكريم إلى أهمية ارتباط اللغة بالدين في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) {سورة إبراهيم:4}.

فاللغة العربية هي لغة قومية دينية حضارية للدول العربية، وخدمتها تستوجب حاجة ماسة لأعمال التطوع وخدمات المتطوعين، وذلك في أي مسار يُعين على صيانة اللغة وتقوية فاعليتها في مواجهة التحديات والإبانة عن الخُروق والانتهاكات اللغوية.

● **الترجمة والتعريب:** لهذين المصطلحين ارتباط وثيق بين مفهوميهما فهما متكاملان بصورة تؤدي إلى تحقيق الفائدة القصوى في مسألة النهوض باللغة العربية في الدول العربية، كما

¹ التطوع اللغوي: إطار نظري وتطبيقي للتطوع في خدمة اللغة العربية، تأليف د عبد الله البريدي، د مُحبي الدين محسب، د، إبراهيم الدغيري، د. عيسى براهيم، د. محمود المحمود، تحرير عبد الله البريدي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015 م، الرياض.

² المملكة المغربية، اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 1999 ص.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

يَعْمَل العديد من المؤسسات بجهود جبارة في هذا السياق، فعلى سبيل المثال: مجمع اللغة الافتراضي وهو مجمع ينشط في الفضاء الافتراضي رسالته تتعلق بتعزيز اللغة العربية وأساليبها ولهجاتها، كما يناقش العديد من القضايا اللغوية ومحاولة تعريب ما لم يعرَّب من المصطلحات الحديثة، ولعل من أهم أهدافه:¹

- نشر الوعي اللغوي، وتربية ذائقة سليمة.
- تقريب الفصحى، ومحاربة التلوث اللغوي.
- خدمة النصوص اللغوية وتحليل نماذج منها.
- ربط اللهجات المعاصرة للشعوب العربية كلها بالموروث اللغوي القديم والكشف عما طرأ عليها من تغييرات فرضتها البيئات الحديثة أو الاحتكاك بالأمة والشعوب الأخرى.
- محاولة تعريب ما لم يعرب من المصطلحات الحديثة وخصوصاً ما شاع بين الأجيال المتأخرة من وسائل التقنية الحديثة.
- تقديم استشارات لغوية وصرفية ونحوية وعروضية.

ولإثراء اللغة العربية بمفردات ومصطلحات تواكب ركب الحضارة والتقدم، لا بد لنا من أن نستند إلى أسباب علمية تجعل من وَسِيلَتِي التعريب والترجمة عاملين من عوامل التطوع اللغوي وسبباً في ردها وإثرائها بالجديد من المصطلحات والمسميات الحديثة، جنباً إلى جنب مع الترجمة كوسيلة أخرى في مواكبة هذا السيل المتدفق من الكلمات الأجنبية في شتى العلوم والمعرفة.

● **قضايا المصطلح:** قضايا المصطلح من بين أهم القضايا اللغوية التي شغلت الباحثين وعلماء اللغة والمتخصصين في شتى العلوم، لأنه يشكل عصب اللغة في علاقته الوطيدة بالتقدم العلمي والتقني وتوازيه مع مجريات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والإدارية. فقد عُني التراث العربي بالمصطلح عناية خاصة من جِزَاء الانفتاح والتداخل المعرفي، وهو الأمر الذي حدا بالعلماء العرب المسلمين إلى التأليف المتخصص في مجال المصطلح، وانعكس ذلك في

¹ للمزيد من المعلومات المرجو الاطلاع على موقع مجمع اللغة الافتراضي: <http://almajma3.blogspot.com/>

..... واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

مؤلفات مثل: التعريفات للشريف الجرجاني (ت 618هـ واصطلاحات الصوفية للكاشاني (ت 730هـ)، مَنَلَتِ الإِرهاصات المبكرة لظهور المصطلحية العربية، كما ساهمت في بروز علماء تركوا بصمتهم في التراث العلمي سواء في مجال الطب أو الخوارزميات أو علم الفيزياء وغيرها.

● **صناعة المعاجم:** فن صناعة المعاجم، علم توارثه العرب منذ مئات السنين. أنشأه علماءهم تحت وقع تحوّل عظيم حدث في اللغة العربية بفعل نزول القرآن الكريم، المعجزة التي تحدّت شعراء العرب و خطباءهم، ولعل المعاجم تؤدي وظيفة مهمة في العناية بالتراث العربي والعمل على إحياء المصطلحات التي تعبر عن المفاهيم الحديثة واستعمال المصطلحات المعربة بدلاً من الأجنبية، وقد قامت بعض المؤسسات بجهود واسعة في سبيل إثراء اللغة العربية بالمعاجم الموحدة نذكر على سبيل المثال: مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الذي يقوم بتنفيذ عدد من المشروعات المعجمية منها سلسلة من المعاجم الموسوعية في مجال النهوض بالتربية والتعليم، جعلها تتعدى دور المعجم الكلاسيكي كي تصبح أداة تعليمية ودليلاً للباحثين في مجال علوم التربية، إذ راهنت هذه المعاجم على أمرين اثنين، هما: الجانب المعجمي، باقتراح المقابلات العربية للمفاهيم والمصطلحات الأجنبية. والجانب الموسوعي، بتوفير الشروح والبيانات اللازمة لتبسيط المفاهيم، إضافةً إلى مشروع مستقل يهدف إلى توحيد المصطلحات التقنية العربية حسب المجالات والقطاعات الصناعية المختلفة، وهو وسيلة متاحة للجميع للحصول على مصطلحات موحدة ومنسقة، علماً بأن هندسة المشروع تقوم على المكونات الآتية¹:

- معجم إلكتروني يمكن الولوج إليه عن طريق الشبكة (الانترنت).
- معجم تفاعلي حي، ومتعدد اللغات (العربية، الألمانية، الفرنسية، الإنجليزية)،
- معجم موسوعي، تعليمي/تعلمي.

¹ لمكتب تنسيق التعريب التابع لمنظمة الألكسو موقع خاص بهذا المشروع يمكن الرجوع إليه على الرابط: www.arabterm.org

فالمكتب من ثمَّ يقدم خدمة جلييلة للنهوض بجانب مهم من خطة تطوير اللغة في الوطن العربي.

وإلى جانب ما سبق من مسارات التطوع في المجال البنائي فإن هناك العديد من المسارات التطوعية الأخرى، التي يمكن الإشارة إليها من قبيل التطوع في: المحتوى العربي الرقمي، المعاجم الإلكترونية، الحوسبة والهندسة اللغوية، الإصلاح اللغوي...

1. المجال الجمائي:

ويقصد به التطوع من أجل الدفاع عن اللغة العربية وصيانتها والعمل على انتشارها والتمكين لها في أوساط المجتمعات العربي، وهذا مجال يدخل ضمن خطة بناء المستقبل ورسم معالمه والدفاع عن مقومات الشخصية العربية.

فإذا كان الدفاع عن الدين فرضاً وواجباً على كل مسلم، فإن الدفاع عن اللغة مطلب إسلامي، وواجب قومي، يضمن للأمة استمراريتها، والحفاظ على هويتها ومكانتها بين الأمم، ولقد أسهمت العديد من الدول في حماية اللغة العربية والنهوض بها، وأصبحنا نشهد نشوء الكثير من الجمعيات، منها على سبيل المثال، في المملكة المغربية نجد الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية والاتتلاف الوطني من أجل اللغة العربية، إذ تسعى هذه المؤسسات إلى التطوير المطرد للغة العربية على مستوى متنها وأدواتها ومواردها اللغوية العصرية، وتعمل على استصدار القوانين التي تحمي اللغة العربية من التجاوزات المشينة.

2. المجال التعليمي

ويقصد به المجال الذي يقوم فيه المتطوعون بتعليم العربية وتقريب قواعدها وتعليم كيفية النطق بها، وضبط قواعدها. فمعظم الجامعات في العالم العربي لديها معاهد أو مراكز لتعليم العربية للناطقين بلغات أخرى، وتأتي الجامعات السعودية على رأس هذه الجامعات من حيث الكم والكيف، ومن بين هذه الجامعات: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وجامعة الملك سعود (الرياض)، وفي مصر جامعة الأزهر، والجامعة الأمريكية، ومعهد فجر، وفي السودان: معهد

..... واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

الخرطوم الدولي للغة العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ومعهد اللغة العربية في جامعة إفريقيا العالمية. وهناك مؤسسات تعنى بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، من أشهرها في السعودية: مؤسسة الوقف الإسلامي ومؤسسة مناهج العالمية، ومعهد عربي، وكلها في الرياض، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو)¹، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلم والثقافة (الإيسيسكو)²، ومركز الشيخ زايد... وغيرها، إذ تُعد المنظمات أهم مظلات العمل التطوعي في اللغة العربية وذلك بسبب ما تقوم به من أنشطة داعمة للغات التي منها العربية.

كما يأتي في هذا السياق المشاريع التي ترعاها المؤسسات والمعاهد التي تعنى بتعليم اللغة العربية، لعل من أبرزها:

- معهد تعليم اللغة العربية بجامعة المدينة العالمية بماليزيا
<http://iqra.mediun.edu.my/eBooks/index.htm>
- لوتاه لتعليم اللغة العربية <http://tutor.lootah.com>
- المدينة العربية (باللغة الإنجليزية) <https://www.madinaharabic.com/>
- معهد اللغويات العربية جامعة الملك سعود <http://ali.ksu.edu.sa/ar>
- معهد تعليم اللغة العربية جامعة أم القرى <https://uqu.edu.sa/arabic-language-intitute>
- معهد تعليم اللغة العربية الجامعة الإسلامية
<http://www.iu.edu.sa/colleges/NonAr/Pages/default.aspx>
- معهد الخرطوم الدولي للغة العربية <http://www.alecsolugha.org>
- معهد اللغة العربية، جامعة إفريقيا العالمية <http://www.iua.edu.sd/arabic>
- الجامعة السعودية الإلكترونية <https://www.seu.edu.sa/sites/ar/Pages/main.aspx>
- العربية للجميع السعودية <http://www.arabicforall.net/ar>
- معهد اللغة العربية، الجامعة الأمريكية بالقاهرة www.aucegypt.edu

¹ www.alecso.org.tn

² www.isesco.org.ma

– معهد اللغة العربية، فاس – المغرب <http://www.alif-fes.com>

3. المجال التقويمي

يقصد بالتطوع في المجال التقويمي تلك الجهود التي بذلها الرعيل الأول من سدنة اللغة وحفظتها إذ كشفوا عن أسرار الألفاظ والعبارات وتنبعوا ما يجري على أسلات الأقسام من مختلف الأساليب فكانوا عوناً على تصفية اللغة من الشوائب وإقالتها من العثرات، ومن أمثلة المؤلفات التي تتعلق بالمجال التقويمي كتاب تنقيف اللسان وتلقيح الجنان لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي النحوي اللغوي (ت 501هـ)، ودُرَّةُ الغَوَاصِ في أوهام الخواصِّ للحريري (ت 516هـ)، والمدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللخمي (ت 577هـ)، وأيضاً من المؤلفات الحديثة قل ولا تُقلْ للدكتور مصطفى جواد، وهو كتاب نفيس يثق به قارئه لدقة علم مؤلفه. وأزاهير الفصحى في دقائق اللغة لعباس أبو السعود، ويُميزه على غيره: فصوله التي يُعلِّلُ فيها للصواب والخطأ.

هذا إضافةً إلى الدورات التدريبية للتصحيح اللغوي والتدقيق الإملائي، كبرنامج **Ginger** وموقعه: www.gingersoftware.com، ويدخل فيها ما أنشأه بعض المهتمين بالعربية من مواقع على الشبكة تقوم بعمليات التصحيح اللغوي والإملائي، مع ما يعترتها من بعض المشاكل كموقع <http://ghalatawi.sourceforge.net/>.

من الملاحظ أنه على الرغم من المجهودات التي بُذلت من أجل خدمة اللغة العربية والعناية بها فإن شرف الانتماء إليها وواجب الاعتزاز بها، وما تواجهه من تحديات لم يمنع من العزوف عنها أو الإجحاف بها، وكل ذلك يتطلب مواجهة هذا الواقع الأليم الذي تحياه لغتنا والذي ينعكس على سائر جوانب حياتنا. وهذه مسؤولية يجب أن تتأصل في مجتمعنا وأن تكون واقعاً تطبيقياً معيشاً، إذ للمجتمع تأثير فاعل في مجال التطوع بوصف اللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع وهذا ما يجعلها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع لا حد له.

فاللغة العربية تحتاج إلى أن يتعهد أبناؤها المتخصصون في تربية الناشئة ليشبوا متمسكين بمهارتها ولتكون نافذة نحو العلم والتعلم، كذلك تحتاج منا اللغة إلى خطة استراتيجية لنفعل

..... واقع التطوع اللغوي في الثقافة العربية

العمل التطوعي على نحو مؤسسي يسعى لإبراز أهميتها وإحلالها المكانة التي تمكنها من الانتعاش الطبيعي داخل محيطها.

المصادر والمراجع

- التطوع اللغوي: إطار نظري وتطبيقي للتطوع في خدمة اللغة العربية، تأليف د عبد الله البريدي، د محي الدين محسب، د. إبراهيم الدغيري، د. عيسى برهومة، د. محمود المحمود، تحرير عبد الله البريدي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م الرياض.
- أهمية التخطيط اللغوي: اللغات ووظائفها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2011.
- من سبل الحفاظ على اللغة العربية وتنميتها، الدكتور يوسف بكار، ملف أفكار، العدد 300، 2014.
- مشكلات اللغة العربية، محمود تيمور، القاهرة، 1956.
- التنمية المستدامة: مدخل تكاملي لمفاهيم الاستدامة وتطبيقاتها مع التركيز على العالم العربي للدكتور عبد الله بن عبد الرحمن البريدي مكتبة العبيكان، الرياض 2015.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، الجزء الثالث الطبعة الثانية 1970م. دار الفكر، بيروت.
- السياسة اللغوية خلفياتها ومقاصدها، جيمس طوليفسن، ترجمة: محمد خطابي (الرباط: مؤسسة الغني للنشر 2007).

روافد الترجمة العلمية في الوطن العربي

المصطلح العلمي أنموذجاً

د. والي دادة عبد الحكيم

جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان - الجزائر

شهدت الحضارة العربية الإسلامية ازدهاراً واضحاً في القرون الوسطى، مما جعلها تضطلع بدور هام وأساسي في تطور مختلف العلوم الذي شهدته أوروبا في عصر النهضة ومن أهم تلك العلوم الطبية، فقد بدأ الاهتمام بتعريب العلوم والمعارف الطبية بعد عصر الفتوحات الإسلامية الكبرى، حيث اختلط العرب بأقوام وشعوب أخرى، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية.

كانت حركة الترجمة في العصر الأموي محدودة، فقد دعا الأمير خالد بن يزيد آنذاك بعض علماء مدرسة الإسكندرية إلى دمشق بهدف ترجمة بعض كتب الطب والفلك والكيمياء الإغريقية والتي تعد الأولى من نوعها منذ ظهور الإسلام، وبعدها أمر الخليفة عمر بن العزيز بترجمة كتاب طبي من السريانية، وكان ذلك لضرورات عملية بحتة. وقد استؤنف هذا العمل على نطاق أوسع بعد نصف قرن من الزمن ليُجعل من القرن التاسع عَصراً فريداً من نوعه في تاريخ الإنسانية. لم يكن بحوزة العرب من الثروة العلمية في بداية القرن الثامن الميلادي إلا ترجمة لموسوعة طبية وكتب فلكية، لكنهم قاموا بعد ذلك بترجمة كل علوم اليونان. وكان لمرض المنصور دخل كبير في تطور العلوم لأنه قام باستدعاء أطباء من مدرسة جنديسابور كان على رأسهم جرجس بن جبرائيل، وطلب آنذاك من طبيبه ترجمة الكتب الإغريقية كتب الطب والفلك والتنجيم. أما هارون الرشيد حفيد المنصور فقد وسَّع الترجمة كما قام بجلب الكتب الإغريقية إلى

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

بغداد. وكان من أشهر التراجمة آنذاك ابن المقفع، فقد نقل كتب الفرس الخاصة بالمنطق والطب إلى العربية، فهناك العديد من المصطلحات الطبية ذات أصل فارسي في المفردات الطبية المستعملة في عصرنا، ومن بين المترجمين آنذاك يوحنا بن البطريق، قسطا بن لؤفا، يوحنا بن ماسويه. أما في خلافة المأمون فقد كان حنين بن إسحاق يشرف على عدد كبير من المترجمين والنسّاخ في بيت الحكمة، فقد كان هو من يصحح الأخطاء ويزود المترجمين والنسّاخ بالكتب النادرة، إضافة إلى أعمال أخرى كان يقوم بها، كتأليف كتب الطب والمنطق والفلسفة وترجمة بعض الكتب مثل كتب جالينوس الستة عشر الخاصة بالطب. أما في القرن العاشر فقد ازدهرت العلوم عند عرب الأندلس وكان من بين المترجمين آنذاك جيربير دفاوريلاك فقد نقل نماذج من العلوم العربية، ثم تبعه قسطنطيني الإفريقي في القرن الحادي عشر الذي نقل للعرب المسيح كتاب "كامل الصناعة الطبية" لعلي بن عباس، وزاد المسافر لابن الجزار كما قام بشرح أقوال جالينوس المأثورة. وقد نقل العالم الغربي حضارة العرب إلى اللاتينية ومن بينهم الفرنسي ريمون الذي ترجم وكتب في الرياضيات والتنجيم والفلك والطب إضافة إلى جان دوسي الذي ترجم كتاب الروح لابن سينا، إضافة إلى جيرا دوكريمون الذي ترجم المقالة الثلاثين لكتاب التصريف للزهراوي والذي يتعلق بالجراحة. وقد ظلت كل من مقالات الزهراوي وكتاب القانون لابن سينا تدرس بشكل رسمي في المدارس طيلة قرون في كل من مدرسة سنالرنو ومونيليه. وللتوصل إلى نتيجة إيجابية يجب أن نترجم مجدداً ما توصل إليه الغرب من تكنولوجيا حديثة في الطب بدءاً بالطب اليوناني لأن معظم المصطلحات الطبية تحوي جذوراً إغريقية، فمن الضروري أن تقوم بدراسة المصطلحات الطبية مروراً بعلم تأصيل الكلمات لمعرفة معاني الجذور الإغريقية.

إن حركة صناعة المصطلح العلمي العربي قد أصابها نوع من الجمود لأسباب عديدة لعل أبرزها توقف مسيرة النشاط العلمي عند العرب خلال تلك الفترة التي أعقبت عصر النهضة العلمية العربية حتى القرن التاسع عشر، لقد كان مطلع القرن التاسع عشر يمثل مرحلة انتقالية في تقدم العلوم والفنون مورست خلالها ترجمة المصطلحات العلمية وتعريبها من اللغتين اللتين كانتا ساندتين في الأقطار العربية، ونعني بهما الفرنسية والإنجليزية.

روافد الترجمة العلمية في الوطن العربي

أصبح المصطلح العلمي العربي في عصرنا الحالي مجرد احتواء لما يُستورد من علوم أجنبية، كما أصبح يستولد من رحم اللغة العربية في الجامعات اللغوية العربية التي بدأت نشاطها مع بدايات القرن العشرين، وذلك بعد أن كان هذا المصطلح العلمي يجري خلقه ونحته على يد العلماء ليقوموا بعد ذلك بتصديره إلى أهل اللغة ليضيفوه إلى معاجمهم وقواميسهم العربية.

تمثل الترجمة العلمية رافداً مهماً من روافد تشكيل العقل العربي في القرن الحادي والعشرين. وقد تعاضمت أهمية هذه الترجمة مع تفجر ثورة المعلومات خلال العقد الأخير من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، فمع ذلك الكم الهائل من المعلومات العلمية التي يجري إنتاجها يوميا باللغات الأجنبية في جميع أنحاء العالم، يصبح لزاماً أن تتطور الترجمة العلمية إلى اللغة العربية لكي تواكب هذا الزخم الهائل من المعلومات، وإلا وجدنا أنفسنا في مؤخرة ركب التقدم العلمي في العالم، فنحن لا نستطيع مواكبة الثورة العلمية الجارية إلا بلغتنا التي نفكر بها.

في كل لحظة يخرج العلم على الإنسانية بالجديد، وهذا ما يؤدي إلى طرح قدر هائل من المصطلحات الجديدة التي يتزايد طرحها كلما تزايدت العلوم والتخصصات المندرجة تحتها، والصعوبة الدائمة التي يواجهها المترجم هي إيجاد المصطلح المكافئ في اللغة الهدف، وقد تتخذ بعض الوسائل في زمننا هذا لنقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية كالاتفاق اللغوي (اللواصق الاشتقاقية واللواصق الدلالية)، القياس اللغوي وتوليد الصيغ، النحت والتركيب، المجاز، الاقتراض.

من أهم المشكلات التي تعترض الترجمة عامة والترجمة العلمية على وجه الخصوص مشكلة المصطلح العلمي، فهناك، وبالأسف الشديد، حالة من التشرذم الاصطلاحي على المصطلح العلمي الواحد. ولعل السبب الجوهرى في ذلك هو عدم توحيد جهود الترجمة والنقل بين الأقطار العربية التي لا تزال حتى الآن تقتفر إلى منظومة ومعايير موحدة بين البلدان العربية.

لقد تعالت أصوات كثيرة منادية بضرورة توحيد المصطلحات العلمية، خاصة وأن هذا التعدد غير المبرر في صيغ المصطلح الواحد يجعلنا نشعر وكأننا أمام لغاتٍ عربيةٍ برغم أن المصطلح المترجم واحدٌ في لغة المصدر، إلا أن التعامل اللغوي القطري يهوي بنا إلى التعددية

الاصطلاحية. ونظراً لخطر هذه الظاهرة اللغوية فقد تناولتها العديد من الدراسات وشملت آراء وبذلت جهود هائلة بُغية إنهاء حالة الانقسام الاصطلاحي بين اللغويين العرب التي تسببت في حالة من الفوضى الاصطلاحية وأشاعت الالتباس والغموض.

إن العلاقة بين الترجمة والتعريب والمصطلح علاقة أصيلة قديمة لها دورها الفعال في تحقيق النهضة العلمية وإثراء حركة البحث العلمي، ذلك أن المصطلح ينتقل من لغة إلى أخرى إما عن طريق الترجمة أو التعريب.

ومسألة الترجمة والتعريب ليست من الأمور الأكاديمية التي تتفرد بها الدوريات العلمية أو قاعات الدرس والبحث، بل من الأمور الحياتية التي نعيش معها يومياً، وتعامل بمفرداتها عن وعي أو دون وعي.

فالترجمة هي نقل معنى المصطلح من اللغة المصدر إلى المعنى المكافئ له في اللغة الهدف، ولهذا النقل شروط، أهمها وضوح الترجمة، والأمانة العلمية كما تعتمد ترجمة المصطلحات على النظرية الدلالية التي تهدف إلى النقل، "وهي قديمة قدم المجتمعات البشرية، كانت وسيلة الاتصال والتفاهم بين كل جماعة تتكلم بلسان ما والجماعات الأخرى التي تتكلم باللسانِ أخرى، ودواعي الاتصال والتفاهم كثيرة منها ما يتعلق بشؤون التبادل السياسي والتجاري والفكري في أيام السلم، ومنها ما يتصل بشؤون النزاع والقتال ثم ما يعقبهما من تفاوض في أيام الحرب"¹.

كما أنها تجسُر الهوة القائمة بين الشعوب الأرفع حضارةً والشعوب الأدنى حضارةً. وهي وسيلة لإغناء اللغة وتطويرها وتحديثها؛ إذ تؤدي الترجمة دوراً مهماً في إغناء اللغة وتطويرها، ذلك أن الميادين الجديدة التي تخوضها الترجمة تقتضي منها أن تبحث عن صيغ جديدة وتعابير مناسبة وكلمات ملائمة، وهذا كله إغناء للغة وتطوير لها.

والتعريب مصطلح قديم اكتسب دلالة جديدة في العصر الحديث، كان يعني صبغ الكلمة

¹ شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، دار طلاس، دمشق، 1989 ص 89.

روافد الترجمة العلمية في الوطن العربي

بصبغة عربية عند نقلها بلفظ أجنبي إلى اللغة العربية، كما تعددت دلالاته واختلقت تحديدها على مر العصور باختلاف الزمان والمكان والإنسان، وهو من الوسائل التي تثرى اللغات، فتستطيع بذلك مواكبة المستجدات.

"فالتعريب هو الطريق إلى الحفاظ على ذاتنا الثقافية وهويتنا الغربية وتأصيل حضارتنا في عصر العولمة، وهو الطريق في الوقت نفسه إلى استنبات العربية عربياً وإلى الإبداع والابتكار، فهو مسؤولية مجتمعية وقضية انتماء، وهو من أهم الوسائل التي نلجأ إليها كثيراً لتكثير اللغة وتطويعها للمصطلحات العلمية الجديدة، وإنه يسهم إلى حد بعيد في إغناء اللغة من خارجها".¹

أما المصطلح فهو اللفظ الذي يضعه أهل عُرْفٍ أو اختصاص معين ليبدل على معنى معين يتبادر إلى الذهن عند إطلاق ذلك اللفظ، ثم إنَّ المصطلحات هي مفاتيح العلوم وخلاصة البحث في كل عصر ومصر، ببدايتها يبدأ الوجود العلمي للعلم وفي تطورها يتلخص تطور العلم.

لقد بذلت جهود ولا تزال تبذل في مجال ترجمة وتعريب المصطلح العلمي لكنها تظل غير كافية بالمقارنة بالكم الهائل من المفاهيم والمخترعات الجديدة الوافدة من الغرب، ويكفي أن نتصفح المجالات والدوريات العلمية المتخصصة لنلاحظ العدد الكبير من المصطلحات الجديدة التي يبتكرها الباحثون للتعبير عما جدَّ في مجال التفكير العلمي والتكنولوجي.

فلا نخالف الحقيقة عندما نوكد أن الترجمة والتعريب يساهمان في تناسق الأفكار والمعطيات العلمية وانفتاح الشعوب بعضها على بعض ومواكبة المدنية بما تدل عليه من ثروة علمية تكنولوجية دون التخلي عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية.

إن اللغة كاللغة العربية التي كان لها الفضل في تقدم العلم ونشره في أرجاء أوربا لا يمكن أن تصبح غريبة وعاجزة عن مسايرة هذا التقدم. إن اللغة العربية قادرة على رفع التحدي الذي يواجهها لتصبح كما كانت في الماضي لغة تواصل وتفكير علميين.

¹ المجلس الأعلى للغة العربية، أهمية الترجمة وشروط إحيائها، دار الهدى، الجزائر، 2007، محمد حازي، «في رحاب المصطلح العلمي العربي»، ص 310.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

واجه الطب في مسيرته ظاهرة تغير الأمراض التي تعود أسبابها إلى عوامل حضارية، فبزوال الحضارة الفلاحية مثلاً، تناقص عدد كبير من الأمراض الجرثومية، والأمراض المتعلقة بسوء التغذية، وبظهور الحضارة الصناعية تزايدت الأمراض الشريانية والسرطان.

ونظراً لأهمية الطب في حياتنا اليومية، بات من الضروري الاهتمام به، برغم التدهور الذي يشهده العالم العربي مقارنة بالعالم الغربي الذي يشهد تطوراً مستمراً في شتى المجالات وخاصة في المجال الطبي، مما أدى إلى توسع الفجوة المعرفية بينه وبيننا.

ولأن الترجمة، أساس التواصل بين الثقافات، والناقل المعرفي لمنجزات العصر الثقافية والعلمية والتكنولوجية، فقد أسهمت بقسط كبير في تطور العلوم الطبية عند العرب قديماً والغرب حديثاً، لأنهم اعتمدوا ترجمة أمهات الكتب الطبية لمختلف الحضارات في تطوير هذا الميدان من العلوم.

ومن أهم المشكلات التي تعترض الترجمة الطبية، مشكلة المصطلح الطبي، ويقصد به كلمة من مجموع مفردات خاصة بالطب وعلومه لا تستعمل في الكلام العادي الجاري على ألسنة الناس، لكن قد ينتقل بالتبعية إلى الاستعمال اللغوي العام بين أفراد المجتمع.

لقد اختلط الطب قديماً عند العرب بالكهانة والشعوذة، وكان الطب يعتمد عند عرب الجاهلية على تجارب بسيطة ويتناقله الناس تقليداً، وأشهر طرائقهم الكيُّ والفصد والحجامة. ثم تطور بقدر كبير بمجيء الإسلام وبعود الفضل في ذلك إلى القرآن الكريم وسنة محمد صلى الله عليه وسلم. ويشمل ذلك الطب النبوي الشريف.

أما في العصر الأموي فلم يتطور بقدر كبير لأن الأطباء آنذاك كانوا مهتمين بالاطلاع على أمهات الكتب الطبية وترجمتها، مما جعله يبلغ أوجه في العصر العباسي بعدما عدلوا الآراء القديمة الخاطئة، وطوروا طرق إعداد الأدوية والآلات الجراحية، واهتموا بالمستشفيات وغيرها ووضعوا أسماء عربية عديدة كالجراحة والتشريح والكحالة، وسَمَّوا بعض الأمراض مثل السرطان والخانوق والذبحة والربو والاستسقاء وذات الجنب والبواسير، وعمدوا أيضاً إلى التعريب فقالوا

روافد الترجمة العلمية في الوطن العربي

الترياق وغير ذلك. ومن أشهر أطبائهم أبو بكر الرازي صاحب الموسوعة الطبية المدعوة الحاوي، وابن سينا صاحب كتاب القانون الذي يعتبر موسوعة في الطب والصيدلة، وعلي بن العباس صاحب كتاب كامل الصناعة في الطب.

نقل العالم الغربي حضارة العرب إلى اللاتينية ومن بينهم حان دوسي الذي ترجم كتاب الروح لابن سينا إضافةً إلى جيراردو كيريمون الذي ترجم المقالة الثلاثين لكتاب التصريف للزهراوي التي تتعلق بالجراحة.

أما اليوم فنحن في حاجة ماسة إلى ترجمة ما توصل إليه الغرب من تكنولوجيا حديثة في الطب لجعل اللغة العربية لغة حية تماشي ومتطلبات العصر والاختراعات والاكتشافات التي هي في تزايد مستمر.

ولابد أن المتابع للعلوم الطبية قد لاحظ أن لغتها فرنسية كانت أو عربية تقع اليوم تحت تأثير الغزو الإنجليزي، لأن هذه اللغة أصبحت اليوم لغة الاتصال العالمي، لذلك نرى أن بعض المصطلحات العربية مأخوذة عن اللغة الإنجليزية كلياً أو جزئياً.

إن عملية التغريب التي يعيشها عالمنا العربي قد تمكنت من الإنسان العربي وجعلته غريباً عن تراثه وتاريخه الشامخ، منفصلاً عن جذوره ولذا أصبح في حالة من الضياع الثقافي الكامل، فلا هو قادر على التواصل مع تاريخه وتراثه ولا هو قادر على اللحاق بمتطلبات العصر.

وبعدم تدريس العلوم والطب باللغة العربية تمكن المستعمر الغربي من أن يجعلنا تابعين له وحرماناً من الإبداع العلمي في هذا المجال.

وعندما تسأل الطلاب عن التدريس باللغة العربية، يقولون إن الفهم باللغة العربية أحسن ولكن...!! وعندما نسأل عن (لكن) هذه يقولون إن لديهم تخوفاً من عدم تمكنهم من العمل في البلاد الأجنبية وعدم استطاعتهم مواصلة التدريب بعد التخرج وعدم توفر الكتاب العربي وما إلى ذلك من الأعداء.

أساليب وضع المصطلح العلمي

نهج العلماء والمترجمون أساليب لوضع المصطلح العلمي في اللغة العربية، وذلك في حالة تعذر وجود مقابل للفظ الأجنبي في اللغة العربية، وتتمثل فيما يلي: الترجمة والاشتقاق والمجاز والنحت والتركيب المجازي والتعريب بالافتراض.

أ. الترجمة:

وهي نقل اللفظ الأعجمي بمعناه إلى ما يقابله في اللغة العربية وتنقسم ترجمة المصطلح إلى نوعين:

- "الترجمة المباشرة: وهي عملية نقل مصطلح من لغة ما إلى اللغة العربية نقلاً حرفياً مطابقاً مباشراً.

- الترجمة الدلالية: يعتبر النقل الدلالي من أهم الوسائل التي ساهمت بقسط كبير في إثراء اللغة العربية قديماً وحديثاً بالمصطلحات العلمية¹.

وتوجد ترجمة أدبية وترجمة علمية، إن الترجمة العلمية ليست مجرد استبدال لألفاظ بين لغتي المصدر والهدف، ولا وضع مصطلحات من لغة ما مكان ما يقابلها من لغة أخرى، فحتى النصوص العلمية لا تخلو من تكوينات لغوية وأسلوبية يحتاج المترجم إلى معرفتها والإلمام بها، فواقع الأمر أن عملية الترجمة أشبه بمثلث متساوي الأضلاع ضلعاها هما المعرفة اللغوية والمعرفة الثقافية وقاعدته هي المعرفة العلمية، ولا يمكن للمترجم أن يبرع في ترجمته ما لم تتحقق لديه هذه الشروط المعرفية الثلاثة سواء على مستوى اللغة أو الثقافة أو العلم.

ب. الاشتقاق:

يعد الاشتقاق في اللغة العربية أهم الوسائل التي تسهم في توليد الألفاظ والصيغ، وهو عامل من عوامل زيادة الثروة اللغوية، وهو عملية استخراج لفظ من لفظ آخر أو صيغة من صيغة

¹ محمد ضاري حمادي، وسائل وضع المصطلح العلمي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 3، الجزء 3،

أخرى نتيجة لتصريف اللفظة وتقليباتها المختلفة.

يُعرّف السيوطي الاشتقاق قائلاً: "هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقها معنى ومادة أصلية وهيئة وتركيب لها ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلافاً حروفاً أو هيئةً كضارب من ضرب وحذر من حذر"¹.

يقسم علماء الصرف الاشتقاق إلى خمسة أنواع:

- الاشتقاق الصغير: وهو ما يتفق فيه المشتق والمشتق منه في الحروف والترتيب مع التشابه في المعنى مثل عمل/عامل.
- الاشتقاق الكبير: وهو ما يتفق فيه المشتق والمشتق منه في الحروف الثانية مع اختلاف في الترتيب وتشابه في المعنى مثل جلا/جال/جل/لاج، وهو ما يعرف بالتقليب الصرفي وتكون فيه معاني المادة المتحددة الحروف المختلفة التركيب يجمعها معنى عام يكون كالمحور لها مثل جذب/جذب وهم/وهي/هوى. ولقد استفاد فيه ابن جني وهو يحاول إيجاد المعنى العام الذي تدور حوله تقلبات المادة"².
- الاشتقاق الأكبر: وهو ما يتفق فيه المشتق والمشتق منه في بعض الحروف ويختلف باقيها مع اتحادهما في المخرج مثل نعق ونهق لأن العين والهاء حرفان حلقيان.
- الاشتقاق الكُبار: وهو اشتقاق نادر في المتون اللغوية ينتج من توليد اللفظ من لفظين فأكثر أو بمعنى آخر أن يؤخذ من كلمتين ومثال ذلك "لا حول ولا قوة الا بالله" حوقلة، بسم الله" بسملة.
- اشتقاق الأعلام: وقد ظهر حديثاً لأن التطور والضرورة العصرية فرضا الاشتقاق من الأعلام، ومن صفاتهم، وذلك باشتقاق صيغ من الأسماء والأعلام مثل قولنا: تدمقرط من الديمقراطية، تجزأر من الجزائر... إلخ، كما اشتقت من أسماء الأعيان كالذهب والبحر والإبل والنمر فقالت

¹ جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى بيبك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الحيواوي، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، الجزء الثاني، ص 346.

² ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، الجزء الثاني، ص 133.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

ذهب أبحر وتابل وتتمّر... ألخ، كما اشتقت من أسماء الاعيان المعربة كالدرهم، الفهرس، الديوان، البريد فقالت درهم، فهرس، دَوْن، أبرد.

وقد وضع مجمع اللغة العربية بدمشق قواعد الاشتقاق من الاسم الجامد العربي والاسم الجامد المعرب، كما استعمل صيغة مفعلة لأسماء الاعيان الثلاثية: من الحيوان، النبات والجماد، مثل: ملبنة، مزبدة ... ألخ.

ج. المجاز:

يعد المجاز وسيلة من وسائل تنمية اللغة، وتستعمل الألفاظ على الحقيقة، كما قد تستعمل على المجاز أي إن الكلام ينقسم إلى حقيقة ومجاز.

يعرف شحادة الخوري المجاز في كتابه دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب قائلاً "وهو التوسع في المعنى اللغوي لكلمة ما لتحميلها معنى جديداً، الطيارة أصلاً تدل على الفرس الجديد ثم صارت تدل على آلة الطيران"¹.

ولأن المجاز يمس المعاني الاصطلاحية في كل العلوم، فإنه يساعدنا على نقل الكلمات من معناها الأصلي إلى معنى جديد مختلف عن المعنى الأول، كما أنه يثري اللغة بالألفاظ وهو أداة ناجعة في تنمية اللغة وجعلها صالحة لاستيعاب العلوم الحديثة.

فقد أسهم المجاز حديثاً في وضع العديد من مصطلحات العلوم والمخترعات مثل السيارة وأصلها القافلة، الطيار الفرس الشديد وغيرها.

د. النحت:

النحت طريقة يلجأ إليها واضع المصطلح إذا لم يوفق في إيجاد المصطلح العلمي باستعمال الطرق السابقة التي تتمثل في الترجمة، والاشتقاق والمجاز.

ويعدّ النحت وسيلة من الوسائل التي تساعد وتساهم في نمو الألفاظ وإثراء اللغات بالمصطلحات.

¹ شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ص 157.

روافد الترجمة العلمية في الوطن العربي

تناول بعض اللغويين المحدثين مفهوم النحت، فرأى شحادة الخوري أن النحت "هو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه عبثمي وكهرحراري يدل عبد شمسي وكهربائي حراري"¹.

ومن شروط النحت:

- الضرورة: الحاجة الى ذلك المصطلح وعدم وروده، ينحت شريطة أن تكون الألفاظ المنحوتة مركبة من أصلها ومعبرة عن معان لا معربة ولا مشتقة.
- مراعاة أساليب العرب في النحت مثلاً إذا وجدت أكثر من كلمتين فلا يشترط الأخذ منها كلها.
- التناسب الصوتي: عدم الجمع بين الأصوات المتنافرة كالصاد والجيم في الكلمة المنحوتة - أما التركيب المزجي فهو ضم كلمتين إحداهما إلى الأخرى وجعلها اسماً واحداً سواء أكانت الكلمتان عربييتين أو معريتين، ويكون في أعلام الأشخاص والأجناس والظروف والأحوال والأصوات والمركبات العددية والوحدات الفيزيائية"².

هـ. الاقتراض اللغوي (التعريب):

يقول علي القاسمي في كتابه مقدمة في علم المصطلح: "وهي عملية عرفتتها اللغات حيث يعتمد الناطقون بلغة ما إلى استعارة ألفاظ من لغات إلى لغات أخرى عندما تدعو الحاجة إلى ذلك"³.

انطلاقاً من هذا التعريف نستنتج أن التعريب إدخال لفظ أعجمي إلى اللغة العربية بعد إخضاعه للوزن الذي تقبله يجعل الصيغة الأجنبية ذات جرس عربي ويمكن اللجوء إلى هذه

¹ شحادة الخوري، ص 158.

² محمد الدالي، في الطريق إلى مصطلح علمي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 75، الجزء 3، ص 740.

³ محمد ضاروي حمادي، وسائل وضع المصطلح العلمي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 75، الجزء 3، ص 740.

الوسيلة اللغوية إذا تعذر على واضع المصطلح توليد الكلمة بالنقل الدلالي والنقل المباشر أو بالاشتقاق أو بالمجاز أو بالنحت.

وقد استعمل التعريب للدلالة على المعاني التالية:

أ. ترجمة معاني الألفاظ والعبارات إلى اللغة العربية.

ب. نقل الفكرة العامة أو العناصر الرئيسية لقصة أعجمية أو مسرحية والتصريف. فيها بإدخال أفكار جزئية عربية أي الاقتباس¹.

مبادئ وضع المصطلح العلمي

المصطلح العلمي هو اللفظ الذي يتفق عليه العلماء على اختلاف اختصاصاتهم؛ ليدلوا به على شيء محدد، ويميزوا به مفاهيم الأشياء، ويدركوا مستويات الفكر، فهو لغة التفاهم بين العلماء والمفكرين والباحثين والدارسين، وهو بمثابة النافذة التي يطلون منها على مختلف العلوم والمعارف.

وإذا كانت الاكتشافات والاختراعات والمؤلفات وجه الحضارة العلمية الأول؛ فإن المصطلحات العلمية وجهها الثاني؛ فلقد واكب المصطلح كل التطورات العلمية والقفزات الحضارية في الماضي والحاضر.

وضع المختصون بالمصطلح بعض المبادئ التي يركز عليها في وضع المصطلح العلمي وتتمثل فيما يلي:

- إثبات معنى أصل المصطلح في اليونانية واللاتينية قبل وضع المقابل العربي.
- المحاولة قدر الامكان إرفاق كل معنى بمصطلح واحد في حقل واحد.
- تفضيل الكلمة التي تتيح الاشتقاق على التي لا تتيحهُ ويكون ذلك من خلال تفضيل الكلمة

¹ عبد الحليم سويدان، مبادئ يركز عليها عند وضع المصطلح، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 75، الجزء 3، ص 590.

.....رواقد الترجمة العلمية في الوطن العربي

- المفردة لأنها تتيح الاشتقاق والإضافة والتنشئة والجمع.
 - محاولة اختيار أقرب المفردات معنىً من المصطلح الأجنبي.
 - تفضيل المصطلحات التراثية على المولدة.
 - تفضيل الكلمات الشائعة الصحيحة والكلمات العربية الفصيحة على المعربة.
 - تجنب الألفاظ العامية إلا للضرورة مع وجوب الإشارة إليها بين قوسين.
 - الأخذ بعين الاعتبار للمصطلحات المعربة والمترجمة التي اتفق على استعمالها المختصون.
 - في حالة مصادفة ألفاظ مترادفة ينبغي تحديد حقل دلالتها العلمية وانتقاء اللفظ العلمي المقابل.
 - إخضاع الكلمة المعربة لقواعد اللغة العامة¹.
- لقد كانت هذه بعض التوصيات الخاصة بوضع المصطلح العلمي العربي، وقد أدت إلى نتائج إيجابية عادت على اللغة العربية بقواعد جمة، منها إثراؤها بالمصطلحات إضافة إلى تجديد تراثنا الذي كان ضحية انحطاط البلاد العربية وتدهور العلوم في العصر الحديث عند العرب.

¹ المرجع نفسه.

المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

د. عبد الغني بن صوله

جامعة محمد الشريف مساعديّة

سوق أهواس - الجزائر

مقدمة

ما قدّمته اللسانيات العامة في مجال البحث اللغوي، وما حقّقه من نتائج في الجوانب المنهجية والمفاهيم الاصطلاحية لا تحصى، وقد أتى أكله في فروع كثيرة من المعرفة، من ذلك المعرفة الصوتية (علم الأصوات) بمختلف أقسامه. فلما تعدّدت نواحي دراسة الصوت واختلّفت زوايا الرّؤى إليه، اختلّفت العلوم المهتمة به واختلّف معها المصطلح الدالّ عليها. فألفينا: *phonétique-phonologie*

1. مصطلح PHONETIQUE في الثقافة الغربية

في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة (*cours de linguistique générale*) حدّد سوسير مصطلحاته وميّزها، وذهب إلى أنّ دراسة الصّوت أولى الخطوات لكشف أسرار اللغة، ومعرفة حقيقتها، باعتبار الصوت أصغر الوحدات المكوّنة للنظام اللساني. ولما كانت أولى الدلالات التي استعمل فيها مصطلح *phonétique* هي دراسة تطور الأصوات، أثر سوسير *F. De Saussure* إبقاءه كذلك¹، ومن الخطأ إطلاقه على فسيولوجيا الصوت أو (*physiologie du son*). ليكون التمييز بينه وبين مصطلح *phonologie* على النحو التالي:

¹ فرديناند دي سوسير: علم اللغة، ترجمة: بوتيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، ط 3، 1985، ص 51.

- *Phonétique*: «علم تاريخي، يحلّل الأحداث والتغيرات، ويتحرّك من خلال الزمن»¹.
- *Phonologie*: «علم خارج الزمن، ذلك أن عملية النطق لا تتغيّر أبداً، وهو علم مساعد يختصّ بالكلام فقط»².

وفق هذا الطرح يكون مصطلح *phonétique* أقرب إلى علم اللغة التاريخي، ومن ثمّ كان تفریق سوسير اصطلاحياً، بحيث ظل على نهج العرب القدامى في دراسة الصوت بوجه عام، وهذا ما أشار إليه كمال بشر بقوله: «يتفق سوسير مع التقليديين في دراسة الصوت بأسلوب عام، وعدم تنويع الدراسة الصوتية إلى فرعين، يختصّ كل واحد منهما بدراسة جانب من جوانب الصوت، ولكنه خالفهم فقط في التسمية»³.

ومما لا شكّ فيه أنّ هذا التحديد - بالرغم من معارضة الكثيرين له - يمثل البداية الحقيقية لعلم الأصوات في أوروبا⁴. فوفق ثنائية (أني- تاريخي) (*synchronie-diachronie*) أبرز سوسير نوعين من دراسة الصوت البشري: الدراسة التاريخية والدراسة الآنية، والأخيرة ما أطلق عليها مصطلح *phonologie*.

ثمّ توالى محاولات ضبط المصطلحين وتبيين حدودهما، وكانت الأعمال اللغوية التي قدّمتها حلقة براغ (*Cercle de Prague*)، والمتمثلة خصوصاً في أعمال كل من تروبetskوي (*Troubetskoï*) وجاكوبسن (*R-Jakobson*) مساهمات بالغة الأثر في تحديد موضع المصطلحين، وبالموازاة كانت هناك أبحاث أخرى قد أنجزت في كل من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، أدت إلى نتائج مماثلة مع بعض الاختلافات في المبدأ والأسلوب⁵.

تذهب مدرسة براغ إلى ضرورة الفصل بين *phonologie* و *phonétique*، واعتبرت الأول:

¹ المرجع نفسه، ص 51.

² المرجع نفسه، ص 51.

³ كمال بشر: الأصوات اللغوية، دار غريب للنشر والتوزيع، مصر، 2002 ص 73.

⁴ J. Dubois et autres: dictionnaire de linguistique. P 363.

⁵ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، 1998 ص 68.

المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

«فرعاً من علم اللغة (اللسانيات) يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية»¹، في حين أقصت *phonétique* وعدته علماً خالصاً من علوم الطبيعة. يقول ترويتسكوي في هذا الشأن «إنّ التمييز الواضح بين *phonologie* و *phonétiques* ضروري من حيث المبدأ، ويمكن من الناحية العلمية، وهذا التمييز في مصلحة كل العلوم»².

إن جوهر التفريق بين المصطلحين لدى مدرسة "براغ" قائم على التفريق بين منهج الدراسة، والجانب الصوتي الذي يضطلع به كل علم، فلما كانت الـ *phonologie* تهتم بدراسة الوظيفة والقيمة الصوتية في التركيب، كانت فرعاً من اللسانيات (*Linguistique*).

أمّا *phonétique* ونظراً لطبيعة منهجه العلمي، واهتمامه بالجوانب الفيزيولوجية والنطقية للصوت وجوانب أخرى، فكان تصنيفه أقرب إلى العلوم الطبيعية منه إلى اللسانيات، وهذا منطقي مشروع، وإن كانت دراسة وظيفة الأصوات لا تستغني عن معرفة الخصائص الفيزيائية للصوت. وقد أشار كمال بشر إلى أن أصل التفريق بين المصطلحين راجع للتأثر بأراء سوسير وتفريقه بين اللّغة والكلام (*Langue-Parole*)، فالكلام نشاط عضويّ يمثل المنطوق بالفعل الصادر من المتكلم الفرد في زمن معيّن، وعليه المختص بالـ *phonétique*. مطالب بالنظر في مصدر التصويت وكيفية حدوثه، أما اللغة فهي قواعد عقلية ذات نظم مخزونة في الذهن، فكان على الفونولوجي دراسة الصور الذهنية ذات القيم المميزة المكونة للكلمات واللغة ذاتها³.

واقع الحال أن الفصل بينها على مستوى التنظير والتأسيس لا غير، أما على المستوى التطبيقي - كما سبق الإشارة إليه - فتبرز لنا علاقة قوية بين العلمين كعلاقة الفيزياء بالرياضيات، فإذا كانت الرياضيات توفر للفيزياء ما يستوجب من مبادئ وقوانين لدراسة الظواهر الفيزيائية، فإنّ *phonétique* تعمل على توفير المادة الأولية للـ *phonologie* لدراسة وظائف

¹ المرجع نفسه، ص 66.

² N.S. Trubetzkoy: Principles of phonology, translated buy Christian, second printing, California, 1971, P 13.

³ كمال بشر: الأصوات اللغوية، صص 77.76.73.

الأصوات في التركيب، ولا عبور للفونولوجيا إلاً على جسر الفونيتيك.

في المدرسة الإنجليزية اتَّخذ مصطلح *phonologie* مفهوماً مغايراً لما أقرّه سوسير إذ؛ عبّر عن الدراسات الصوتية التاريخية، أما *phonétique* فأطلق على دراسة الصوت منعزلاً أو على مستوى التركيب¹. والأخير يضم بهذا المفهوم كلاً من *phonologie* و *phonétique* لدى مدرسة براغ. لكن ما فتئت هذه المدرسة تسائر التطور الحاصل، ورأت من الضروري مواكبة التقدم بتخصيص شقين لدراسة الصوت البشري. فاستقرّ المصطلحان على الدلالات التالية:

- مصطلح *phonologie*: للدلالة على العلم الذي يهتم بدراسة ووصف النظام الصوتي للغة معينة².

- مصطلح *phonétique*: للدلالة على دراسة الصوت منعزلاً، دون النظر في وظائفه اللغوية، أو حتى معرفة اللغة التي ينتمي إليها³.

وهذا ما ذهبت إليه مدرسة براغ وأقرته، وما أخذ عليها هو محاولة الفصل بين العلمين. وعلى العموم يمكن إجمال تذبذب مفهوم المصطلحين من خلال قراءة مصادر التعريف السابقة في الجدول (1).

إذا كان هذا التذبذب والتداخل الذي رافق نضج المصطلحين بهذا الحجم في أرضية المنشأ، فمن الطبيعي أن نصادف في نقلهما إلى العربية اضطراباً وتعددًا في المقابلات العربية.

الجدول 1: *phonétique et phonologie* في الدراسات الغربية.

المدارس اللسانية	<i>Phonologie</i>	<i>Phonétique</i>
سوسير	علم يختص بالكلام فقط، خاضع للزمن، مساعد لعلم اللغة	دراسة تاريخية للأصوات، وجزء تاريخي من علم اللغة (<i>linguistique</i>)

¹ المرجع نفسه، ص 91.

² أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي: ص 68.

³ المرجع نفسه، ص 68.

.....المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

علم خالص من علوم الطبيعة يدرس الصوت منعزلاً، مساعد لعلم اللغة ¹ .	فرع من فروع علم اللغة يعالج الظواهر الصوتية من ناحية الوظيفة في التركيب.	مدرسة براغ
العلم الذي يدرس الأصوات منعزلاً أو في التركيب	الدراسة التاريخية للأصوات	المدرسة الإنجليزية

2. مصطلح العلم phonétique: في الثقافة العربية

هو من المصطلحات التي شهدت تذبذباً كبيراً على مستوى المفهوم، ولم يعش الاستقرار إلا حديثاً، فحتى منتصف القرن التاسع استعمل للدلالة على دراسة الصوت عامة، ويشمل ذلك دراسة الصوت داخل التركيب²؛ وهذا الاتجاه مثلته المدرسة الإنجليزية كما سلف ذكره. فتاريخ الفونولوجيا واسع إلى حد بعيد، أخذ تطوره انطلاقاً من الأفكار المتعلقة بالصوتية (phonème) التي يعود أصلها إلى أعمال حلقة براغ، والنظرية الفونولوجية لبلوم فيلد³. وأضحى الـ phonologie فرعاً من فروع اللسانيات يدرس النظام الصوتي⁴. أما الفونيتك (phonetics) فبات يعني ذلك العلم الذي يدرس خصائص صناعة الصوت البشري، خاصة تلك المستعملة في الكلام، ويوفر الوسائل لوصفها وتصنيفها. ويتفرع إلى علم الأصوات النطقي، وهو دراسة طريقة إنتاج الصوت بالأجهزة الصوتية. وعلم الأصوات الأكوستيكي: دراسات الخصائص الفيزيائية لأصوات الكلام، وعلم الأصوات السمعي: دراسات الاستجابة الحسية لأصوات الكلام، بوساطة الأذن. وعلم الأصوات

¹ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 66.

² كما بشر: الأصوات اللغوية، ص 65.

³ ورد النص في اللغة الأصلية كما يلي: *The history of phonology is largely taken up with the development of ideas concerning the phoneme, as originally propounded in Prague school and Bloomfieldian phonological theory, and the subsequent alternative views proposed, especially in generative phonology and prosodic phonology. David Crystal: A dictionary of linguistics and Phonetics, sixth edition, 2008, P365.*

⁴ ورد النص في اللغة الأصلية كما يلي: *Phonology: a branch of linguistics which studies the sound system of languages. Ibid, P 365.*

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

التجريبي (المخبري) الذي يعالج الصوت باستعمال الآلات، مثل أجهزة قياس تدفق الهواء، أو التي تعرف موجات تحليل الصوت والاستقبال¹.

1. ترجمة مصطلح phonétique

قوبل هذا المصطلح في المعاجم اللسانية بأكثر من مقابل عربي، كما هو موضح في الجدول

(2):

الجدول 2: ترجمة مصطلح phonétique/ phonetics

اسم المعجم المصطلح	معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ²	قاموس اللسانيات ³	معجم المصطلحات اللسانية ⁴	معجم الألسنية ⁵	معجم علم الأصوات ⁶	المعجم الموحد ⁷
Phonétique ue Phonetics	علم الأصوات اللغوية /ص 65	صوتيات صوتي /ص 195	أصواتي - صوتي /ص 132	صوتي- علم الأصوات /ص 223	علم الأصوات - البحث /ص 113	الصوتيات /ص 112

¹ ورد النص في اللغة الأصلية كما يلي: **Phonetics:** he science which studies the characteristics of human sound making, especially those used in speech, and provides methods for their description, classification. the branches of the subject are generally recognized: articulatory phonetics is the study of the way speech sounds are made by the vocal organs. Acoustic phonetics: studies the physical properties of speech sounds, as transmitted between mouth and ear. Auditory phonetics studies the perceptual response to speech sounds, as mediated by ear, auditory never and brain. The term instrumental phonetics is used for the study of any of these aspects of the subject using physical apparatus, such as devices for measuring airflow, or known analyzing sound waves, *Ibid. P 363.*

² نخبة من اللغويين العرب: معجم مصطلحات علم اللّغة الحديث (عربي- انجليزي، عربي - انجليزي)، مكتبة لبنان، بيروت، 1983. ص 63.

³ عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، مقدمة في علم المصطلح، (عربي - فرنسي)، دار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 195.

⁴ عبد القادر الفاسي الفهري: معجم المصطلحات اللسانية، دار الكتاب الجديدة، المغرب، 1996، صص 132.47.

⁵ مبارك مبارك: معجم مصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1995، ص 223.

⁶ محمد علي الخولي، معجم علم الأصوات (أحادي اللغة)، الطبعة الأولى، الرياض، 1986، ص 113.

⁷ المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي- فرنسي- عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، 2002، ص 112.

المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

على مستوى الجدول نلاحظ اختلاف ترجمة المصطلحين الأجبيين الفرنسي والإنجليزي، فلا نقف على توافق بين معجمين في نقل المصطلح الأجنبي بمقابل عربي واحد، ففيما يتعلق بالمصطلح *phonétique* الدالّ على الاسم نحن بصدد خمسة مقابلات عربية مختلفة من حيث التكوين الشكلي، منها المفرد (صوتيات)، ومنها المركب تركيباً ثنائياً (علم الأصوات)، ومنها المركب تركيباً ثلاثياً (علم الأصوات اللغوية، علم الأصوات البحت)، وللحكم على المصطلح الأقرب للترجمة الصحيحة، يتطلب الأمر العودة أولاً إلى تركيبية المصطلح الأجنبي.

نلاحظ أنّ كلا المصطلحين الأجبيين (*phonétique /phonetics*) يتكونان من الصيغة التالية:

جذر + واسطة + لاحقة.

Phone + t + ics

Phone+ t + ique

الجذر: *phone*: من الجذر اللاتيني *phon* بمعنى *voix* أو *son*؛ أي الصوت¹.

اللاحقة: *ique*² أصل لاتيني *-icus* واليونانية القديمة *-ikos-ικός* بمعنى نسبي أو تقديري / متعلق³ بـ. تُستعمل اللاحقة *ique* في بناء الصفات والأسماء، أو للنسبة. وهي كثيرة الاستعمال في مجال الكيمياء. (لاحقة تدل على العلمية) *ique* = علم.

اللاحقة الإنجليزية: *ics*⁴: تحيل على الدلالة نفسها لللاحقة الفرنسية *ique* إذ ينحدران من أصل واحد.

الواسطة T: تضاف الوسائط للربط بين الجذر واللاحقة، إذا كان الجذر ينتهي بصائت (*voyelle*)

واللاحقة تبدأ بصائت تكون الوسطة صامتاً (*consonne*).

¹ «Phonè qui signifie son et voix, et qu'on retrouve dans (phon). L. Clèdat, *dictionnaire étymologie de la langue française*, 3^{ème} édition, librairie hachette, Paris, 1914, P 449. (phon).

² Du latin *-icus* (« relatif à, qui est propre à »). Du grec ancien *-ικός, -ikos* (« relatif à, qui est propre à ») importé en français via le latin, le latin scientifique ou directement du grec ancien dans la langue scientifique. <https://fr.wiktionary.org/wiki/-ique>.

³ <http://www.almaany.com/ar/dict/ar-fr/relatif/>.

⁴ *Ics* : adopted from L.G neut. Pl, *iku* of adjs in *ικός*, treats the ending as fem. Sing. (dynamique / tactique, etc), *mathématique*. Ernest Weekly: *Etymological dictionary of modern English*, London, 1921, P 746. (*ics*).

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

في ضوء تحليل المكونات الشكلية للمصطلحين الأجبيين والوقوف على دلالة كل منهما، يظهر أنه لا اختلاف بين المصطلح الفرنسي (*phonétique*) والمصطلح الإنجليزي (*phonetics*)، لا من حيث الشكل ولا من حيث الدلالة الأصلية، وعليه فإن إسناد اختلاف الترجمات العربية إلى تعدد واختلاف جهات النهل في هذا المقام باطل، ليبقى لنا النظر في التقنيات التي اعتمدت في الترجمة.

علم الأصوات اللغوية: ترجمة نخبة من اللغويين للمصطلح الإنجليزي

-	<i>Tique</i>	<i>Phone</i>
اللغوية	علم	الأصوات

نلاحظ أن المقابل العربي الأول مركّب إضافي¹، حيث قبلت اللاحقة *ics* الدالة على العلمية بعلم، و *phone* بالأصوات، مع إضافة محدّد آخر (اللغوية).

النواة	المحدّد الأول (المعرّف)	المحدّد الثاني
علم	الأصوات	اللغوية

والمحدّد الثاني (اللغوية) ليس محدّداً لنواة المصطلح وإنما محدد للمحدّد الأول في علاقة وصفية (موصوف + صفة)، أي إنّ نموذج² المقابل العربي (علم الأصوات اللغوية) جاء على الصيغة التالية:

$$(A + (B + C) / علم + (الأصوات + اللغوية))$$

اعتمد أصحاب معجم علم اللغة الحديث الترجمة المباشرة للمصطلح الأجنبي مع الإضافة،

¹ يتكون التركيب المصطلحي الإضافي من مصطلحين أو أكثر يكون أولهما مضافاً مرتبطاً بالثاني المضاف إليه بعلاقة هي علاقة الإضافة التي تنشأ من عرى التركيب وتقريبه من مفهوم الاسم المركب. انظر: حسني جواد سماعة: التركيب الاصطلاحي، طبيعته وأنماطه التطبيقية، مجلة اللسان العربي، ع 50، 2000، ص 45.

² المركبات الاصطلاحية المؤلفة من ثلاثة عناصر تخضع لنموذجين من التركيب هما: (A+B)+C / A+(B+C) بحيث يشكل العنصر المفرد في النموذجين نواة المصطلح. ينظر المرجع نفسه، ص 39.

.....المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

لأن المحدد (اللغوية) لا يظهر لا على مستوى المصطلح الإنجليزي ولا الفرنسي.
والترجمة المباشرة للمصطلحين هي:

الترجمة المباشرة	المصطلح الأجنبي
علم + الصوت	<i>Phone+t+ique/ phonétique</i>
	<i>Phone +t ics/phonetics</i>

إلا أنها في نظرنا خاطئة للأسباب الآتية:

مركب اصطلاحي عربي 1	←	مصطلح مركب أجنبي يقابله 1
(3 + 2) + (1)	←	(2 +)
(علم) + (الأصوات + اللغوية)	←	(Pone+ique)

وتكمن خطورة المركب الاصطلاحي العربي المعقد في كونه يبقى غير ثابت الدلالة إذا ما نظرنا إلى إمكان قبول عناصره الاستبدال مع عناصر أخرى على محور الاستبدال:

المحدد الثاني	المحدّد الأول	النواة
اللغوية	الأصوات	علم
المادي		
النطقي		
الفيزيائي		

وهذا ما نلاحظه في ترجمة محمد علي الخولي في معجمه علم الأصوات¹، إذ تم بالآلية نفسها مع إبدال المحدد الثاني (اللغوية) بمحدّد آخر (البحث):

← *Phonétique /phonetics* علم + الأصوات + البحث. وإذا كانت هذه هي ترجمة

¹ محمد علي الخولي: معجم علم الأصوات، ص 113.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

المصطلح المتضمن للكثير من الفروع فكيف ستكون ترجمتها (الفروع) هي الأخرى، هل نحافظ على هذه الترجمة ونضيف الفروع؟. إن هذا الأمر سيجعلنا أمام عبارات اصطلاحية لا ترقى إلى مصاف المصطلحات وإنما ستكون أقرب إلى شرح المصطلحات الأجنبية:

المصطلح الأجنبي	المقابل المفترض عند الخولي	المقابل المفترض في معجم علم اللغة الحديث
<i>Phonétique articuloire</i>	علم الأصوات البحت النطقي	علم الأصوات اللغوية النطقي أو النطقية
	علم الأصوات البحت الأكوستيكي	علم الأصوات اللغوية الأكوستيكي
	علم الأصوات البحت التجريبي	علم الأصوات اللغوية التجريبي
<i>Phonétique auditive</i>	علم الأصوات البحت السمعي	علم الأصوات اللغوية السمعي

وهذا ما يتنافى مع ما أقر حول اعتماد المصطلح المفرد. وفي ضوء ما تقدم نسجل الاعتراض والرفض للمقابلين العربيين (علم الأصوات اللغوية/علم الأصوات البحت) في ظل توفر مقابلات عربية أخرى أقرب للترجمة الصحيحة.

أما فيما يتعلق بالمفهوم، وبالرغم من غياب عنصر التعريف عن المعجم، فإننا نقف على مفهومه المقصود؛ وهو دراسة الصوت مفرداً (منعزلاً). وذلك بالاستناد إلى ترجمة مصطلح (*phonologie*) في المعجم نفسه، وهي دراسة النظام الصوتي¹.

صوتيات: ترجمة عبد السلام المسدي والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات

المصطلح الأجنبي		المقابل العربي	
<i>Phonétique</i>		صوتيات	
<i>Phone</i>	<i>Ique</i>	صوت	يات

¹ ينظر: معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، ص 68.

..... المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

مقابل مركب عربي	←	مصطلح مركب أجنبي يقابله
جذر + لاحقة	←	جذر + لاحقة

وهي ترجمة مباشرة بحيث حافظ المقابل المركب على ترتيب عناصر المصطلح المركب الأجنبي *Phone* = صوت / *ique* = يات.

وهذه الترجمة هي الأنسب من ضمن الترجمات الواردة في مدونة الدراسة لأن المصطلح عكس طبيعة المصطلح الأجنبي من جهة، ومن جهة أخرى صيغته المفردة (لفظة واحدة) التي تسمح بالتوسع دون الإخلال بالترجمة:

المقابل العربي	المصطلح الأجنبي
صوتيات نطقية	<i>Phonétique articulatoire</i>
صوتيات أكوستيكية	
صوتيات سمعية	<i>phonétique auditive</i>

وفيما يتعلق بالتعريف، وبالرغم من تأكيد المسدي أهميته في المعاجم المختصة في مقدمة قاموسه، فإنّ هذا الركن الأساسي قد سقط من مؤلفه، ممّا يجعل الوقوف على مفاهيم بعض المصطلحات أمراً عسيراً على المتلقي العربي، أو حتّى المختص ذاته فمصطلح *phonétique* في هذا القاموس لا ندري أيّ مفهوم يُحيل عليه، هل هو المفهوم الذي أقرّه سوسير باعتبار أنّ اللّغة المترجم منها هي الفرنسية؟ أو أنّ المسدي قصد به تلك الدّراسة الضيقة للصوت، والمتعلقة بطريقة نطقه وكيفية انتقاله وطريقة تلقيه، وحتّى بالعودة إلى ترجمة مصطلح *phonologie*¹ في القاموس نفسه، يزداد الأمر غموضاً نظراً لطبيعة ترجمة هذا الأخير (صوتية) ويظل مصطلح *phonétique* في هذا القاموس يتأرجح بين مفهومين:

– الدّراسة العامة للصوت، وفيها دراسة وظائف الأصوات.

¹ عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، ص 194.

- الدّراسة المادية للصوت؛ أي دراسة الصوت بمعزل عن التركيب.

ولكن إذا ما نظرنا إلى تاريخ إصدار هذا القاموس (1984)، والحقبة التي تحددت فيها دلالة المصطلحين الأجنبيين (*phonétique/phonetics*) وهي عشرينيات القرن الماضي، تسقط كل التخمينات السابقة، ويتأكد لنا أن مصطلح *phonétique* يحيل على الدراسة المفردة أو المادية للصوت عند المسدي.

أما المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيات، فيتجلى لنا مفهوم المصطلح لتوفر عنصر التعريف، إذ عرف على النحو التالي: «الصوتيات علم يدرس أصوات اللّغة في معزل عن السّياق ويهتم بالشق المادي لأصوات اللّغة البشرية»¹، وبالرغم من كون التعريف مقتضباً إذا ما قارناه بالمعجم اللّساني الأجنبي، فإنه يعطي صورة واضحة للمتلقى العربي عن كنه المصطلح لتوفر الخاصية الجوهرية للمفهوم، نحددها في ما يلي: دراسة الصوت بمعزل عن السياق + الشق المادي، فهذا النوع من الدّراسة يهتم بدراسة الصوت من حيث:

- كيفية نطقه.

- كيفية انتقاله.

- كيفية استقباله.

وفي معجم علم الأصوات عرّف المصطلح بأنّه: « علم يدرس الأصوات لمعرفة خواصها النطقية والفيزيائية؛ أيّ إنّهُ لا يهتم بتطور الأصوات تاريخياً أو وظيفياً أو إدراكها ويدعى أيضاً علم الأصوات الضيق »².

¹ المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيات، ص 112.

² محمد علي الخولي: معجم علم الأصوات، ص 113.

..... المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

الجدول 3: مصطلح *phonétique/ phonetics* في المعجم العربي والغربي.

المصطلح	<i>Dictionnaire de linguistique. J Dubois</i>	<i>dictionary of linguistics and Phonetics</i>	المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات
<i>Phonetics phonétique</i>	- قديماً كان مصطلح <i>phonétique</i> يحيل على فرع من فروع اللسانيات يدرس المكون الصوتي للغة، لكن مع تطور علم المصطلح في عشرينيات القرن الماضي أصبح المصطلح <i>phonétique</i> في مقابل المصطلح <i>phonologie</i> يحيل على الدراسة المادية للصوت دون التطرق إلى علاقته بالمعنى أو وظيفته في التركيب ¹ .	- العلم الذي يدرس خصائص صناعة الصوت البشري، خاصة تلك المستخدمة في الكلام، ويوفر الوسائل لوصفها وتصنيفها. ويتفرع إلى علم الأصوات النطقي وهو دراسة طريقة إنتاج الصوت من قبل الأجهزة الصوتية، وعلم الأصوات الأكوستيكي: دراسات الخصائص الفيزيائية لأصوات الكلام، وعلم الأصوات السمعي: دراسات الاستجابة الحسية لأصوات الكلام، بواسطة الأذن، وعلم الأصوات التجريبي (المخبري) الذي يعالج الصوت باستعمال الآلات، مثل أجهزة لقياس تدفق الهواء، أو التي تعرف موجات تحليل الصوت. ص 363.	- الصوتيات علم يدرس أصوات اللغة في معزل عن السياق، ويهتم بالشق المادي لأصوات اللغة البشرية. ص 112/رقم المصطلح 1188.

¹ ورد النص في اللغة الأصلية كما يلي: Traditionnellement, le terme de phonétique désigne la branche de la linguistique qui étudie la composante phonique du langage, par opposition aux autres domaines morphologie, syntaxe, lexicque et sémantique. dans la terminologie qui s'est développée à travers la linguistique contemporaine à partir des années 20, le terme phonétique désigne, en opposition à la phonologie, l'étude de la substance physique et physiologique de l'expression linguistique: « ce qui caractérise particulièrement la phonétique, c'est qu'en est tout à fait exclu tout rapport entre le complexe phonique étudié et sa signification linguistique... la phonétique peut donc être définie: la science de la face matérielle des sons du langage humain.

Mais la phonétique ne peut faire abstraction du caractère social du langage, de même que la phonologie ne peut faire abstraction de la connaissance des sons concertés de la parole aux différents niveaux de la chaîne parlée. **J. Dubois : dictionnaire de linguistique, P 361.**

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

وهذا التعريف ينطبق على المفهوم الذي استقر عليه مصطلح *phonétique*¹، إلا أن الخولي أسقط الجانب الثالث من هذا العلم، وهو جانب تلقي أو إدراك هذا الصوت، فهذا العلم أيضاً إلى جانب دراسة الصوت من حيث نطقه، وفيزيائية انتقاله، يتكفل أيضاً بدراسة الأعضاء المستقبلية لهذا الصوت وطريقة استقباله. وبهذا يظلّ هذا التعريف قاصراً في أحد جوانبه لأنه لم يشمل المفهوم العام للمصطلح الأجنبي.

علم الأصوات

ترجمة مبارك مبارك في معجم الألسنية، (ترجمة مباشرة):

المقابل العربي		المصطلح الأجنبي	
علم الأصوات		<i>Phonétique</i>	
الأصوات	علم	<i>Phone</i>	<i>Ique</i>

مركب اصطلاحي	←	مصطلح مركب
(مضاف + مضاف إليه)	←	(جنر + لاحقة)
مقابل عربي بصيغة الجمع	←	جنر بصيغة المفرد

بالرغم من توفر عنصر التعريف في هذا المعجم نجد أن مصطلح *phonétique* قد أُقصي وغاب عنه هذا الركن، وهذا يفسر أحد الأمرين: إما أن المصطلح سهل واضح لا يحتاج تعريفاً، أو العكس أي إن هذا المصطلح لا يزال في قيد الاستواء، ولذا يصعب تعريفه. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ترجمة *phonologie*² في هذا المعجم، يتضح لنا مقصد المؤلف من مصطلح

¹ ورد النص في اللغة الأصلية كما يلي: La science de la face matérielle :Phonétique peut être définie des sons du langage humain. **J. Dubois, dictionnaire de linguistique, P 361.**

² مبارك مبارك: معجم الألسنية، صص 224.

المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

phonétique وهو دراسة الصوت بمعزل عن السياق.

عموماً وبالرغم من الاختلاف الاصطلاحي في نقل وترجمة المصطلح الأجنبي *phonétique* في المعاجم اللسانية المدروسة، فإنها حافظت على المفهوم الشائع له (دراسة الصوت منعزلاً)، ومن حيث صيغة المصطلح، فجاءت مركبات اصطلاحية ما عدا معجماً أو اثنين اعتماداً مصطلحاً مفرداً (لفظة واحدة) هو مصطلح صوتيات، وهو الأنسب من وجهة نظر الباحث، ليظل علم الأصوات علماً رئيسياً دالاً على كل فروع الدراسة الصوتية. ولدقته أيضاً.

وإلى جانب الترجمات الواردة في هذه المعاجم لمصطلح *phonétique* نُلفي في المؤلفات العربية التي اشتغلت على الدرس الصوتي ترجمات أخرى تضاف إلى هذا التعدد نجمها في:

الفوناتيک

أولى المقابلات العربية الموضوعية أمام المصطلح الأجنبي *phonétique* عن طريق تقنية التعريب، من استعمالات كمال بشر، وقد علّل صاحبه سبب تعريبه مخافة اللبس بينه وبين علم الأصوات الذي يعني دراسة الأصوات بعامة بقوله: «أينما أن نعرب المصطلح *phonétique* إلى فوناتيک لا أن نترجمه، لأنّ ترجمته إلى علم الأصوات - في سياق المقابلة بينه وبين الفونولوجيا قد تؤدي إلى اللبس، فقد يؤخذ على أنّ المقصود به دراسة الصوت بعامة، دون تفريق بين جوانب هذه الأصوات»¹، كما رفض كمال بشر ترجمته لعلم الأصوات العام² لتتناسب الأخير مع المصطلح مع المصطلح *phonétique générale*³ والذي غالباً ما يحيل على دراسة الصوت عامة دون اقتصره على أصوات لغة بعينها⁴، وبهذا يتبنى كمال بشر هذا المصطلح بالمفهوم الضيق الذي سبق الإشارة إليه في أكثر من موضع من هذا البحث.

¹ كمال بشر: الأصوات اللغوية، ص 66.

² المرجع نفسه، ص 66.

³ *La phonétique générale étudie l'ensemble des possibilités phoniques de l'homme à travers toutes les langues naturelles. J. Dubois, dictionnaire de linguistique, P 361*

⁴ المرجع نفسه، ص 66.

مصطلح فونتكس

هذا من استعمالات، أحمد عمر مختار والظاهر أنّه نقل صوتي (*Transcription*) للمصطلح الأجنبي *phonetics* وظّفه للدلالة على دراسة الصوت دون النظر في وظائفها اللغوية أو حتى معرفة اللّغة التي تنتمي إليها. وعلّة التعريب هنا ضبابية المفهوم من جهة، ومن جهة أخرى غياب الاتفاق على مقابلاتها العربية بين اللّسانيين العرب¹.

خاتمة

إنّ عدم التحكم في آليات التوليد الاصطلاحي للغة العربية (اشتقاق، مجاز، نحت، تعريب) هو السبب وراء التعدد الاصطلاحي الذي بات علامة مسجلة في الدرس اللساني العربي.

من خلال تحليل الكثير من العينات (المقابلات العربية) يظهر أن أغلب المعاجم طُبِعَ عليها التسرع في وضع المصطلح دون العودة واستقراء مكونات المصطلح الأجنبي. من ذلك الإسراف في اعتماد آلية التعريب، وهذا ما انجرّ عنه مصطلحات غريبة، غير مستساغة، غامضة في أغلب الأحيان لغياب الشرح والتعريف عنها.

التخلي عن تعريف مصطلح العلم بالرغم من أهميته: وهذا ما شهدناه في تضاعف هذا البحث، والأمر يختص بالمعاجم أو القواميس التي أوردت جانب التعريف.

وفيما يتعلق بالمصطلح الصوتي عموماً، يمكن القول إنه بالإمكان التأسيس لعلم أصوات عربي، عوض أن ننساق وراء ترجمات مختلفة متضاربة، فللترجمة أهميتها في تقريب المعرفة بشرط أن تكون دلالية توصيلية مبنية على استراتيجيات وتقنيات عملية تحكمها توجيهات عملية عن النقل عن الآخر من أجل خدمة الذات. وينسب الباحث غموض المصطلح الصوتي العربي المترجم ليس إلى اللغة العربية وإنما إلى كفاءة المترجم وضعف المشروع الاصطلاحي المؤسساتي العربي. بلغة أبسط على الباحثين والمختصين أن يشرعوا في استعمالهم للمصطلحات

¹ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، صص 68-69.

..... المصطلح والمفهوم: في الثقافة اللسانية

الصوتية التراثية العربية إن كانت تقي بالغرض الاصطلاحي والمفاهيمي وترك آليات الترجمة الحرفية والتكافؤ والتكيف والترجمة الشارحة والتطيف والتصريح حين توجد خانات اصطلاحية فارغة في الدرس المصطلحي الصوتي التراثي، وإلا فسيكون عملهم من باب الوقوع في سجن الدرس الصوتي الغربي، وتتاسي تلك المعارف الصوتية التراثية والشبكة الاصطلاحية التي خلفتها. فلا أحد يجهض مشروعه الاصطلاحي من أجل بناء مشاريع الآخرين.

أدعو في ختام الدراسة إلى تدعيم البحث الاصطلاحي في مجال علوم الصوت والتركيز على البحوث التطبيقية التي يشكل فيها حضوراً مفاهيمياً في شكل مشروع بحث عربي أكاديمي موحد.

المصطلح النحوي في كتاب سيبويه بين الاستعمال والإهمال

نماذج من "الكتاب"

د. كمال رقيق

جامعة طاهري محمد بشار

كلية الآداب واللغة – الجزائر

الحديث عن المصطلحات النحوية في "الكتاب" يعني الحديث عن النحو الفعلي والحقيقي الذي بين أيدينا اليوم، واضعين في الاعتبار مجهودات أبي "الأسود الدؤلي" وتلاميذه في إرساء اللبّات الأولى التي سلمت فجة إلى "ابن أبي إسحاق"، و"عيسى بن عمر"، و"أبي عمر بن العلاء"، فمدّوا القياس وتقدّموا بالدّرس النحوي واللّغوي خطوات كبيرة، فشهد على أيديهم تطوراً عظيماً بذكر مسائله وبعض أبوابه وفروعه، حتى أصبح فيهم من غلبت شهرة النحو عليه، وارتفع صرح النحو مقترباً من الانتهاء والاستقرار على يد "الخليل بن أحمد" (160-175هـ) الذي نهج مسالك جديدة في علم العربية بما أوتي من ذكاء خارق، ومن بعده سيبويه في الكتاب الذي يعدّ أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربي كافة، وما كان للمتأخرين من فضل سوى تحديد مقاصده، وتبيين حدوده، فإنهم لم يكادوا يضيفون إليه شيئاً ذا بال من الملاحظات الهامة والأنظار الجديدة. وهو كتاب لا يحتاج من فهمه إلى غيره كما قال بذلك المبرّد¹، بل إنّ "المازني" لما قرأه واطلع على كنوزه أيقن أنه أحاط بالنحو العربي إحاطة السوار بالمعصم فقال: "من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي"²، وقد استحي النحاة من أنفسهم واستخذوا فاستكانوا

¹ البغدادي، خزائن الأدب ولب لباب العرب، ط 1، بيروت، ج 1، ص 179.

² ينظر: الزبيدي، طبقات النحويين، ص 50، والفهرست، ص 2، نزهة الألباء، ص 63.

إلى ما خلفه سيبويه دون تطوير إلا أن يكون تفسيراً وشرحاً لمبهمه، واختصاراً لبعض مسائله أو وضع حدود لمصطلحاته أو ترتيباً لأبوابه وقواعده وصياغة لمصطلحات سكت عن التمثيل لها¹، قانعين به إماماً في النحو بالرغم من تطور ألفاظ اللّغة وتراكيبها، ولكن عظمة الكتاب والهالة التي أحيط بها والشهرة التي كان يتمتع بها صاحبه في حياته وبعد مماته هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن استكانة هؤلاء العلماء وقناعتهم بما خلفه لهم إمام النحو.

والنحو في الكتاب يمثل أول خطوة صحيحة في دراسة اللّغة باعتباره علماً يقوم على قواعد وأصول معينة، مستضيئاً بمناهج القياس والاستقراء دون الوقوف عند المفهوم الجزئي المحدود لبعض مسائل النحو. هذا ما يؤكده الدكتور عبد الجليل مرتاض في قوله "ومما لا شك فيه أن مصطلح النحو وما نسب إليه انضوى تحته من أبواب لسانية شتى كان قد شاع في عهد سيبويه شيوعاً عادياً لأنه كان كثيراً ما يرد في كتابه تراكيب وجمل دالة على شيوخ النحو"²، مثلما كان الحال عليه عند السابقين، كما لم يقف عند حد الكلمة ليعرف إعرابها وبناءها فحسب كما آل إليه النحو عند المتأخرين، وإنما تناول سيبويه في الكتاب بنية الكلمة واشتقاقها وحركتها مفردة مركبة، دون إغفال الدلالة المعنوية لها في جميع أحوالها في ضوء القياس على لغة العرب الموثوق بهم³.

المصطلح النحوي عند سيبويه

إنّ الحديث عن المصطلح النحوي عند سيبويه يعني الحديث عن مصطلحات علوم العربية التي ضمها، والتي لم تستقر في بعض الأحيان، والملاحظ أنّ سيبويه بذل جهداً لا يقدره إلا من تعرض بالنظرة الفاحصة لكتابه، إذ حشد فيه مادة النحو الأولى في منهج وصفي وطريقة عرض

¹ عوض محمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث هجري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 82.

² مرتاض عبد الجليل، في رحاب اللغة العربية، ص 11.

³ عوض محمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث هجري، ص 84.

..... المصطلح النحوي في كتاب سيبويه بين الاستعمال والإهمال

هداه إليها طبعه وفطرته التي جبل عليهما.

وسوف نحاول أن نتطرق إلى أشهر المصطلحات النحوية التي استقرت ونضجت عند سيبويه في الكتاب والتي شكلت المادة المصطلحاتية الخام لعلم النحو عند العرب.

1. النَّحْو:

علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما¹ وهو في أصل منبته يعني القصدَ والطريقَ² قال "ابن السكيت": نَحَا نَحْوَهُ إِذَا قَصَدَهُ، وَمِنْ مَنْطَلِقِ التَّشَابُهِ بَيْنِ الْمَعْنِيِّينَ لِلْغَوِيِّ وَالْإِصْطِلَاحِيِّ الَّذِي يَتِمُّ بِالْقَصْدِ كَانَ الْمَسْوُوعُ لِاسْتِعَارَةِ هَذَا اللَّفْظِ الَّذِي يَرْجَحُ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ مِنْ أَنَّهُ وَضَعَ وَجْهَ الْعَرَبِيَّةِ وَقَالَ لِلنَّاسِ انْحُ نَحْوَهُ فَسُمِيَ نَحْوًا³.

2. الإعراب:

هو أحد الاصطلاحات التي كانت شائعة في القرن الأول للهجرة فقد ذكر "السيوطي" رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استعمل كلمة الإعراب بمعنى النحو عندما قال: "وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب"، أي فليعلمهم انتحاء سبيل العرب في الكلام والإبانة. قال مالك بن أنس: "الإعراب حلي اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها"، وقال عمر رضي الله عنه أيضاً: "تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه"⁴ ويتضح لنا من هذا أن عمر كان يعني بالإعراب هو طريقة الإبانة في الإعراب عن الحاجة وهو تغيير أواخر الكلم وأفرد فيه سيبويه باباً عنونه بـ:

¹ الجرجاني، التعريفات، ص 259، مادة (نحو).

² ابن منظور، لسان العرب، ج 15، ص 309-311 مادة (نحا).

³ المصدر نفسه، ج 15 ص 310، مادة (نحا).

⁴ ابن الأثير، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق، محي الدين رمضان، دمشق، 1971، ج1،

باب مجاري أواخر الكلم من العربية¹، وهو ما يقابل مصطلح الإعراب عند المتأخرين.

3. الكلم:

فهو ما تكونت منه العربية، اسم وفعل وحرف، حيث أفرد سيبويه باباً في الكتاب تحت عنوان: "هذا باب علم ما الكلم من العربية"، والكلم اسم جنس جامع وهو اسم للذات كما وضحه سيبويه بقوله: "الكلم: اسم وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجل وفرس وحائط، أما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع وما هو كائن ولم ينقطع... وأما ما جاء بمعنى وليس باسم ولا فعل نحو: ثم وسوف وواو القسم ولام الإضافة ونحوها"².

4. النصب:

ويعد أول المصطلحات اللغوية الناصجة عند علماء النحو، ونستأنس بهذه القصة عن يحيى ابن يعمر لما بين للحجاج مواطن لحنه في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)³، قائلاً: "أترفع (أحب) وهو منصوب، وقال له: فتقرؤها أحب بالرفع، والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان"⁴، وفي رواية القفطي يقول يحيى ابن يعمر للحجاج: "أما إذا سألتني أيها الأمير فإنك ترفع ما يوضع، وتضع ما يرفع"⁵. ومصطلح النصب موجود عند سيبويه حيث

¹ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 13.

² المصدر السابق، ج 1، ص 20.

³ سورة التوبة، الآية 24.

⁴ الزبيدي، طبقات النحويين، ص 24.

⁵ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 227.

يقول: "فالتَّصِبُ والفتح في اللَّفْظِ ضَرْبٌ واحدٌ"¹.

5. الجرّ:

فَعن الجر يقول سيبويه: "ومن الصفة قولك ما يحسن بالرجل مثلكَ أن يفعل كذا وما يحسن بالرجل خيرٍ منك أن يفعل كذا، وزعم الخليل أنه إنما جُرَّ هذا على نية الألف واللام ولكنه موضع لا تدخله الألف واللام"²، وقوله أيضاً: "والجر والكسر فيه ضرب واحد..."³. فهذا المصطلح ناضج عند صاحب الكتاب ودقيق كما أقره الدرس اللغوي الحديث فالجر يقابله الكسر عنده.

6. الرّفع:

وهو ما وقع في أعجاز الكلم منوناً نحو قولك زيدٌ، ويُفرّق بينه وبين الضّم لا من حيث الاختصاص بالبناء أو الإعراب حيث يقول: "الرفع والضم ضرب واحد"⁴، فهذا يدل على أن سيبويه ركز على حركات أواخر الكلم من حيث الإعراب والبناء موحداً بين الأسماء والأفعال في ألقاب الحركات اكتفاء بما تتضح به المعاني في الإعراب فمصطلح الرّفع يقابله الضم عند سيبويه فالرّفع للبناء والضمٌ للإعراب.

7. الجزم:

علامة من علامات الإعراب تخصّ الوقف، كما في لم يخرُجْ، وهو: انقطاع الحركة. الجزمُ القطع، جَزَمْتُ الشيءَ أَجْزَمُهُ جَزْماً قطعته وجَزَمْتُ اليمينَ جَزْماً أمضيتها وحلف يميناً حَتْماً جَزْماً وكل أمر قطعته قطعاً لا عَوْدَةَ فيه فقد جَزَمْتَهُ، وجَزَمْتُ ما بيني وبينه أي قطعته ومنه جَزْمُ الحَرْفِ وهو في الإعراب كالكسوف في البناء تقول جَزَمْتُ الحرف فأنجزم. الليث: الجزمُ عَزِيمةٌ

¹ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 13.

² المصدر السابق، ج 1، ص 224.

³ المصدر نفسه، ج 1، ص 13.

⁴ ينظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 13.

في النحو في الفعل فالحرفُ المَجْزُومُ آخرُهُ لا إعراب له، ومن القراءة أَنْ تَجْزِمَ الكلامَ جَزْماً بوضع الحروف مواضعها في بيانٍ ومَهَلٍ¹، وهو عند سيبويه مع الوقف ضرب واحد².

8. الاشتغال:

هذا المصطلح لم يصرِّح به سيبويه مع أنه هو الذي مهد لظهور هذا المصطلح بتوجيهه لبعض القراءات، ولكنه وصفه وصوره حتى إن المتأمل في الكتاب لا يشك أنه سيصرِّح به فهو يقول مثلاً: "هذا باب ما يكون فيه الاسم مبنياً على الفعل قدم أو آخر وما يكون فيه الفعل مبنياً على الاسم"³، من هذا العنوان ندرك أن سيبويه يدير الكلام على الإسناد ولكنه يريد نوعاً معيناً منه، ولكي يصل إلى ما يريد قدم للوصف بما هو معلوم من أمر الإسناد نحو "ضرب زيد عمرا" فزيد هنا مسند إليه وهو أول ما شغل به الفعل، ولكن إذا اختلف الإسناد أو كما يقول سيبويه: "بنيت الفعل على الاسم وقلت مثلاً "زيد ضربته" ورفعت زيد بالابتداء موازناً ذلك بقوله عزَّ وجل (وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ)⁴، وإنما حسن أن يبني الفعل على الاسم حيث كان معملاً في المضمر وشغلته به ولو ذلك لم يحسن لأنك لم تشغله بشيء"⁵.

9. التقريب:

إن معرفة أصالة هذا المصطلح عند سيبويه يقتضي معرفتنا بمذهب الكوفيين في إعراب الاسم المنصوب بعد كان وأخواتها وأن يكون النصب على الحال أو شبه الحال. وما دامت أسماء الإشارة تعمل عمل كان عندهم فالإعراب إذن لا يختلف، فسيبويه يقول في التقريب: "وإنما

¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (جزم).

² ينظر: سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 13.

³ المصدر نفسه، ج 1، ص 80، وينظر: شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ج 1، ص 171.

⁴ سورة فصلت، الآية 17.

⁵ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 81.

..... المصطلح النحوي في كتاب سيبويه بين الاستعمال والإهمال

صار المبهم بمنزلة المضاف لأن المبهم يقرب به شيء أو تباعده وتشير إليه¹، وهذا ما يؤكد السيرافي في شرحه للكتاب بقوله: "والمبهم مفارق للعلم لأن المبهم لفظ يوجب التقريب ولفظ يوجب التباعد نحو ذلك وتلك وأولئك"².

10. الإضمار:

هو نية الشيء وتصور وجوده، وهو التقدير أيضاً وكثيراً ما يستعمل في المواطن التي يقع فيها الحذف أو التي تحتاج فيها الكلمات إلى ما يكمل معانيها³، وقد مثل سيبويه على هذه المعادلة بين الألفاظ والمعاني بقوله شارحاً ما يضمُرُ فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي في كلام العرب، قال: "إذا سمعت وَقَعَ السَّهْمُ فِي الْقِرْطَاسِ قلت: الْقِرْطَاسَ وَاللَّهِ أَي أَصَاب الْقِرْطَاسَ"⁴، ومن ذلك قوله تعالى (بَلْ مِثْلَهُ إِبرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)⁵.

11. المبني:

هو ثبوت الشيء على صورة واحدة، وهو لزوم آخر الكلمة حركة أو سكوناً. والبناء فرع في الأسماء أصل في الأفعال والحروف⁶، وهو في أصل وضعه يدلّ على البناء الذي يلزم موضعاً لا يزول من مكان إلى غيره وليس كذلك سائر الآلات المنقولة كالخيمة والمظلة... وقد نقل اللفظ إلى الاصطلاح تشبيهاً بالبناء لثباته، وقد أدرك ابن منظور هذه العلاقة، قال: "وكانهم إنما سموه بناء لأنه لما لزم ضرباً واحداً فلم يتغير تغير الإعراب سمي بناء من حيث كان البناء لازماً

¹ المصدر السابق، ج 1، ص 12.

² السيرافي، شرح الكتاب، ج 2، ص 19.

³ محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، بيروت وعمان،

ط 3، 1988 م، ص 182.

⁴ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 257.

⁵ سورة البقرة، الآية 135.

⁶ ابن الدهان، كتاب الفصول في العربية، تحقيق د. فائز فارس، دار الأمل ومؤسسة الرسالة، إربد وبيروت، ط 1،

1988م، ص 3.

موضِعاً لا يزول"¹، أما البناء عند سيبويه فهو عدم التمكن وهذا من خلال قول سيبويه: "وأما الفتح والكسر والضم والوقف فلأسماء غير المتمكنة"² فهذا المصطلح قد استقرّ على يد سيبويه من خلال حديثه عن مجاري أواخر الكلم في الباب الأول من الكتاب.

12. الصريح:

وهو وصف يقابل المؤول، ومثله: "اننتي بعدما تفرغ، فما وتفرغ بمنزلة الفراغ، وتفرغ صلة وهي مبتدأه وهي بمنزلتها في الذي إذا قلت بعد الذي تفرغ"³، ولما ظهر الكلام بعد هذا التأويل، سمي صريحاً، كأنه استمدّ معناه من قولهم: اللبّن الصريح الذي انحسرت عنه رغوته⁴ وبناء عليه قالوا: صرّحت الخمر إذا ذهب عنها الرّيد، قال الأعشى: (من المتقارب):

كُمَيْتٌ تَكشِفُ عَنْ حُمْرَةِ إِذَا صرّحتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا⁵

فمصطلح الصريح عند سيبويه بمعنى المؤول، والإظهار بعد الكلام.

13. المضارع:

نوع من الأفعال دخلته الزوائد الأربع، نحو أَفْعَلُ، نَفْعَلُ، تَفْعَلُ، يَفْعَلُ وهو يصلح للحال والاستقبال. تقول يَفْعَلُ وهو في الفعل، ويفعل غداً⁶، وهذا النوع من الأفعال معرب، ولذلك أطلقوا عليه اسم "المضارع" لمضارعه الأسماء أي مشابهته إياها، ومعنى المضارع المشابه يقال

¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (بني).

² سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 15.

³ المصدر نفسه، ج 3، ص 11.

⁴ ابن دريد، جمهرة اللغة، ج 2، ص 135، مادة (ح ر ص).

⁵ ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، لا، تا، ص 59، وفيه " كميّتا " بدل " كميّت "، وينظر: ابن فارس: مقاييس

اللغة، ج 3 ص 347، مادة (صرح).

⁶ عبد القاهر الجرجاني، الجمل في النحو، تحقيق يسري عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، 1990م، ص

..... المصطلح النحوي في كتاب سيبويه بين الاستعمال والإهمال

ضارعه وشابته وشاكلته وحاكته إذا صرت مثله¹، وهو عند سيبويه بمصطلح "ما يكون ولم يقع وكائن لم ينقطع" حيث يقول: "وأما بناء ما لم يقع كقولك آمراً: اذهب واقتل واضرب ومخبراً: يذهب ويضرب وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت"².

14. المضعف:

والتضعيف أن يكون آخر الفعل حرفين من موضع واحد، وقد أفرد له سيبويه باباً سماه "باب مضاعف الفعل واختلاف العرب فيه"، ومثل له في قوله: رَدَدْتُ وَوَدِدْتُ وَاجْتَرَزْتُ وَانْقَدَدْتُ وَاسْتَعَدَدْتُ وَضَارَزْتُ... وإطمأننت³، وفيه تكرر حرف من أصول الكلمة والأصل في اللفظ مأخوذ من قولهم: الدَّرْعُ المَضَاعِفَةُ الَّتِي تُسَجَّتْ حَلَقَتَيْنِ حَلَقَتَيْنِ⁴، نحو قوله تعالى (فَأُولَئِكَ هُمُ المَضْعِفُونَ)⁵.

15. الماضي:

هو لقب للفعل الذي يدل على حدث مضى وانتهى، جاء في الكتاب: "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ الأسماء، وبُنيت لِما مضى، فأما بناء ما مضى فذهبَ وَسَمِعَ وَمَكَّتْ وَحَمِدَ...⁶، ودلالة الماضي تحمل في طياتها النفاذ والمرور، يشبهها في دلالاتها ما عرفوه من استعمالهم في السيف، قالوا: "مضى السيف في الضريبة، وله مضاء وأمضى من السيف...⁷ وهذا الاستعمال كان هادياً في اختيارهم لمصطلح الماضي.

¹ ابن يعيش، شرح المفصل، ج 7 ص 6.

² سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 12.

³ المصدر نفسه، ج 3 ص 529-530.

⁴ الزمخشري، أساس البلاغة، شرح محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص 503، مادة (ضعف).

⁵ سورة الروم، الآية 39.

⁶ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 12.

⁷ الزمخشري، أساس البلاغة، ص 802، مادة (مضي).

16. أفعال المدح والذم:

لم يشر سيبويه إلى أفعال المدح والذم "نعم وبئس" مباشرة فعقد لها باباً موسوماً ب: "باب ما لا يعمل من المعروف إلاّ مضماً" ولكنه استطاع بالطريقة الوصفية التي اتبعها أن يبين أن المقصود هو "نعم وبئس" حتى إذا جاء إلى معمولهما قال: "وما انتصب في هذا الباب فإنه ينتصب كانتصاب ما انتصب في باب حسبك به وذلك قولهم نَعَمْ رجلاً عبد الله كأنك قلت حسبك به رجلاً عبد الله"¹.

17. أسماء الإشارة:

وحَدّد سيبويه مصطلح اسم الإشارة حينما كان يتكلم عن المعارف في باب مجرى نعت المعرفة عليها حيث قال: "ومنها الأسماء المبهمة"، ثم رجع ليفصل ويشرح ذلك بقوله: "وأما الأسماء المبهمة فنحو هذا وهذه، وهذان وهاتان، وهؤلاء وذلك وتلك وذانك وتأنك وأولئك وما أشبه ذلك وإنما صارت معرفة لأنها صارت أسماء إشارة إلى شيء دون سائر أمته"².

18. المفعول لأجله:

وسماه باب قال عنه مرة: "هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه عذر"، ويعد أن وضح ما يريد الوصول إليه في الباب بالأمثلة والشواهد اهتدى إلى القول: "وفعلت ذاك أجل كذا وكذا، فهذا كله ينتصب لأنه مفعول له، كأنه قيل: لم فعلت كذا وكذا؟ فقال: لكذا، ولكنه لما طرح اللام عمل فيه ما قبله"³.

19. الحشو:

فهذا المصطلح استعمله سيبويه للدلالة على ما يدخل ولا يكون له أثر في اللفظ ولا في

¹ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 200.

² المصدر نفسه، ج 1، ص 220.

³ المصدر نفسه، ج 1، ص 185-186.

..... المصطلح النحوي في كتاب سيبويه بين الاستعمال والإهمال

المعنى، أي إنه لا يزيد معنى على الكلام ولا يغير من إعرابه، فيقول: "... لا يجوز أن تفصل بينها وبين الفعل بحشو كما لا يجوز لك أن تفصل بين الجار والمجرور بحشو إلا في الشعر".¹ وهو أيضاً عنده بمعنى صلة الموصول.

20. التوكيد:

وهو عند صاحب اللسان بمعنى: أكد العهد والعقد لغة في وكَّده وقيل هو بدل والتأكيد لغة في التوكيد وقد أكدت الشيء ووكدته. ابن الأعرابي: دستُ الحنطة ودرستها وأكدتها، هو تابع يُذكر تقريراً لمتبوعه لرفع احتمال التَّجَوُّزِ أو السَّهْوِ، وهو قِسْمَان: توكيدٌ لفظيٌّ وتوكيدٌ معنوي، ويسميه سيبويه تخصيصاً وصفة، وجعل ضمير الفصل من التوكيد والتوكيد منه، ويسمى التوكيد بدلاً كما يسميه بالتكرير². واستعمل سيبويه عدّة مصطلحات للدلالة عليه منها: التثنية، والتثبیت والتسجية والتوكيد العام³، وكلها تؤدي معنى التوكيد أو ما يناظره.

21. الظرف:

قسمه سيبويه إلى متمكّن وغير متمكّن، وسماه غاية وسمى ظروف الزّمان بظروف الظهر والحين كما سمى ظروف المكان بالمواضع تارة، وتارة أخرى أسماء الأماكن والأرضين⁴، حيث يقول محمد عوض القوزي معلقاً: "هذا المصطلح واسع الرحاب اختاره البصريون لمتابعة سيبويه في اصطلاحاته الظرف والغاية، ثم الدهر أو الحين أو الموضع"⁵. فالظرف ورد عند صاحب الكتاب بمعنى الغاية.

¹ المصدر السابق، ج 3، ص 111.

² المصدر نفسه، ج 1، ص 306-315، وينظر: عوض القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره، ص 140.

³ رضا مجيد صالح، التوكيد في كتاب سيبويه، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 1998م، ص 61.

⁴ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 207-208-116، وج 2، ص 44-247-311.

⁵ ينظر: محمد عوض القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره، ص 140.

22. العلم:

اسم موضع لمعين من غير احتياج لقريئة مثل: خالد، دمشق، الجاحظ أبو بكر، أم حبيبة،¹ ويسميه سيبويه العلامة اللازمة كما يطلق عليه اصطلاح العلم الخاص.

23. الفاعل:

هو اسم (صريح ظاهر، أو مضمّر بارز أو مستتر)، أو مَا فِي تَأْوِيلِهِ، أُسْنِدَ إِلَيْهِ فِعْلٌ تَامٌ (متصرف أو جامد)، أو ما في تَأْوِيلِهِ، مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ (ليخرج نحو "محمد قام")، أَصْلِيّ الْمَحَلِّ (ليخرج "فاهم علي" فإن المسند وهو فاهم أصله التأخير)، والصيغة (ليخرج الفعل المبني للمجهول).

فالاسم نحو "تَبَارَكَ اللَّهُ" و"تَبَارَكَتْ يَا اللَّهُ" ومثله "أَقُومُ" و"قُمُ" إِلَّا أَنَّ الْأِسْمَ ضَمِيرٌ مُسْتَتَرٌ، وَالْمَوْوَلُ بِهِ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا)،² أَيْ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنْزَلْنَا، وَقَوْلُهُ أَيْضاً (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)،³ أَيْ أَلَمْ يَأْنِ خُشُوعُ قُلُوبِهِمْ وَالْفِعْلُ كَمَا مُتَّلً، وَلَا فَرَقَ بَيْنَ الْمُتَصَرِّفِ وَالْجَامِدِ كِ "أَتَى" زَيْدٌ وَ"تَعَمَّ الْفَتَى" وَالْمَوْوَلُ بِالْفِعْلِ، وَهُوَ مَا يَعْمَلُ عَمَلَهُ وَيَشْمَلُ اسْمَ الْفَاعِلِ، نَحْوُ "مُخْتَلَفٌ الْوَأْنَهُ"، وَالصِّفَةُ الْمَشْبَهَةُ نَحْوُ "زَيْدٌ حَسَنٌ وَجْهُهُ" وَهَذَا الْمَصْدَرُ وَاسْمُ الْفِعْلِ وَالظَّرْفُ وَشِبْهُهُ وَاسْمُ التَّقْضِيلِ، وَأَمْتِلَةُ الْمُبَالَغَةِ، وَاسْمُ الْمَصْدَرِ كُلُّ هَؤُلَاءِ، مُحْتَاجٌ إِلَى فَاعِلٍ.

24. نائب الفاعل:

هو اسمٌ تَقَدَّمَهُ فِعْلٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ أَوْ شِبْهُهُ (وهو اسم المفعول والاسم المنسوب) وحلَّ محلَّ الْفَاعِلِ بَعْدَ حَذْفِهِ نَحْوُ "أَكْرِمَ الرَّجُلُ الْمَحْمُودُ فِعْلُهُ"، وَيَسْمِيهِ سَيْبُويهِ الْمَفْعُولُ الَّذِي لَمْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ فِعْلٌ فَاعِلٌ، وَمَعْ أَنَّهُ أَشَارَ إِلَى فِعْلِهِ بِالْبِنَاءِ عَلَى الْمَجْهُولِ فَإِنَّهُ لَمْ يُسَمَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ بغيرِ الْمَفْعُولِ

¹ سعيد الأفغاني، الموجز في قواعد اللغة العربية، دار الفكر 1971، ص 9.

² سورة العنكبوت، الآية 51.

³ سورة الحديد، الآية 16.

وما هو في الحقيقة إلا مفعول¹.

25. المفعول له:

استعمل سيبويه عدّة مصطلحات للتعبير عن هذا الباب النحوي منها: "المفعول له و لأجله ، الموقوع له، والعدر، والتفسير، مصدر جواب لـمه"².

"... فإنما سُمّي المفعول له، أو لأجله، أو الموقوع له، بهذه التسمية؛ لأنّ الفعل يقع في مفعوله على غير جهة، إذ يقع: عليه، وبه، ولأجله، ومعه، وفيه، ومثال الجميع كقولك: من فعل هذا الفعل بهذا المفعول لأجل فلان مع محمد في هذا الوقت وفي هذا الموضع، وقد يكون بعض هذه المفعولات غير لازم في الكلام، إلاّ المفعول له إذ لا بد لكل فعل من مفعول له سواء ذكرته أو لم تذكره"³... وبهذا يُعلم أنّ المفعول له إنما سمي كذلك؛ لأنه أبان عن علّة وقوع الفعل.

26. المقصور:

هو كل اسم معرب منتهٍ بألف لازمة مثل: الفتى والمستشفى⁴، ويصطلح عليه سيبويه المنقوص، ويكثر من تسمية المقصور منقوصاً وهو في نظره كل اسم آخره ياء تلي حرفاً مكسوراً، فالمقصور يقابله المنقوص بلغة سيبويه.

27. المضاف والمضاف إليه:

هو ضمُّ كلمةٍ إلى أُخرى بتثنيْلِ الثانية منزلةً التثوين من الأولى، والقصدُ منها: تعريفُ السَّابِقِ بالألحِقِ، أو تَخْصِيصُهُ به، أو تخفيفه نحو "كتابُ الأستاذ" و"ضوءُ شَمْعَةٍ" و"هو مُدَرِّسُ الدَّرْسِ"، أي الدرس المعهود، وأصلُّها: هو مُدَرِّسُ الدَّرْسِ، وسماه سيبويه بالجار والمجرور كما يطلق

¹ سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 19-20، وينظر: محمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره، ص 143.

² المصدر نفسه، ج 1، ص 369-367-390.

³ صباح عبد الهادي، المصطلح النحوي في كتاب سيبويه - دراسة تحليلية - كلية التربية، الجامعة المستنصرية 2002/العراق، ص 214.

⁴ سعيد الأفغاني، الموجز في قواعد اللغة العربية، ص 116.

الإضافة بمعنى النسبة حيث يقول: "هذا باب الإضافة وهو باب النسبة واعلم أنك إذا أضفت رجلاً إلى رجل فجعلته من آل ذلك الرجل ألحقت بإء الإضافة فإن أضفته إلى بلد فجعلته على من أهله ألحقت بإء الإضافة وكذلك أضفت سائر الأسماء إلى البلاد أو إلى حي أو قبيلة"¹.

28. الشبيه بالمضاف:

ويسميه سيبويه بالممطول وهو هنا لا يتكلف في العبارة ولا يحاول تعقيد الألفاظ وإنما يريد اللفظ ليحقق به الغرض الدلالي والفني عن طريق المعنى اللغوي، فاصطلاح الممطول هنا يقصد به سيبويه الضارب في الطول تشبيهاً بمدّ المطال فترة سداد الدين، وسيبويه يشبه إشباع الحركات وما يترتب عليه من نتيجة بالشبيه بالمضاف وسمي ذلك مطلاً وسمي حرف المد ممطولاً².

29. التحذير:

هُوَ تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ عَلَى أَمْرٍ مَكْرُوهٍ لِيَجْتَنِبَهُ وَهُوَ قِسْمَانِ:

- ما يَكُونُ بِلَفْظِ "إِيَّاكَ" وَفُرُوعِهِ وَهَذَا عَامِلُهُ مَحْذُوفٌ وَجُوباً سِوَاءَ أَكَّانَ مَعْطُوفاً عَلَيْهِ أَمْ مَوْصُولاً بِـ "مِنْ" أَوْ مُتَكَرِّراً نَحْوِ "إِيَّاكَ وَالتَّوَانِي" أصله: احذر تلاقي نفسك والتواني فحذف الفعل وفاعله، ثم المضاف الأول، وهو "تلاقي" وأنيب عنه "نفسك"، ثم حذف المضاف الثاني، وهو نفس وأنيب عنه الكاف فانصب وانفصل. ونحو "إِيَّاكَ مِنَ التَّوَانِي" أصله: "باعد نفسك من التواني، حذف الفعل والفاعل والمضاف، فانصب والضمير وانفصل"، أما سيبويه فقد فصل فيه في باب: "ما جرى منه على الأمر والتحذير"³.

وَأَمَّا نَحْوُ قَوْلِ الْفَضْلِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيِّ (الطويل):

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ إِلَى الشَّرِّ دَعَاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبٌ⁴

¹ سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 335.

² المصدر السابق، ج 1، ص 10.

³ المصدر نفسه، ج 1، ص 273.

⁴ المصدر نفسه، ج 1، ص 279.

..... المصطلح النحوي في كتاب سيبويه بين الاستعمال والإهمال

- أن يُذكَر "المُحَدَّرُ" بغيرِ لَفْظٍ "إِيًّا" أو يَقْتَصِرَ على ذِكْرِ "المُحَدَّرِ منه" وإِنَّمَا يَجِبُ الحَدْفُ إِنْ كَرَّرْتَ أَوْ عَطَفْتَ، فالأول نحو "تَفْسَاكَ نَفْسَاكَ" و"الأسَدَ الأَسَدَ" والثاني نحو قوله تعالى: (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)¹.

من خلال ما ذكرناه يتضح لنا أن جمهرة المصطلحات النحوية التي بين أيدينا اليوم قد تضمنها كتاب سيبويه وأنَّ النَّحَاةَ جميعاً عاشوا عالة على سيبويه ومصطلحاته في الكتاب إن صحَّ القول، بل اكتفوا بشرحه وتوضيحه والعمل على اختصار ما أطال فيه فالمصطلحات التي نعرفها الآن إما أن يكون سيبويه أشار إليها إشارة عابرة ولم يقف عندها ظناً منه أنها واضحة وسهلة وإما أن يكون قد أوردتها مع مرادفها وفسرها بتقيضها، أو يكون قد نقلها إلى باب نعتقد أنه غير بابها، فضلاً على ذلك الزخم الهائل من المصطلحات النَّحْوِيَّةِ الدَّقِيقَةِ التي لا تزال تستعمل عند المحدثين كما استعملها سيبويه، ونذكر من ذلك ما يلي:

المعارف - المعرفة والنكرة - ما ينصرف وما لا ينصرف - الفاعل - المفعول به - المفعول معه - العطف على الموضع - أسماء الفاعلين - والصفة المشبهة - الشرط والجزاء - الفعل المعتل - الاختصاص - الاستثناء - النَّعْتُ والمنعوت²، وغيرها من المصطلحات التي تزخر بها كتب النَّحْوِ العَرَبِيِّ قديمها وحديثها.

¹ سورة الشمس، الآية 13.

² محمد عوض القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره، ص 149-150.

التحريج العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

د.ش. بيرلمان وأ. تنيكا

قراءة في تلقي المترجمين العرب للمنجز الاصطلاحي الغربي بوصفه

وسيطاً بين المصدر الغربي والقارئ العربي

د. بشير دردار

المركز الجامعي الونشريسي - تيسمسلت

الجزائر

مقدمة

تكشف مكابدة تلقي الترجمات العربية إجمالاً، وتلقي مصطلحاتها خاصة، عن عنت كبير يواجهه المتلقي، الذي يقبل على هذه الترجمات، وفي ظنه أن منتجها قد استوفوا كل شروط القيام بمهمتهم، وأن معرفته باللغة العربية التي يتداولها مع بني جلدته، كافية لتمكينه من عبور البرزخ الفاصل بين لغتين، متكئاً على الترجمة. غير أن الحاصل عندنا - ويا للأسف الشديد - هو أن البضاعة التي يتسلمها أحدنا عند تلقي كثير من هذه الترجمات، ليست إلا بضاعة مُرْجاة، فاقدة للأوصاف المتفق عليها، في إطار التعاقد الضمني، الذي يلتزم فيه المترجم، وفقاً لتأهيله المفترض، بمعرفة هذا القارئ، وبقدرته على بناء صورته، وتمثل أفق انتظاره، وحسن تقدير حاجاته البيداغوجية، واحترام قدراته المعرفية، وحسه النقدي، الذي يسمح له بالحكم على جودة الترجمة، وسلامتها من الأخطاء، والمقارنة بين منجزاتها حين تتعدد. فالقارئ العربي في هذا الزمن، ليس مستهلكاً يبلع كل ما يُدفع به إليه، ومهما كان تمكنه من اللغات الأجنبية محدوداً، فإنه لا يعدم مقدرة على إبداء تحفظه وتشككه حين تكون رداءة الترجمة ظاهرة للعيان.

عن الترجمة عموماً وعن الترجمة في حقل اللغة والأدب خصوصاً

قُدّر لبني البشر أن يتواصلوا باللسان الواحد و/أو بالألسنة المتعددة، و كُتِبَ عليهم أن يُمتحنوا بالبلبلّة أو "البابلية"¹، فلا يفهم بعضهم عن بعض إلا بمشقة وعسر. وفي الحالين لا يحقق التواصل بالألسنة الطبيعية كل طموحاتهم في التفاهم والانسجام، وتبادل المصالح والخدمات، وتجنب سوء الفهم وتوابعه، التي قد توصل أحياناً إلى ما هو كره لهم؛ وهي الحروب. وتزداد معضلة التواصل ونجاعته جِدَّةً في الحال الثانية عندما تختلف الألسن، ويُحتاج إلى الترجمة. ذلك أن بني البشر مع تسليمهم سلفاً بكون الترجمة اضطراراً لا بد منه، فهم يلجأون إليها لتحقيق ما يتيسر من التواصل، ولا يطمعون في أن تحقق لهم كل وظائف التواصل وأهدافه بالصورة التي يتأملونها. يلود الإنسان إذن بالترجمة وهو متيقن من أنها تمزيق لجسد الخطاب على حد تعبير ديريدا، أو نظر بالمقلوب وتعتم للروية كما يرى سرفانتز، أو خادم بليد يقاب اللطافة فظاظة حسب تصوير بوالو، أو أداة موسيقية لا تصلح لعزف اللحن المطلوب كما جاء في استعارة م دي ستايل، أو انتهاك لحرمة الأموات كما خيّل للشاعر نابوكوف².

ولقد تحسّس الجاحظ قديماً صعوبة مهمة المترجم واشتراطاتها التي تحدث عنها المعاصرون وسعوا لتقنينها، إذ تنبّه - وهو الممارس لنشاط معرفي متعدد الأوجه، طابعه الأول التفاعل مع الآخر وثقافته- إلى أنّ عمل الترجمة لا يؤتي نتائجاً مغنية للتواصل، الكفيلة بتحسينه من سوء الفهم واضطراب التأويل، إلا إذا تساوت لدى المترجم كفاءة استعمال اللغة المصدر مع كفاءة استعمال اللغة الهدف. ومع ذلك ظل يعتقد أن وجود مترجم من هذا النوع ضرب من الخيال.

¹ تلميحاً إلى قصة برج بابل التي تروي أن أبناء سيدنا نوح أرادوا بناء برج يوصل إلى السماء، فعاقبهم الله ببث البلبلّة في ألسنتهم، فعادوا لا يفهمون بعضهم بعضاً. يروج توظيف هذه القصة في الدراسات الترجمة بوصفها الأصل الرمزي لتفسير صعوبة الترجمة (ينظر على سبيل المثال: شارل بوتون، اللسانيات التطبيقية، ترجمة قاسم المقداد ومحمد رياض المصري، د ط، دمشق، دار الوسم للطباعة والنشر، د ت، ص 63).

² وردت هذه الاستعارات السلبية في: أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، ترجمة عز الدين الخطابي، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة - مركز دراسات الوحدة العربية، 2010، ص 63-67.

..... الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

يقول الجاحظ: "ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعرض عليها،* وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات"¹. أسمينا هذا الذي حدثنا به الجاحظ تحسّساً، ووصفناه بالتنبه، وربما زاد على ذلك عند المأخوذين بهم التأصيل التراثي للمفاهيم المعاصرة. ولعلنا واجدون نظيره عند المعاصرين أصحاب التخصص الدقيق، الذين استفادوا من التراكم المعرفي المتحقق عبر قرون من الزمن، فكان تناولهم أعمق غوراً، وأدق تحديداً، وأكثر إحاطة بالظاهرة موضوع الدرس. يقول جورج موان: "ولكي نترجم نصاً كتب بلغة أجنبية يجب تيقن وجود شرطين اثنين وليس شرطاً واحداً. وهما شرطان ضروريان لا يغني أحدهما عن الآخر: 1. معرفة اللغة 2. ومعرفة الحضارة التي نتحدث عنها هذه اللغة (وهذا يعني معرفة الحياة والثقافة وخصائص الشعوب التي تعبر عنها هذه اللغة معرفة كاملة ومستفيضة). ولكي نترجم لغة ما لا يكفي أن ندرس هذه اللغة، بل يجب أن ندرس الثقافة المقابلة لهذه اللغة دراسة أساسية ومنظمة وليس مجرد قراءات عابرة أو تكميلية... إن القول بأن المعرفة اللغوية الكاملة لا تكفي للحصول على ترجمة جيدة يمكن

* كأني بعبد الفتاح كيليطو يستلهم هذا التنبه الجاحظي في كتابه: أتكلّم جميع اللغات لكن بالعربية، والذي اختار أن يصدره بمقتطف بالغ الدلالة للفيلسوف "إميل شيوران"، نصح: "استبدال اللغة بالنسبة للكاتب، هو بمثابة كتابة رسالة غرام باستعمال قاموس" (المرجع المذكور، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، ط 1، الدار البيضاء، در تويقال، 2013) وعلى النقيض منه يقع ربما عبد الكبير الخطيبي الذي ينسب إليه دريدا تصور إمكانية تعايش لغتين في جوف امرئ واحد، أو كما قال: "لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط" (ينظر: أحادية الآخر اللغوية، ترجمة عمر مهيب، ط 1، بيروت/الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2008، ص 30).

¹ الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، الجزء الأول، ط 2، مصر، شركة مكتبة مصطفى الجلي وأولاده، 1965، ص 76-77.

تَيْقُنُهُ مَعْمَلِيًّا أَوْ تَجْرِبِيًّا¹.

حقاً، يمكننا التحقُّق من كفاءة المترجمين معملياً أو تجريبياً، وأمأنا أداءاتهم في النصوص التي أنتجوها، ومقابلها النصوص الأصلية التي نقلوها، عند كل الأمم، وفي كل اللغات. ونزيد على ذلك، فنقول إن عملاً نقدياً تقويمياً معملياً مخبرياً للترجمات العربية لهُو أولى في نظرنا، ونحن له أحوج مما يمكن أن يكون في لغات أخرى، ولاسيما لغات الأمم المتفوقة حضارياً. وحجة الأولوية هنا هي أننا نأخذ منهم ونقتبس ونستهلك أكثر مما يأخذون منا، يكاد يتساوى في ذلك الأخذ الثقافي المتصل بالفكر والثقافة والفنون والآداب، مع استجلاب الماديات المصنعة في مصانع الغرب، كمأً وكيفية. وحجة ثانية أخرى لإثبات هذه الأولوية؛ هي أن هذا الغرب المتفوق الذي نترجمه، يعرفنا أكثر مما نعرفه، فقد ظل جاثماً على صدورنا رداً طويلاً من الزمن مستعمراً، وعرفنا من خلال الحركة العلمية الاستشراقية التي لم تغادر فينا صغيرة ولا كبيرة إلا درستها ومحصّنها، وهيأتها لأي نوع من الاستثمار يريده القوم هناك. وثالثة الحجج التي تبرر أولوية النقد والتقويم عندنا هي أن عدداً ضخماً من أبنائنا أُنقن لغات هذه الأمم المتقدمة، ونشرب ثقافتها، وكتب بها، وكان بمثابة جسر أحادي الاتجاه يعبرونه إلينا، ولا نستطيع استعماله للعبور إليهم².

مشكلات الترجمة وعوائقها وأدواؤها موجودة عند كل الأمم، وجدّتها وحجمها ورهاناتها أكثر وأكبر عندنا بكل تأكيد. وإذا شئنا في هذه المقدمة أن نعدد هذه المشكلات فقط مجرد تعداد، فسيأخذ ذلك منا حيزاً قد لا تسمح به طبيعة الموضوع المبحوث هنا. هناك مشكلات تتصل بعدد المترجمين قياساً إلى الحاجة التي تفرضها غزارة الإنتاج المعرفي في العالم، وهناك مشكلات

¹ جورج موان: علم اللغة والترجمة، ترجمة أحمد زكريا إبراهيم، ط 1، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ص 28.

² الإشارة هنا إلى العرب الذين تنبوا اللغات الأجنبية أو تبنتهم، فقطعوا كل صلة لهم باللغة العربية، وهم كثر (منهم من تأسف على ذلك)، في حين يمثل مزدوجو اللغة أو متعددها الذين ينتجون في لغتين أو أكثر قلة لا تكاد تذكر.

الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

تتعلق بكفاءة المترجمين وتكوينهم وتخصصاتهم، فالمعروض في سوق المعرفة لا يتمتع - ويا للأسف - بالمستوى المطلوب، لدرجة أن أحد المترجمين لم يجد سبيلاً لوصف عسر قراءة المترجمات العربية الحديثة، وكيفية تجاوزه إلا بقوله: "... لا يفهمها إلا من يستطيع العودة إلى النص الأصلي لفرط فسادها ونقلها الدال بدل المدلول"¹. والحق أن القارئ العارف باللغات الأجنبية يهوله، بل يحبطه ما يجد في كثير من الترجمات من أخطاء في الترجمة تتصل بمفردات وبتراكيب بسيطة، بله تلك التي تخص التعبيرات المجازية الغامضة والتراكيب اللغوية المعقدة. وهناك زيادة على هذا مشكلات تنظيم وتنسيق حركة الترجمة على مستوى العالم العربي، والتي يمكن أن يعبر عنها بـ"تعطل وعدم فعالية المؤسسات والهيئات المتخصصة، كالمجامع اللغوية وغيرها"، حال هذه المؤسسات من حال مؤسسات العمل العربي المشترك، وعلى رأسها جامعة الدول العربية (بيت العرب)². وتأتي بعد ذلك مشكلات تتصل بدور الجامعات ومؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي التي يفترض فيها أن تكون غرفة التحكم في ذلك وفي غيره، فلا نجد فيها سوى تسيير الأرقام، دون انشغال واضح بمهمة هي الأولى في مجال نقل المعرفة والتكنولوجيا بوصفها الممر الإجباري للنهضة العلمية والتكنولوجية المنشودة.

ترجمة مصطلحات البلاغة الجديدة إلى العربية ومشكلاتها

لا تختلف مشكلات ترجمة مصطلحات البلاغة الجديدة عن ترجمة مصطلحات المدارس والتيارات الغربية الأخرى، وإن كانت أقل منها حدة وإثارة للبس في إحالاتها المفاهيمية كما يمكن أن نجده في حقل السيميائيات مثلاً. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب؛ أهمها ما تتمتع به الثقافة العربية من إرث بلاغي غني بالمصطلحات والمفاهيم حاول القدماء أن يستوفوا بها دراسة الظواهر المختلفة للقول الأدبي خاصة. زيادة على أن الجهاز الاصطلاحي للبلاغة الجديدة لا يقوم على استحداث المصطلحات بقدر ما يقوم على إحياء المصطلحات القديمة العائدة إلى

¹ أبو يعرب المرزوقي: أشياء من النقد والترجمة، ط 1، بيروت، دار جداول، 2012، ص 76.

² عبد السلام المسدي: العرب والانتحار اللغوي، ط 1، بيروت، دار الكتاب الجديد، 2011، ص 127.

المصادر الفلسفية اليونانية والرومانية (بلاغة أرسطو وغيره)، أو إلى البلاغة الغربية في العصور الكلاسيكية وما بعدها، وهو ما يوفر للمترجم العربي إمكان الاعتماد على ترجمات الفلسفة الغربية إلى العربية، ويغنيه عن اللجوء إلى وضع الأبدال.

غير أن هذه السهولة النسبية في التعاطي الترجمي مع مصطلحات البلاغة الجديدة لا ينبغي أن ينسينا العوائق التي تصادفنا كثيراً في إيجاد الأبدال المناسبة لهذا المصطلح الأجنبي أو ذلك. فالمعروف عند علماء اللسانيات أن الألسنة الطبيعية تختلف أصلاً وتباًين في طريقة تشييدها للواقع وتقطيعها لموجوداته المختلفة حسية كانت أو معنوية. يتعلق هذا بمظاهر الكون الكبرى، وبالألوان، وتصنيف علاقات القرابة، فما بالك بما هو أشد تعقيداً، مما له صلة بتصنيف الأقوال، وتسمية مقاماتها، وتحديد الأساليب ومواطن التأثير الإقناعي والجمالي فيها، ومعايير قياس الصواب والخطأ، والتمويه والمغالطة، وأصناف المتلقين الذين يتلقون أنواعاً لا حصر لها من الخطابات، وغير ذلك من القضايا التي تختلف اللغات والثقافات في مقاربتها وضبط الإحالة إليها بوساطة المصطلحات.

إن مقارنة بسيطة بين البلاغة العربية والبلاغة الغربية تكشف لنا عن وجود تفارقات هامة قد تفوق ما بينهما من التقاطعات، مما ينعكس حتماً على عملية الترجمة وإيجاد الأبدال المصطلحية، ويفرض عليها إكراهات واشتراطات تستدعي من المترجم أن يسدد ويقارب ويعمق البحث في الخلفيات التكوينية للمتن البلاغي هنا أو هناك. فاجترح المصطلح في البلاغة الغربية يخضع بالضرورة لظروف نشأة التفكير البلاغي عند اليونان القدماء، تلك النشأة التي كانت مرتبطة بالنزاع حول ملكية الأراضي الفلاحية (امبادوقليس الأغرغنتي، وكوراكس، في القرن 5 ق.م) ثم بالحياة الديمقراطية في أثينا (جورجياس، وأوسط القرن 5 م) مروراً بإيتاكا¹، مما فرض على المنظر البلاغي يومئذ أن يعطي الأولوية لبناء الخطاب وتنسيقه، وأن يجعل اهتمامه مركزاً على ما يحقق الإقناع بالحجج المستعملة، وكيفية تقديمها، وما إلى ذلك من القضايا، مما لا نجد

¹ BARTHES Roland, L'ancienne rhétorique [Aide-mémoire], in : Communications,16, 1970. Recherches rhétoriques. pp.172-223, p175.

له مشابهاً في نشأة البلاغة العربية التي انبعث التفكير الأول فيها من اهتمامات تتصل بنفسير القرآن الكريم، وما استتبعه ذلك من حاجة إلى تنظيم الخطابة حول قضايا عقيدية دينية، ابتدأها المعتزلة، قبل أن يواصلها غيرهم في العصور اللاحقة¹. وما ذكرناه عن اختلاف النشأة وظروفها وأولويات التفكير البلاغي فيها ينطبق على مراحل التطور اللاحقة، فهي أيضاً مختلفة. ولعل الاستثناء الوحيد فيها، هو ما يتعلق بتحجر الفكر البلاغي عندما أولع البلاغيون بتصنيف الوجوه البلاغية وتفريع بعضها من بعض، واعتماد ذلك في قياس جودة الخطابات الأدبية بطريقة فجأة أفضت إلى انحطاط الأدب عندهم وعندنا، كما هو معروف².

آفات الترجمة العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

1. اقتراح الأبدال العربية/التعدد والتبعثر واختلاط الأنساب المفاهيمي: آفة الترجمات العربية الكبرى هي تعدد المصطلح، وهي آفة يزيد ضررها عندما تزدوج بآفات أخرى سنوالي الحديث عنها لاحقاً. يتولد عن ذلك بطبيعة الحال تشويش لعملية تلقي المصطلح والوقوف على المفاهيم المحال عليها، فتجد المصطلح في كتاب يحيل على مفهوم، وفي كتاب آخر على مفهوم ثان، ... الخ. وهكذا يتوزع نسب المفهوم بين مصطلحات عديدة، مما يوقع القارئ حقيقة في البلبلة. ويترتب على ذلك بطبيعة الحال عسر في قراءة النصوص المترجمة، وبطء في وتيرتها، وضعف في مردوديتها. وذاك ما يعني تعثراً في تمثّل المفاهيم والطروحات، وقصوراً في إدراك المستوى الذي بلغه البحث في معالجة القضايا والإشكاليات المطروحة. هذا إذا افترضنا أن الترجمة إلى العربية تسابير المستجد والراهن في حقل البحث المعني، وهو ما ثبت عدم حصوله بالتتابع

¹ حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، دط، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص 132.

² ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط 6، دار المعارف، القاهرة 1983، ص 271 وما بعدها. وينظر أيضاً: فرانسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: محمد الولي وعائشة جريز، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2003، ص 12.

البيبلوغرافي العملي في مجمل مجالات العلم والمعرفة والتكنولوجيا¹.

وللتمثيل من المدونة الاصطلاحية نعرض فيما يلي لبعض المصطلحات المعيبة بأفة التعدد المتسببة في ظاهرة اختلاط الأنساب المفاهيمي:

أ. مصطلحات ترتيب الخطاب (Ordre du discours):

Exorde, Narration, Preuve, Réfutation, Conclusion, Epilogue

- المدخل، السرد، /.../ الدحض أو التبكيت، /.../ المخرج (المهيري- صمود 1، ص 423)
- الاستهلال، السرد، /.../، /.../ المخرج (المهيري - صمود 2، ص 145)
- مقدمة، سرد الأحداث، /.../ دحض /.../ خاتمة الخطبة (المهيري، ص 19)
- الاستهلال، السرد، /.../، /.../ خاتمة الكلام (عياشي. ص 158)
- المقدمة، السرد، /.../ الاحتجاج/الخاتمة (العمرى 3، ص 45)
- الاستهلال، السرد أو الفعل (علاقة الأحداث²)، المحاجة أو الأدلة، الاستطراد، الخاتمة (الطلبة، ص 147)
- صدر الخطبة، الاقتصاص، التصديقات /.../، /.../ (الريفي، ص 117)

ب. مصطلحات الأجناس الخطابية (Genres oratoires): Délibératif, Judiciaire, Epidictique

- المشاوري، القضائي، التثبتي (صمود- المهيري 2، ص 143؛ و صمود- المهيري 1، ص 274)
- المشاوري، المشاجري، التثبتي (المهيري، ص 18)
- التداولي، القانوني، الإرشادي (عياشي. ص 155)
- المشوري، المشاجري، الأفودقطيقي البرهاني (صولة، ص 304)
- الاستشارية، القضائية، الاحتفالية (العمرى 1، ص 22؛ العمرى 3، ص 30)

¹ ضربنا مثال ترجمة أعمال ل. غولدمان في هامش مقدم. والأمثلة أكثر من أن تحصى.

² ترجمة خاطئة ل Relation des faits، وتعني إيراد الأحداث أو سردها، من الفعل Relater، وليس من الفعل Relier. والسياق النصي وحده كاف للكشف عن معنى هذا اللفظ.

الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

- المشاورة، المشاورة، المفاضلة (العمري 2، ص 12)
- .../.../المحفلي (المفاضلة) (العمري 2، ص 16)
- الاستشاري، القضائي، البرهاني (الدهري، ص 70)

ج. مصطلح (Analogie):

- قياس (م باحثين: ص 624؛ المهيري - صمود 1، ص 37؛ فضل، ص 72). النظرير (علوش، ص 268). تناسب، تشابه، مشابهة (الولي- جرير، ص 91). مماثلة (الريفي، ص 64؛ الغامدي، ص 54). التمثيل (صولة، ص 338). تماثل، تشابه، قياس (عياشي، ص 700). تماثل (المهيري، ص 163) مقياسة (العمري 2، ص 191؛ الدهري، ص 13).

واضح مما تقدم أن تعدد الأبدال العربية لا يزال داء عصبياً من أدواء الترجمة، فبفحص تواريخ إصدار الكتب المعتمدة كمدونة لبحثنا هذا، يتبين لنا أن الباحثين العرب لا يعون أو لا يريدون أن يعوا ما يسببه هذا الداء من بلبلة للقراء. فما الذي يدعو أحدهم مثلاً ليعتري "مشاورية" كبديل عربي لـ Délibératif، ليختار بدلاً من الأصل الاشتقاقي نفسه؛ "مشوري" أو "استشاري" إذا كان قد سبق إليه، وعلم أنه قد حقق ولو قليلاً من الرواج بين القراء؟

وما الذي يحمل آخر على أن يختار التعريب "أفوقطريقي" بدلاً لـ Epidictique، وهو يرى أن فريقاً من زملائه المترجمين استقروا على "تثبيتي" الذي وجدوه في تراثنا الفلسفي؟ ألم يدرك أن التعريب لا يصلح إلا حيث يروج المصطلح الأجنبي، ويتمكن من الألسن، ويشيع في الاستعمال؟ ولماذا يختار بعض باحثينا "قياس" ترجمة لـ Analogie، وهم يعلمون يقيناً - وهذا ظننا الحسن فيهم - أنها تلتبس مع "قياس" أخرى اختيرت بديل Syllogisme؟ أما التعليق على الأبدال الأخرى "تظير" و"مماثلة" و"تماثل" و"مشابهة" و"تشابه" و"تناسب" و"مقايضة"، فلا نريد أن نتفتح شهيتته، لأنها إن انفتحت فستلتهم الصفحات الكثيرة. وقل مثل ذلك عن تعدد الأبدال المقترحة لمصطلحات أقسام الخطاب.

2. الارتهان المعجمي للغة المصدر: أغلب المصطلحات يصدق عليها ذلك، وهو قصور في

الأداء الترجمي يمكن رده إلى إهمال التكوين في علم المصطلحات وما يلتف به من تخصصات فرعية، ولو كان ذلك التكوين قاعدياً يقصد به الإلمام بالأصول والقواعد العامة دون الطمع في التعمق والتفصيل. وأمارة ذلك القصور جَزِي المترجمين العرب وراء محاكاة الدال، ومحاولة إيجاد شبيه له في الدلالة المعجمية الأولى، وفي البنية الصرفية، وما يتصل بها من وظيفة نحوية، بل فيهم من يتتبع في ذلك حتى سمات التمييز المتعلقة بالتذكير والتأنيث والإفراد والجمع. وفي هذا مخالفة صريحة لقاعدة في وضع المصطلحات تقضي بأن ينطلق واضع المصطلح من التصور الذهني المتميز باقتترانه مع مرجع، ثم البحث عما يضمن الإحالة الواضحة عليه في اللغة المعنية، لأن هناك فرقاً في سيرورة التدليل بين الوحدة المعجمية العادية والمصطلح¹.

ويظهر الإخفاق المتولد عن الارتهان المعجمي للغة المصدر، أكثر ما يظهر في اختيار أبدال مستنزفة الدلالة عندنا، مثل مصطلح السلطة في التركيب المصطلحي Argument d'autorité، الذي أجمع عليه المترجمون العرب فيما يشبه الشذوذ على قاعدة التعدد التي دأبوا على التزامها، وتوهموا أنه البديل الأمثل لمصطلح "Autorité". لوجود تساو تام في دالّي اللغتين ومدلوليهما، وأغفلوا فارقاً يتعلق بالوسم الثقافي لكل منهما، فكلمة Autorité ترجع في أصلها الاشتقاقي إلى الكلمة اللاتينية augere والتي تعني "auteur"²، كما أنها متفرعة في الفرنسية عن الفعل Autoriser الذي يعني "أذن". ولكل هذه التفاصيل الاشتقاقية التأنيلية ضلال إيحائية، يُرْسَخها المدلول الثقافي للكلمة عند الغربيين، وهو: ممارسة قدر من السلطة يؤدّن به بعد إثبات الجدارة في مجال من المجالات، ويخضع للتعاقد. في حين ينصرف الذهن عندنا إلى دلالة أضيق عندما نسمع كلمة "سلطة"، وهو المدلول الذي يناسبه أكثر كلمة "pouvoir". يقول بيرلمان وتتيكاه عن تعدد مصادر "السلطة": "أنواع السلطة التي يمكن استدعاؤها [في الخطاب] شديدة التنوع، فأحياناً تكون "الرأي المجمع عليه" أو "الرأي العام"، وأحياناً تكون بعض فئات الناس

¹ Gaudin François, « Socioterminologie - une approche sociolinguistique de la terminologie », Bruxelles, De Boeck Supérieur, «Champs linguistiques», 2003, p150,154.

² L.CLEDAT-Dictionnaire étymologique de la langue française,3éd,1914, PARIS, Librairie Hachette et Cie, p39.

..... الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

كـ"العلماء" و"الفلاسفة" و"رجال الكنيسة" و"الأنبياء"، وأحياناً أخرى تكون السلطة غير مشخصة كـ"الفيزياء" أو "المذهب" أو "الدين" أو "الإنجيل"، وفي بعض الأحيان قد يتعلق الأمر بسلطات معينة بأسمائها"¹.

بحسب ما تقدم من ملاحظات، ألا يكون من الأجدى أن ننطلق من التصور الذهني الذي تتحدد بموجبه الإحالة المفاهيمية، ونقول مثلاً: حجة المرجع، أو المرجعية، أو حجة الموثوق... الخ.

لقد أصاب أبو يعرب المزروقي عندما وصف هذه الآفة بأنها الداء الجامع لكل الأدواء التي ابتلي بها الترجمة العرب الذين "غالباً ما يصابون بداء التشقيق اللساني والتعالم الاصطلاحي فيحصرون الاجتهاد الفكري في طلب المقابلات اللغوية، ومن ثم في الأعياب لسانية لمحاكاة الكيفيات التي يدل بها دالّ اللغة المنقول عنها، بدل البحث في ما يمكن أن يؤدي المدلولات نفسها في اللغة المنقول إليها"².

لا يتيح لنا التحديد الذي ألزما به أن نعلق على أمثلة أخرى. لذلك سنكتفي بإيراد بعض المصطلحات، ودعوة المتلقي إلى تأملها والتعليق عليها:

الاختراع/invention (مج باحثين، ص 640)، القياس/analogie (م باحثين، ص 624؛ المهيري- صمود 1، ص 37؛ فضل، ص 72)، الحجج المؤسسة لبنية الواقع arguments qui fondent la structure du réel (صولة، ص 324) الحجج المؤسسة على بنية الواقع arguments basés sur la structure du réel (نفسه، ص ن) روابط مشاركة Rappports de participation، (صولة، ص 336) روابط تبرير Rappports de motivation (نفسه، ص ن)،

3. انتهاك العقد التواصلي مع القارئ: لا يقرأ القارئ نصاً إلا وتحضر في ذاكرته نصوص

¹ Chaim Perelman et lucie.olbrechts- tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique , 5eme édition 1988,université de Bruxelles, p413.

² أبو يعرب المزروقي، م س، ص 64.

كثيرة، تمثل بالنسبة إليه موجهاً للقراءة الجديدة، شاء ذلك أم أبى، واعياً كان بذلك أم غير واع. ولما كانت النصوص تتأطر وفق أنواعها وموضوعاتها واصطلاحاتها، فما من شك في أن النص السابق تكون له سلطة على اللاحق، من خلال تدخّله في تشكيل أفق توقعه لما تحمله النصوص الجديدة التي سيقراها. والذي يحصل عند القراءة الجديدة هو إما تثبيت أفق الانتظار، أو هدمه وإبداله بما هو أجدى وأنفع وأكثر تبصراً، إذا وفق هذا النص في عملية الاستبدال هذه، عن طريق تحاور جاد وفعال مع النصوص السابقة، يجعلها تتنازل طواعية عن شغل الطبقة العليا من الوعي القرائي والتأويلي عند القارئ. أما إذا تعثرت عملية الاستبدال بسبب عشوائية التفاعل النصوي، وتضارب الاشتغال الدلالي للمصطلحات، فإن القارئ لابد أن يقع ضحية تسفيه لثقافته ومخالفة لأبجدياتها التي تفترض أول ما تفترض أن للنصوص ذات النوع الواحد نحو واحد يحكم مستوياتها المختلفة، ومنه النحو الذي ينظم اشتغال المصطلحات في النص الواحد وفي النصوص المتعددة¹.

أثرنا أن نسمي هذا الاختلال في التواصل الاصطلاحي بـ"انتهاك العقد التواصلية". ولنمثل له في هذا البحث انتقينا المصطلحات التالية: المستمع/Auditoire (العمري 1، ص 8، 14)، حكم/Maximes (صولة، ص 328) وجه، صورة/Figure (المهييري - صمود 2)، البصر بالحجة/Invention، (المهييري - صمود 1، ص 491) الظن/Opinion. (الريفي، ص 111).

ولنقف قليلاً محللين لواحد من هذه الأبدال؛ وليكن البديل الذي اقترحه وانفرد به محمد العمري "مستمع" - بفتح الميم - لـ Auditoire. هذا البديل حسب ما اطلعت عليه من ترجمات ودراسات في البلاغة والحجاج، لم يرج ولم يترسخ. ولعل السبب في ذلك حسب رأبي، هو بناؤه اللغوي

¹ نستلهم هنا نظرية التصميم في علم النفس المعرفي، والتي توازن بين دور القارئ والنص في إنتاج الدلالة. (ينظر: عبد القادر الزاكي، من النموذج النصي إلى النموذج التفاعلي للقراءة، ضمن: نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، ص 221 وما بعدها).

الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

الذي لم يكن موفقاً، فقد برر العمري اختياره لوزن "مفتعل" محاكاة لـ"مجتمع"¹. والحق أن هذا القياس لا يملك حظوظاً وافرة للنجاح، فلفظ "مجتمع" يرجع إلى الفعل "اجتمع"، وهو فعل لازم (اجتمع الناس)، أما استمع فهو متعد بحرف الجر "إلى"، وصيغة اسم المفعول منه، تدل على المسموع لا على السامع. هذا دون أن نتحدث عن سهولة التباسها بلفظة "مستمع" - بكسر الميم - . لذلك تستنقل في الاستعمال الذي اقترحه العمري، لأن القواعد اللغوية تشتغل حسدياً أثناء التواصل، حتى عند الذين لا يتوفرون على المعرفة اللغوية العالمية. وهذا ما يقوم به المتلقي عندما يواجه المصطلح، فهو يتلقاه بنوع من النقد اللغوي الضمني الذي رسّخه لديه الاستعمال، بمجرد تمتعه بالانتماء إلى الجماعة اللغوية. وهذا النوع من خرق القواعد اللغوية الأساسية، يمثل أيضاً وبالضرورة خرقاً للتعاقد التواصلية.

4. إهمال البعد السوسيو- ثقافي في عملية الترجمة: يشترط في الترجمة زيادة على المعرفة التامة باللغة المنقول عنها، المعرفة الكافية بثقافة تلك اللغة، وقد أفاض علم اللغة الحديث، ولاسيما فرع اللسانيات الاجتماعية، وعلم الاجتماع اللغوي في الكشف عن التداخل بين البنى

¹ يقول م العمري: "وسيصادف القارئ مجموعة من المصطلحات الجديدة التي لا مندوحة عنها للخروج من الخط والاضطراب في بناء النسق البلاغي الذي نتوخاه... والمستمع، على وزن مجتمع، ترجمة للكلمة الجوهرية في التداول الحجاجي auditoire، بدل المقام" (محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، د ط، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق - 2005، ص 8). ثم يقول: "ولعل القارئ يلتقي لأول مرة بكلمة مستمع، وقد دأبت على استعمالها مقابلاً لكلمة auditoire، وهي تعني المقام الخطابي بمكوناته الثقافية والزمانية والمكانية. فبدون التفاهم حول هذه المصطلحات سيتعذر التخاطب في هذا الموضوع" (نفسه، ص14). لا ندري من أي مصدر جاء العمري بهذا التعريف لمصطلح auditoire. فيالرجوع إلى كتاب بيرلمان وتتيكاه (مصنف في الحجاج/ البلاغة الجديدة) لا نجد أي أثر لهذا التعريف، بل إننا نجد فيه ما ينقضه، وهو إحالة المصطلح إلى الجمهور، أو المستمعين لا إلى المقام الخطابي. تأمل مثلا العبارات التالية: «cet auditoire, telle une assemblée parlementaire...»؛ «l'accord de l'auditoire...»؛ «les philosophes prétendent toujours s'adresser à un pareil auditoire...»؛ «il arrive souvent que l'auditoire d'élite veuille rester distinct du Traité de commun des hommes...» (Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca: l'argumentation, la nouvelle rhétorique, pp40-44).

الاجتماعية والثقافية والبنى اللغوية، فالنصوص لا تنتج" فقط من البنى اللسانية والنطق الخطابية، إنها تنتج أيضاً من البنى الاجتماعية الأخرى، ومن الممارسات الاجتماعية في جميع جوانبها. لذلك يصعب الفصل بين العوامل التي تبلور النصوص"¹. وقبل ذلك وقف علماء الدلالة على حقيقة أن اللغة ليست وسيلة حيادية في وصف الواقع ونقله، عندما اكتشفوا أن لكل لغة طريقتها في تقطيع الواقع والإحالة عليه. لذلك بات من الضروري أن يتشرب المترجم ثقافة اللغة المصدر، وأن يتعرف أدق أساليبها المستعملة في مستويات التواصل المختلفة، وفي ضروب المعرفة المتنوعة، وأن يعرف مضمراتها المتصلة بثقافتها الشعبية وتاريخها ومعتقداتها، ذلك أدنى أن نزل قدمه، فيخطيء ويضلل قارئه. فقد "لا تسمح الكفاءة اللغوية المقصورة على معرفة القواعد النحوية، باقتراح أبدال [مناسبة] في الترجمة. فالتحكم في نظام لغة ما هو شرط ضروري ولكنه غير كاف، كما تشهد بذلك البحوث في تعليمية اللغات. [ومن ثم] ينبغي أن يترافق ذلك مع ما يمكن تسميته بالكفاءة الثقافية، التي يشار إليها غالباً بوصفها "قيمة مضافة" تتمتع على التحديد، ولكنها [معرفة تبقى] أساسية"².

ولنتأمل الآن الترجمات التالية التي فحصناها فوجدناها تتكبد الاهتمام بالبعد السوسيو ثقافي في ضبط الإحالة المفاهيمية: حجج السلطة/ Arguments d'autorité (مجمع عليه)، المشهورات Doxen (الريفي، ص 111)، المواضع/Lieux (صولة، ص 311) حجج التبذير / arguments de gaspillage، (صولة، ص 333) الضمير/ Enthymème (الريفي، ص 161)، الظن / Opinion (الريفي، ص 111) قاعدة العدل / Règle de justice (صولة، ص 328).

نختار للتعليق البديل "حجج التبذير" والذي يزدوج فيه عيبان، عيب الارتهان المعجمي - وهو ظاهر - وعيب إهمال البعد السوسيو ثقافي، إذ ما من شك في أن لفظة "تبذير" في الثقافتين ليس

¹ نورمان فاركوف: تحليل الخطاب - التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبه، ط 1، بيروت،

المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009، ص 62.

² Françoise CANON-ROGER, «Traduction et réélaboration interprétative», Revue française de linguistique appliquée 2009/1 (Vol. XIV), p. 25-38, p26.

..... الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

لها المدلولات الأخلاقية الدينية والاجتماعية نفسها. ففي الثقافة العربية يشدد النكير على أي سلوك فيه التبذير، ولو كان الماء الذي يستعمل في الوضوء، وهو جزء من العبادة. فما بالك بما هو دون ذلك. أما في الثقافة الغربية، فهو وإن أحال على سلوك سلبي، فإنه ضعيف الوسم من ناحية دلالات التحريم وتشديد النكير التي تميزه في الاستعمال اللغوي العربي، حتى إن لفظة "إسراف" المرادفة له، قد لا تساويه من حيث الوسم الثقافي. لذلك كان يمكن أن نقول: حجج تجنب التبذير، لضمان نقل الوسم الثقافي المصاحب للفظ.

ولا تختلف في هذا التقويم باقي الأبدال الممثل بها آفأاً، فلفظة "ظن" بديلاً عن opinion، لا يشفع لها أخذها من التراث الفلسفي ما تسببه من إيهام يبعدها عن أداء التصور المفهومي المقصود، لارتباط الظن في ثقافتنا العربية الإسلامية بـ "الإثم"، "إن بعض الظن إثم"، كما جاء في الآية القرآنية الكريمة [الحجرات. آية 12]. وهو ما يكشف لنا أن متبني هذه الترجمة أغفل مفعول التطور الدلالي للكلمة. من منا لا يقول اليوم: الرأي العام، وفي رأيي، وحرية الرأي ... الخ؟.

5. إهمال البعد الديدانكتيكي في عملية الترجمة: يقدم الكتاب المترجمون أنفسهم من خلال إيتوس الأستاذية الذي يعني أول ما يعني استعداد المترجم لنقل ما يجله القارئ في النص المصدر الذي يتعذر على القارئ الاعتماد على نفسه في تلقيه وفهمه، بسبب جهله الكلي أو النسبي للغة هذا النص، أو لأسباب أخرى. لذلك لا تخلو الترجمات العربية من استطرادات وهوامش شارحة لطرائق وضع المصطلحات، وتبرير الخيارات المعتمدة فيها، وقد يحمل ذلك المترجم على مجادلة غيره في أولوية بديل مصطلحي على غيره، اعتماداً على تفسيرات لغوية قواعدية، أو تداولية ثقافية. فـ " لغات الاختصاص - التي نعتبر علم المصطلحات من ضمنها - ليست جزءاً من مسار التعلم الطبيعي الذي يتبعه الأفراد، إنما هي تشكل بالعكس غرض تعلم إرادي وواع يتحضر من خلاله الأفراد لمزاولة مهنتهم. وفي ما يتعلق بالاكنتساب، فإن أحد أوجه الاختلاف القائمة بين علم المصطلحات النظري والألسنية يتركز على هذا الفصل بين

طبيعي ولا شعوري من جهة، وإرادي وواع من جهة أخرى¹.

من هنا جاءت فكرة تشابه علاقة المترجم بالمترجم له، بعلاقة المعلم بالمتعلم، ذلك أن التعليم يقوم أساساً على جريد خاص من المصطلحات الدقيقة التي يلجأ مختصون أحياناً إلى استحداثها، وضبط المحتويات المعرفية التي تحيل عليها، من خلال وفرة التعريفات وتكررها، وإقامة التعليمات الجديدة على المكتسبات القبلية. غير أن هناك ما تختلف فيه العلاقتان، وهو حضور المتعلم وتعيينه وإمكان بناء صورته كمتلق في عملية التعلم الحقيقية، وهو ما لا يتحقق في العلاقة القائمة بين المترجم والمترجم له إلا بصورة نسبية. ومع ذلك يظل المترجم مطالباً بما يمكن تسميته بالتكفل البيداغوجي بقارئه، من خلال توقع العوائق التي قد تحول دون حسن تفاعله واستفادته من الترجمة المقترحة عليه.

المصطلحات التالية تعرض علينا حالات إهمال للبعد الديدانكتيكي: البرهان/ Argumentation (فضل، ص 65)، البصر بالحجة Invention، (المهيري- صمود 1، ص 491)، التثبيت Réfutation/ (الريفي، ص 151)، التثبيتي/ Epidictique (إحالة سابقة)، الاستشهاد أو التبيين/ Illustration (صولة، ص 337)، البيئة/ Témoignage (صولة، ص 338)، التوزيع Partition/ (صولة، ص 331) الخور/ L'absurde، (صولة، ص 326) الإدراك/ Entendement (صولة، ص 302)، الأفودقطيقي/ Epidictique (إحالة سابقة).

للتعليق على عاهة إهمال البعد الديدانكتيكي نختار مثالين، يجسد كل منهما حالة من حالات إخراج القارئ، وتركه دون تكفل بيداغوجي يساعده على اكتساب المصطلح. المثال الأول: ترجمة (فضل) Argumentation بـ "البرهان"، وفيه يتضح ما يمكن أن نسميه تحلل المترجم من أي عناية بضبط عملية نقل المصطلح إلى قارئه، مقدماً مقترحاً ترجمياً بطريقة عشوائية، أفضت إلى اختيار البديل العربي المضاد للمصطلح الأجنبي. ولا ندري ما الذي حدا بواحد من أشهر أعلام

¹ هنري بيجوان - فيليب توارون (تحت إشراف): المعنى في علم المصطلحات (مقدمة المترجمة)، ترجمة ريتا خاطر، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة - مركز دراسات الوحدة العربية، 2009، ص 45-46.

..... الترجمة العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

النقد في العالم العربي إلى أن يقع في مثل هذا الخطأ الجسيم. لو أخذ هذا العَلْمُ عملية الترجمة بجدية المعلم، وراعى موقع المفهوم من محيطه، وقاس المسافات بينه وبين غيره، واستحضر نباهة المتلقي وأفق انتظاره، لكان قد تجنب مثل هذا المزلق.

والمثال الثاني هو ترجمة عبد الله صولة Entendement بـ"الإدراك". ولعمري ما الذي يتوقعه المترجم هنا من قارئه، فاللفظة العربية المقترحة، يقابلها من باب أولى Perception، التي لاشك في أن القارئ الملم بالفرنسية يعرفها. أما كلمة Entendement فربما كانت تحتاج من المترجم اجتهاداً أكبر، لو استحضر ضرورة تنسيق المعارف والمفاهيم التي يتطلبها إكساب المعارف الجديدة لمن يجهلها، كأن يقترح البديل العربي: التمثل، أو التصور الشخصي. فالترجمة من هذا المنظور لا تحتمل التقريب والتسرع في اعتماد الأبدال، والأستاذية التي نتحدث عنها ينبغي أن يراعى مقامها حق الرعاية.

6. إهمال المقاربة النصية في عملية وضع المصطلح البديل/ زوج البلاغة- الخطابية: يذهب أقطاب علم المصطلحات المعاصرون إلى أن النص يؤدي دوراً حاسماً في بلورة قائمة المصطلحات وضبط علاقاتها وإحالاتها المفاهيمية "باعتبار أن النص هو المكان الذي من دونه يكون المصطلح مجرد عنصر ميت يمكننا وضعه جانباً ودراسته على مهل، ولكننا سنسعى فهمه لا محال لأننا لن نراه يتفاعل مع محيطه الطبيعي"¹. وينبع هذا التصور لأهمية النص في مجال تحديد الجريد الاصطلاحي وما يتصل بذلك من تنظيم اشتغاله في النص الواحد والنصوص المتعددة المنتمية لحقل تخصصي معين، من مقولة أساسية في علم المصطلحات، يتم التمييز بواسطتها بين الكلمة والمصطلح. ففي حين لا تحيل الكلمة على سوى سمات دلالية مجردة، يشترك فيها عدد لا يحصى من الأفراد، ولا يكون لها مرجع مجسد في الواقع، يحيل المصطلح على متصور ذهني يرتبط ارتباطاً تلازمياً بمرجع متعين في الواقع. لذلك تجدنا نبصُر بهذا المتصور الذهني ونعانيه ونعابنه، ثم نرشح له وحدة معجمية نجعلها اصطلاحاً عليه.

¹ هنري بيجوان- فيليب توارون، م س، ص 39.

فالمصطلحات ليست جزءاً من المعجم، إنما الخطاب هو الذي ينشئها. والكلمات التي يصفها المعجمي بكونها تجسدية ليست في الحقيقة مصطلحات، أو [كلمات] تجسدية بذاتها، وبوصفها كلمات تنتمي إلى معجم اللغة. فالذي يميزها هو استعمالها في الخطاب، وما يعطيه لها من موقع مركزي في بناء اصطلاحيتها¹.

للاستدلال على هذا الذي تقدم، نضرب مثلاً لترجمة مصطلح Rhétorique ذاته في عدد من المترجمات العربية، (صولة، ص 297؛ المهيري- صمود 1، ص 490، مهيري- صمود 2، ص 141) حيث يفضل الباحثون ترجمة هذا المصطلح بالبديل العربي "خطابة". وإنه لأمر محير للقارئ، لأن الموقع الذي تحتله كلمة "خطابة" في النص المترجم، أو في الإحالة عليه، إنما هو الموقع الذي تصلح فيه كلمة بلاغة. تأمل العبارات التالية: *«ومهما كان الأمر فالخطابة قننت ونشّطت ووصفت الممارسات التواصلية...»* (المهيري- صمود 1، ص 492) *«في فرنسا اختفت البلاغة»*² رسمياً من برنامج الجامعة" (نفسه، ص 493) *«لم تعد الخطابة، وقد بتر على هذا النحو مكوناتها الفلسفي، ولقيت الحظوة لديها العبارة، فن خطاب ولكن فن أسلوب وانحصرت أساساً في دراسة أشكال اللغة المزينة»* (المهيري- صمود 2، ص 148) *«وأصبحت الخطابة تعريفاً للأدبي باعتباره نصاً أقل استقلالاً وانغلاقاً من كونه سياقاً في حد ذاته»* (نفسه، ص 151).

ولعل الذي حمل الباحثين على اختيار كلمة "خطابة"، هو أن التنظير البلاغي اليوناني القديم اقتصر على دراسة مدونة الخطابة، ولم يُجلّ على غيرها³. ولأجل إنارة هذه المسألة يجب علينا

¹ Michel LE GUERN, «Sur les relations entre terminologie et lexique», Meta: journal des traducteurs, vol. 34, n° 3, 1989, p. 340-343, p341.

² مصطلح "بلاغة" هنا ناشز، ويحيل في النص التعريفي إلى "خطابة" المصطلح الذي عنون به النص، ومثل المدخل التعريفي له.

³ حاول العمري تجنب هذا المأزق باقتراح بديل آخر هو "خطابية" يخص لريطوريقا أرسطو (محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 8) وهذا الحل محرج أيضاً، ويعترض عليه، بالتساؤل التالي: لماذا لم يخص الغربيون أنفسهم مصطلحاً لريطوريقا أرسطو؟

إبداء الملاحظات الآتية:

- **البلاغة ممارسة وتنظير:** تكون البلاغة ممارسة من خلال أنماط الخطاب المهيمنة في مرحلة تاريخية، فتمثل نصوص هذه الأنماط المدونة التي يشتغل عليه المنظرون، كما حصل عند قدماء اليونان الذين كانوا يقابلون بين فنون التخيل والمحاكاة من جهة، وفنون الإقناع والخطابة من جهة ثانية، فكانت البلاغة علماً خاصاً بدراسة الأنماط ذات الغاية الإقناعية مقابلاً للشعرية. وعندما تطورت هذه الممارسة وتحول التأثير الإقناعي إلى أنماط أخرى شفهية وكتابية كالرسالة مثلاً، انتقل التنظير البلاغي من الاشتغال على مدونة الخطابة إلى مدونات أخرى. هذا التمييز يشير إليه رولان بارت بقوله: **"البلاغة التي سيدور الحديث عنها هنا، هي تلك اللغة الواصفة (والتي يمثل "الخطاب" اللغة الموضوع، [بالنسبة إليها] التي سادت في الغرب من القرن 5 قبل الميلاد، إلى القرن 19 ميلادي... هذه اللغة الواصفة (الخطاب حول الخطاب) تضمن عدة تقاليد كانت حاضرة بالتزامن، أو بالتعاقب، حسب العصور، في [مسمى] "البلاغة"¹. فمتى كانت "الخطابة" لغة واصفة؟! وجب إذن التمييز بين النوع الأدبي أو النمط الخطابي والعلم الذي يدرسه.**

- **البلاغة مفهوم متغير متطور:** يستتبع التمييز بين ممارسة الخطابة والتنظير لها، النظر إلى التنظير بوصفه بحثاً عن كليات موضوعه، وهي الكليات التي تتجاوز الموضوع إلى كل ما يمكن أن يشاركه في الخصائص والسمات. ومن هنا يكون مسمى العلم الذي تحقق به التنظير أكثر تجريداً من مسمى موضوعه، لأن من مستلزمات التنظير الإحاطة بالظواهر المدروسة، ورُدُّ الأشباه إلى نظائرها. فمفهوم البلاغة الذي كان ملاصقاً للخطابة الجماهيرية والجدلية، وصل عن طريق تحولات كثيرة، ليبدل على أساليب التزيين اللغوي في كل الخطابات الأدبية، ومنها الفنون التخيلية. يقول روجي زوبار معلقاً على جهود مارك فيمارولي في توسيع مفهوم البلاغة، واستثمار مفاهيمها في دراسة الفنون الأدبية ككل، خاصة في كتابه "l'âge de l'éloquence" الصادر عام 1980: **"من اللافت للنظر أن هذه الاستباقيات**

¹ BARTHES Roland, op.cit , p173.

النظرية، التي كان يخشى أن تبقى محصورة في تقنيات شفوية، تبدى لاحقاً أنها ذات قيمة كبيرة في تحليل معظم الإنتاجات الأدبية: من المسرح إلى القصيدة الغزلية، ومن الرواية إلى النثر العادي¹.

- البلاغة بلاغات: يكشف لنا التتبع الاستطلاعي لدوران مصطلح "بلاغة" عند الغربيين المعاصرين، عن وجود تعدد في الطروحات التي تطوّر المفهوم وتبني حوله نظرية أو اتجاهاً في دراسة الخطاب وتحليله. فمن البلاغة الجديدة (بيرلمان وتتيكاه)، إلى البلاغة العامة أو المعممة² (جماعة مو^μ)، إلى البلاغة المنحصرة³ (عند جيرار جينات)، إلى بلاغة الوجوه (فونتانى⁴ مجدداً لديمارسي)⁵، إلى بلاغة الصورة (جماعة مو^μ)، وغيرها من البلاغات التي يرافقها المصطلح الأجنبي Rhétorique نفسه، تتوزع الإحالة المفاهيمية للمصطلح على حقول بحث، لا تشتغل على الخطابة حصراً، وإنما تمد عينها إلى ما ينتمي لأنماط خطابية متنوعة، تخيلية وتداولية. فلا مجال هنا لاستعمال "خطابة" للدلالة على حقول تنظيرية بهذا التنوع وهذا التباين.

الخلاصة التي يمكننا أن نخرج بها من هذا التحليل، هو أن العلاقة بين البلاغة والخطابة هي علاقة احتواء. وأننا إذا اعتمدنا مصطلح "خطابة" للدلالة على هذا الموروث العائد إلى قرون مديدة، والمستمر معنا في حاضرنا، فما هي البلاغة؟

¹ Roger ZUBER, «Rhétorique et belles-lettres», Dix-septième siècle 2007 /3(n°236) , p.427-432, p 428

² في كتابهم الجماعي: La rhétorique générale.

³ في كتابه: La rhétorique restreinte.

⁴ خاصة في كتابه: Traité général des figures de discours.

⁵ حول هذه البلاغات الثلاث المنحصرة والعامة وبلاغة الوجوه، ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 72-76.

⁶ في الكتاب الجماعي: Traité du signe visuel ; pour une rhétorique de l'image، ترجمته إلى العربية: سمر محمد سعد، تحت عنوان: بحث في العلامة المرئية؛ من أجل بلاغة للصورة، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة - مركز الوحدة العربية، 2012.

بيبلوغرافيا البحث

أ. مدونة البحث

1. أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط1، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، 2011.
2. سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة/ عرض وتقديم وترجمة، ط 1، بيروت- الدار البيضاء، دار الكتاب اللبناني - سوشيريس 1985.
3. صابر الحباشة: التداولية والحجاج/مداخل ونصوص، دمشق، سوريا، صفحات للدراسات والنشر، 2008، ط1.
4. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، رقم 164، 1992
5. عبد القادر المهيري، حمادي صمود 1 (ترجمة): ب. شارودود ود. مانغونو في: معجم تحليل الخطاب، د ط، تونس، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2008.
6. عبد القادر المهيري، حمادي صمود 2 (ترجمة): أوزوالد ديكرود-جان ماري شافار: المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة، د ط، تونس، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا للنشر، 2010.
7. عبد القادر المهيري (ترجمة): كريستيان بلانتان: الحجاج، د ط، تونس، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا للنشر، 2008.
8. عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة" لبرلمان وتتيكا، ضمن: مجموعة باحثين (فريق البحث في البلاغة والحجاج): نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تحت إشراف حمادي صمود، سلسلة: آداب، المجلد XXXIX، - تونس، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس 1 - كلية الآداب، دت.
9. مجموعة من الأساتذة (ترجمة): ج. موشر، آ. رويول: القاموس الموسوعي للتداولية، إشراف: عز الدين المجذوب، المركز الوطني للترجمة، تونس، منشورات دار سيناترا للنشر، 2010.
10. محمد العمري 1: في بلاغة الخطاب الإقناعي/مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، ط 2، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق 2002.
11. محمد العمري 2: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د ط، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2005.
12. محمد العمري 3 (ترجمة): هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، دط، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 1999.
13. محمد سالم محمد أمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، بيروت،

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008.

14. محمد صالح ناجي الغامدي (ترجمة): فيليب بروتون وجيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج، ط 1، جدة - السعودية، مركز النشر العلمي (جامعة الملك عبد العزيز)، 2011م.
15. محمد الولي وعائشة جرير (ترجمة): فرانسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2003.
16. منذر عياشي (ترجمة): أوزوالد ديكر - جان ماري سشايفار: القاموس الموسوعي الجديد في علوم اللسان، طبعة منقحة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، دت.
17. هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن: مجموعة باحثين (فريق البحث في البلاغة والحجاج): نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تحت إشراف حمادي صمود، سلسلة: آداب، المجلد XXXIX، منوبة - تونس، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس 1، كلية الآداب، دت.
18. Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, 5ème édition 1988, université de Bruxelles.

ب. مراجع البحث

1. أبو يعرب المرزوقي: أشياء من النقد والترجمة، ط 1، بيروت، دار جداول، 2012.
2. أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، ترجمة عز الدين الخطابي، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة - مركز دراسات الوحدة العربية، 2010.
3. الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ج 1، ط 2، القاهرة، شركة مكتبة مصطفى الجلي وأولاده، 1965.
4. جاك ديريدا: أحادية الآخر اللغوية، ترجمة عمر مهيبيل، ط 1، بيروت - الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2008.
5. جورج موان: علم اللغة والترجمة، ترجمة أحمد زكريا إبراهيم، ط 1، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002.
6. حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، دت، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
7. شارل بوتون، اللسانيات التطبيقية، ترجمة قاسم المقداد ومحمد رياض المصري، د ط، دمشق، دار الوسيم للطباعة والنشر، دت.
8. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط 6، دار المعارف، القاهرة 1983، ص 271 وما بعدها. وينظر أيضاً: فرانسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير، الدار البيضاء،

..... الترجمات العربية لمصطلحات البلاغة الجديدة

أفريقيا الشرق، 2003.

9. عبد الفتاح كيليطو: **أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية**، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، ط 1، الدار البيضاء، در تويقال، 2013.

10. عبد القادر الزاكي، **من النموذج النصي إلى النموذج التفاعلي للقراءة**، ضمن: نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24.

11. نورمان فاركلوف: **تحليل الخطاب**، التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبه، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

12. هنري بيجوان، فيليب توارون (تحت إشراف): **المعنى في علم المصطلحات** (مقدمة المترجمة)، ترجمة ريتا خاطر، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

13. Daniel GOUADEC, «Terminologie, traduction et rédaction spécialisées», *Langages* 2005/1(n°157).

14. Gaudin François, « *Socio terminologie - une approche sociolinguistique de la terminologie*», Bruxelles, De Boeck Supérieur, «Champs linguistiques», 2003.

15. Françoise CANON-ROGER, « Traduction et réélaboration interprétative », *Revue française de linguistique appliquée* 2009/1(Vol.XIV),p. 25-38.

16. Léon CLEDAT–Dictionnaire étymologique de la langue française, 3éd,1914, PARIS, Librairie Hachette et Cie.

17. Michel LE GUERN, «Sur les relations entre terminologie et lexique», *Meta: journal des traducteurs*, vol. 34, n° 3, 1989, p. 340-343.

18. Roger ZUBER, «Rhétorique et belles-lettres», *Dix-septième siècle* 2007/3(n°236), p.427-432.

19. Roland BARTHES, «L'ancienne rhétorique [Aide-mémoire] », in : *Communications*, 16, 1970. *Recherches rhétoriques*. pp.172-223.

فوضى المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية الجزائرية ودور مشروع الذخيرة العربية لعبد الرحمان الحاج صالح في توحيدها

سارة لعقد

جامعة أبو القاسم سعد الله

الجزائر

تمهيد

إنّ الاهتمام بالمصطلحات العلمية صار هاجساً يؤرق عديد الباحثين العرب وحتى الغرب في لغاتهم وذلك نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي الحديث، فقد حدث أن أصبح هناك كمّ هائل من المخترعات والمكتشفات يومياً فبات إيجاد المصطلح الدال على المعنى الحقيقي لذلك المخترع أو المكتشف الجديد عسيراً حتى في اللغة الأصلية، فما بالك واللغات التي تستورد المُنْتَج والمصطلح الدال عليه في الآن نفسه؛ وهذا ما يفسر لنا التزايد الكبير في عدد المصطلحات العلمية والتقنية في اللغة العربية؛ ففي المشرق يترجمون عن الإنجليزية وفي المغرب يترجمون عن الفرنسية وتختلف المصطلحات وتتعدد بذلك؛ ولعل التعدد لن يؤثر في أيّ شئ كتأثيره في الكتب المدرسية وفي تلاميذ المدارس بالتحديد؛ والملاحظ على الكتب المدرسية في التخصصات العلمية في المدرسة الجزائرية أنّها تعاني فوضى مصطلحية في شتى التخصصات العلمية؛ في الوقت الذي نجد فيه من العلماء من يُلحّ على ضرورة تقنين لغة العلوم لأنها تتميز بالدقة والاختصار والبساطة؛ ولعلّ جلّ هذه المميزات تستمدّها اللغة العلمية من المصطلحات العلمية؛ فأين لغتنا العلمية المستعملة في الكتب المدرسية من هذا والمصطلحات العلمية تتخبط بين مدّ وجزر المصطلح العلمي العربي والفرنسي والإنجليزي وذلك المزج بين المصطلحات العلمية والمختصرات والرموز؟

1. مفهوم المصطلح العلمي Le terme scientifique

لقد أصبح من الضروريّات والحتميات أن نركز في بحثنا على المصطلحات العلمية التي نستعملها سواء تلك المتداولة في حواراتنا أم التي نستعملها في كتبنا المدرسية، تلك التي أبسط ما يمكن أن يقال عنها إنّها: «عبارة عن مجموعة من الكلمات تم الاتفاق على استعمالها من طرف مجمع من الباحثين لتقوم بوظيفة تتمثل في تجسيد نتائج البحث ووضعها في قالب لغوي يضمن تواصلها فعّالاً ومفيداً بين مختلف فئات المستعملين»¹.

معنى هذا أنّ من أهم شروط المصطلحات العلمية، التي هي مجموعة من الكلمات في نظر الباحث، تتمثل وظيفتها الأساسية في تجسيد النتائج التي توصل إليها الباحثون والعلماء: على أن يتفق حولها مجمع الباحثين والمختصين في حقل علمي معين في شكل يضمن لهذا المصطلح الشيع بين المستعملين، واللافت للانتباه أنّ الباحث قد استعمل لفظ (كلمة) للدلالة على المصطلح العلمي، والأصل في ذلك أنّ الكلمات انتقلت من اللغة العامة إلى اللغة الخاصة ولا يحدث ذلك إلا وفق شروط² أهمها:

- أن توضع الكلمة للدلالة على مفهوم خاص ليس المتداول في الاستعمال الخاص.
- أن يشيع استعمالها بين أهل الاختصاص.

ويؤكد ما ذهب إليه في مكان آخر أثناء حديثه عن تعريف المصطلح العلمي معتبراً إياه اللفظ أو الكلمة التي «تدخل في نطاق المعرفة والتي صاغها أو ابتكرها أو اقتبسها الباحثون والدارسون للتعبير عن نتائج أعمالهم»³، ويتفق هذا التعريف مع التعريف الذي ورد في مؤلّف

¹ أحمد الحطاب: المصطلحات العلمية وأهميتها في مجال الترجمة - العلوم الطبيعية كنموذج -، ندوة لجنة اللغة العربية لأكاديمية المملكة المغربية في " الترجمة العلمية"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المملكة المغربية، 1995م، ص 186.

² رجاء وحيد دويدري: المصطلح العلمي في اللغة العربية - عمقه التراثي وبعده المعاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1، 2010م، ص 153.

³ أحمد الحطاب: المصطلحات العلمية وأهميتها في مجال الترجمة - العلوم الطبيعية كنموذج -، ص 186.

..... فوضى المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية الجزائرية

رجاء وحيد دويدري، والذي نقلته عن توصيات مجلس مجمع اللغة العربية في دورتيه السنتين عام 1994م، الواحدة والسنتين عام 1995م والذي يقضي بأنّ المصطلح العلمي: «لفظ اتفق على اتخاذه للتعبير عن معنى من المعاني العلمية فالتصعيد مصطلح كيماوي، والهيوّلى مصطلح فلسفي، والجراحة مصطلح طبي، والتطعيم مصطلح زراعي»¹ ثم تتابع المؤلفة حديثها عن تعريف المصطلح العلمي الذي هو: «لفظ يصطلح عليه أهل العلم المتخصصون للتفاهم والتواصل بينهم»². من هذا التعريف نجد أنّ المصطلح العلمي هو: لفظ يضعه أصحاب تخصصٍ ما للتواصل فيما بينهم، وهذا ما يجعل من لغتهم لغة خاصة فيما بينهم باعتبار أنهم الواضعون لتلك المفاتيح والركائز التي تميز لغتهم عن اللغة العامة؛ أو هو «مجموع الكلمات التقنية التي تنتمي إلى علم، أو فن، أو مؤلف، أو مجموعة اجتماعية؛ مثلاً: اصطلاح الطب أو اصطلاح المعلوماتيين»³.

ويذهب علي القاسمي إلى أنّ المصطلح العلمي، الذي عبّر عنه بالمصطلح التقني قائلاً: «مجموعة من الرموز اللغوية تدلّ على مفاهيم تتعلق بفرع من فروع العلم أو التكنولوجيا»⁴. أما المصطلح العلمي في الدراسات الغربية فقد جاء تعريفه كما يلي: «المصطلح العلمي هو مخترع أو مقترح من قبل مؤلّف عارف ومتمكن من جوانب الشكل والمعنى، ولديه بطريقة أو بأخرى حق الحياة أو الموت»⁵، والملاحظ على هذا التعريف أنّه لا يختلف كثيراً عن ما تداوله الباحثون العرب في إطار الحديث عن المصطلح العلمي، مشيراً إلى ضرورة أن يكون الواضع على دراية بجانب الشكل، وجانب المعنى.

¹ رجاء وحيد دويدري: المصطلح العلمي في اللغة العربية - عمقه التراثي وبعده المعاصر -، ص 21.

² رجاء وحيد دويدري: المصطلح العلمي في اللغة العربية - عمقه التراثي وبعده المعاصر -، ص 21.

³ سيلفيا بافيل وديان نولي: دليل الاصطلاح، ترجمة خالد الأشهب، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2016م، ط 1، ص 19.

⁴ علي القاسمي: علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 2008م، ص 193.

⁵ Sur la direction de Henri Béjout et Philippe THOIRON, Le sens en terminologie presse universitaires de Lyon, 2000, P13.

مما سبق يمكننا القول إنّ المصطلح العلمي هو: اللفظ أو الكلمة أو العبارة التي اتفق حولها المختصون في علم ما لتعبر عن فكرة أو مفهوم ما.

1.1. شروط المصطلح العلمي:

وقد حدد علي القاسمي شرطين للمصطلح العلميّ الجيّد هما¹:

- ينبغي تمثيل كلّ مفهوم أو شيء علميّ بمصطلح مستقل.
 - عدم تمثيل المفهوم أو الشيء العلميّ الواحد بأكثر من مصطلح واحد.
- وأضاف علي القاسمي إلى الشروط السابقة شروطاً² أخرى في كتابه نذكر مثلاً:
- الدقّة، والايجاز، والسهولة، وقابلية الاشتقاق.
 - شيوع الاستعمال.

2.1. وضع المصطلح العلمي:³

- جمع المصطلحات في حقل من الحقول العلميّة.
- تحليلها وتنسيقها ومعرفة مرادفاتها.
- تعريفاتها باللغة ذاتها أو مقابلاتها باللغة الأجنبية أو اللغات الأجنبية.
- جمع المفاهيم الخاصة بذلك الحقل العلميّ.
- دراسة العلاقات الموجودة بالفعل ثم وصف الاستعمال الحقيقي.

2. واقع المصطلحات العلمية والتقنية في المدرسة الجزائرية

إنّ تتبّع حركة التعريب التي عرفتها جُلّ الدول العربية والتي كانت نتيجة وعي هؤلاء بمدى أهمية اللغة في تحقيق السيادة الوطنية، وتجسداً للهوية، سيجد أنّه منذ البدايات الأولى للحركات

¹ علي القاسمي: علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ص 193.

² علي القاسمي: علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ص 273.

³ علي القاسمي: علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ص 272.

..... فوضى المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية الجزائرية

التحرُّرية التي عرفتها دول العالم العربي عملت كل من سورية والعراق على اتخاذ اللغة العربية لغة التدريس في مدارسهم بدلاً من اللغة التركية¹، ثم انتقلت الحركة التحررية الثقافية إلى دول المغرب العربي حيث عملت هذه الأخيرة على التخلص من الوجود الفرنسي بإبدال اللغة الفرنسية باللغة العربية في مدارسها، فقد كان لسياسة التعريب أثرها البارز في إعادة العربية إلى المكانة التي يجب أن تكون فيها مستفيدة من تجربة دول المشرق في ذلك.

لقد كانت هذه الدول تدرك مدى أهمية نقل العلوم والمعرفة من الدول المتطورة، التي تسجل يومياً عدداً كبيراً من الاختراعات والاكتشافات، يقابله عدد هائل من المصطلحات العلمية والتقنية، لذلك فقد كان لزاماً على تلك الدول أن تستدرك ما فاتها من مصطلحات كي تلحق بركب الدول المتقدمة، وهذا ما خلق مشكلاً كبيراً تمثل في تعدد المصطلحات العربية الدالة على المفهوم الواحد والمقابلة للمصطلح الغربي الواحد، فدول المشرق تترجم عن الإنجليزية ودول المغرب تترجم عن الفرنسية، وبعد نجاح سياسة التعريب اتجهت هذه الدول إلى محاولة توحيد تلك المصطلحات العلمية والتقنية، فتلك «الجهود على نزاهتها أدت إلى وفرة في المصطلح، وإلى تعدده الذي انتهى إلى فوضى مصطلحية، وركاكة في اللغة العلمية، وأصبحت هذه الوفرة المصطلحية عقبة كأداء في طريق التعريب»²، إن أول مؤتمرات التعريب نادى بتوحيد المصطلح العلمي والتقني في الوطن العربي نظراً إلى أهمية ذلك.

إن إمعان النظر في الفوضى المصطلحية التي آل إليها الوطن العربي والتي زرعت الفلق بين العلماء والباحثين، ليست بالغريبة وكان لا بد أن تسير في هذا المسار نظراً إلى أنها كانت منذ البداية جهوداً فردية وجماعية في أحيان كثيرة، وغير منظمة وفق سياسة لغوية تضمن لها السير في حُطى دقيقة تتجنب بها الوقوع في تعدد المصطلح العلمي للمفهوم الواحد، لكن سيعظم المشكل حين يقع ذاك التعدد في الدولة الواحدة وهو واقع ما حدث ويحدث في المدرسة الجزائرية.

لسنا نعيب المناهج ولا الكتب المدرسية، ونحن على يقين بأن الإصلاح عمل على تغيير

¹ ينظر: رجا وحيدي دويدري: المصطلح العلمي في اللغة العربية عمقه التراثي وبعده المعاصر، ص 263، 264.

² مصطفى عوض بني نياح: التخطيط اللغوي والتعريب، التعريب، العدد 42، 2012م، ص 109.

أشياء كثيرة عادت بالنفع على التلاميذ وساهمت في إنجاح العملية التعليمية التعلمية. لكن إذا ألقينا نظرة على الكتب المدرسية والعملية خاصة فإننا سنقف أمام ظاهرة تعدد المصطلح العلمي المستعمل في تلك الكتب والدال على مفهوم واحد في الأصل؛ لكن تعدد المصطلح في المدرسة الجزائرية محير جداً، فتجد الأساتذة يستعملون المصطلح العربي تارة، والفرنسي تارة أخرى، والرمز المصطلح عليها دولياً أو الاختصارات التي تقابل هذا المصطلح 'والأمر المقلق هو ما نراه من محاولات عشوائية هادفة إلى التراجع، تسعى هذه المحاولات إلى تغيير وجهة المدرسة والتقليل من شأن اللغة العربية التي هي لغة المدرسة'¹. ففي الوقت الذي يسعى البعض فيه إلى التخلص من التعدد المصطلحي في العربية في حد ذاتها نحو استعمال مصطلح (الهيولى = السيتوبلازما = السيتوبلازم = البلازما) و(الغلوكوز = الجلوكوز) نجد المنظومة التربوية في مطلع الإصلاح تستعين بجملة من الرموز والاختصارات الفرنسية والإنجليزية في العلوم الطبيعية والرياضيات والفيزياء في الثانوي، والمتوسط. وحتى يومنا هذا لم يذكر من عمل على هذا التغيير، أي السبب الكامن وراء إبعاد الرموز العربية وإحلال الفرنسية محلها. وإذا تحدث البعض في الموضوع أو طالبوا بما هو أكثر من مجرد الرموز والاختصارات فإنهم يدعون أن الفرنسية لغة العلم وأنها الأقدر على نقل العلوم، والواقع أن تلك الرموز والاختصارات أمور شكلية لا تفيد التلميذ بشيء سوى إرباكه، وزرع الشك في مكتسباته، خصوصاً بالنسبة لدفعات النظام القديم، أما بالنسبة لتلاميذ النظام الجديد فإن تردد الأساتذة على تلك المصطلحات العربية التي تدل على المفهوم الواحد، والمصطلح الفرنسي والإنجليزي في أحيان كثيرة، أضف إلى ذلك الرموز والاختصارات العلمية يجعله في حيرة من أمره، أيها أصح في الاستعمال؟ وبعبارة أخرى أي هذه الاصطلاحات يدل على المفهوم الذي هم في صدده.

ومثال على المصطلح العربي ومقابله الفرنسي يوضحه الجدول التالي:

¹ عبد القادر فضيل: واقع السياسة اللغوية في بلادنا بعد خمسين سنة من عمر الاستقلال، المجلس الأعلى للغة العربية: اللغة العربية، العدد 31، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، الجزائر، 2014م، ص

..... فوضى المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية الجزائرية

المصطلح الأجنبي	المصطلح العربي
Masse	كتلة
Concentration	تركيز
Gravitation	جاذبية
Liquide	سائل
Poids	ثقل
Acide Ribo Nucléique	الحمض الريبوي النووي

يمثل الجدول السابق مجموعة من المصطلحات العلمية التي جرى استعمالها في الكتب المدرسية الموجهة للمدرسة الجزائرية في مرحلتي المتوسط والثانوي في مادتي العلوم الطبيعية والحياة والفيزياء، فضلاً على الرياضيات التي باتت تقريباً تدرس بالفرنسية. والملاحظ أنّ المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية الجزائرية تتأرجح بين المصطلح العلمي العربي، والمصطلح العلمي الفرنسي؛ حيث نجد التلاميذ يستعملون المصطلحين معاً، ليس الخطأ في التلميذ، ولكن فيمن رأى أنّ هذا لا يؤثر في العملية التعليمية التعلمية.

وفيما يلي مثال على المصطلحات العربية وما يستعمل من رموز ومختصرات:

الرمز أو المختصر	المصطلح العربي
M	كتلة
C	تركيز
G	جاذبية
L	سائل
P	ثقل
ARN	الحمض الريبوي النووي

يمثل هذا الجدول المصطلحات العلمية العربية والمختصرات والرموز التي تستعمل كمقابلات للدلالة عنها.

إنّ تعدّد المصطلح العلمي سواء بلغته الأصلية (الفرنسية) أو العربية أو تلك المختصرات الفرنسية يضيق الخناق على العربية أكثر فأكثر، بل إنه إعلان من أصحابه عن البدء في تحقيق مطامعهم الخفية، ولعل أسمى المطامع التي يرومونها هي تدريس المواد العلمية باللغة الفرنسية، بل إنّ تلك النيات الخفية لفرنسة المدرسة الجزائرية بدأت تتكشف، فهناك من يرى بأن الطلبة الجامعيين في التخصصات العلمية يعانون من عدم التحكم الجيد في اللغة الفرنسية مما يستوجب ضرورة فرنسة التعليم الثانوي وهلم جرا، معتبرين التعليم العالي كما وصفه أحد الباحثين بقوله هو القلعة المحصنة التي لا تنفذ إليها العربية.

صدق الباحث في مقولته تلك ففي الوقت الذي كان من المفروض فينا أن نفكر في سياسة لغوية تسمح لنا بتعريب التعليم العالي بشكل منظم ودقيق، وبعد «أن أصبحت اللغة العربية هي لغة التعليم في جميع الأطوار باستثناء التعليم الجامعي الذي مازالت فيه الفرنسية تسيطر على الفروع الطبية والتقنية في غياب تخطيط سياسة لغوي»¹ فإنّ «الواقع اللغوي الجزائري في هذه الأيام يتميز بتراجع فظيع للغة العربية أمام زحف الفرنسية»².

ولعل عملية إدخال المصطلحات الفرنسية في متون الكتب المدرسية إضافة إلى الإنجليزية في مساردها هو ما جعل المصطلحات العلمية تتعدد سواء في الكتب المدرسية أم في استعمال التلاميذ، وقبل هذا لأبد لنا أنّ نشير إلى أنّ تعدد المصطلحات العلمية في الوطن العربي كان نتيجة لـ³:

- تعدد المؤسسات الواضعة للمصطلحات العلمية: ومن أهم المؤسسات البحثية التي تضطلع بوضع المصطلحات العلمية: المجمع اللغوية والعلمية، لجان الترجمة والتعريب، والجامعات، دور نشر المعاجم، مجالس اللغة العربية.
- اختلاف في منهجية وضع المصطلحات العلمية: هناك من يعتمد الترجمة، هناك من يعتمد الاختلاف في منهجية وضع المصطلحات العلمية: هناك من يعتمد الترجمة، هناك من يعتمد الاقتراض والتعريب... إلخ.

¹ مليكة النوي: التخطيط اللغوي والنظام التربوي بين المأمول والمعمول، ملتنقى: التخطيط اللغوي، 2012م، 11/2.

² عابد بوهادي: تحديات اللغة العربية في المجتمع الجزائري، ص 117.

³ علي القاسمي: علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، ص 233-234.

• تعدد المصطلح العلمي في اللغة المصدر في حد ذاتها.

• ثراء اللغة العربية بالمتراذفات.

يمكن القول إنّ الجزائر اليوم تعاني انعدام وجود أي سياسة لغوية واضحة يمكن الاعتماد عليها وتضمن اعتماد المصطلحات العلمية العربية دون غيرها، ويمكن أن تسعى بذلك لفرض الوجود العربي، وترسيخ الهوية من خلال برمجة اللغة، ومحاولة ترقيتها لا محاولة التأكيد أنّها لا تصلح أن تكون لغة علم، وراقي، وتقدم كما يدعي البعض. الحقيقة التي لا مهرب منها والتي يجب أن يصبح الكل على قناعة بها أنّه ليس للغة دخل في التقدم والتخلف، ولكن أصحابها عامل مهم في تأكيد أحد الوجهين، فتقدم أبناء لغة ما يتضح من خلال أعمالهم ومنجزاتهم التي لا تتجز بلغات أخرى؛ بل بلغتهم؛ فعدم قدرة البعض على الخلق والإبداع وإفادة أهله ولغته يجعلهم يحاولون اللجوء إلى أي شيء يخفي عيوبهم، وهذا هو حال الكثيرين في الجزائر فإنّهم اللغة الفرنسية مثلا لا يعني أبدا كما يعتقد البعض قمة الرقي والتحضر، والجهل بها قمة التخلف.

3. دور مشروع الذخيرة العربية في توحيد المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية

يعتبر مشروع الذخيرة العربية من أهم المشاريع التي عرفتتها اللغة العربية حتى يومنا هذا، فقد قدّم المشروع لأول مرة كاقترح للّسانيّ الجزائري عبد الرحمان الحاج صالح في أحد مؤتمرات التعريب في قطر عام (1986م) يهدف هذا الاقتراح إلى حفظ وحماية التراث الثقافي والعربي الإسلامي، كما دافع الحاج صالح عن فكرة توحيد المصطلحات العلمية.

وبعد مرور سنوات من طرح المشروع استطاع الحاج صالح أن يقنع العديد من المؤسسات الثقافية بأهمية المشروع، وفي عام (2009م) انعقدت ندوة دولية بالجزائر العاصمة ضمّت ممثلي الدول العربية، وكذا جامعة الدول العربية من أجل اعتمادها بشكل رسمي، وفي عام (2011م) في إطار الندوة الوطنية التأسيسية للذخيرة العربية التي انعقدت بالجزائر تمّ إنشاء اللجنة الوطنية

للذخيرة العربية حيث نصّب الشريف مربيعي الأمين العام للمشروع¹.

ومع كل هذه التطورات التكنولوجية التي يعرفها العالم بأسره، رأى «عبد الرحمان الحاج صالح» أنه من المفروض أن تتضافر الجهود من أجل حماية كل ما يخص العربية بطريقة ثمّاشي متغيرات العصر، لذلك فبالنسبة له لا بد أن نستغل الحاسوب لأنّ له القدرة على تخزين وحفظ كل ما أنتجه الإنسان العربي منذ بدأت عملية التدوين؛ أي منذ أقدم نص مكتوب في اللغة العربية؛ ومن هنا جاءت فكرة الإنترنت العربي أو "الذخيرة العربية".

والذخيرة العربية على حد ما جاء في أحد مقالات عبد الرحمان الحاج صالح في العدد الثاني من مجلة المجمع الجزائري للغة العربية: «بنك آلي من النصوص؛ وليست مجرد مدونة أدخلت في ذاكرة الحاسوب، وهي ليست CDROM كما يقولون، بل مجموعة من النصوص أدمجت على الطريقة الحاسوبية، حتى يتمكن الحاسوب من مسحها كاملة، أو جزئياً، ولها عدد من البرامج الحاسوبية وضعت خصوصاً لإلقاء أنواع خاصة وكثيرة من الأسئلة على الذخيرة»².

ومعنى هذا أنّ الذخيرة العربية عبارة عن مسح للنصوص العربية منذ كتب أول نص عربي إلى يومنا هذا؛ حيث ستحاول الاطاحة بما هو مستعمل من اللغة، فاللغة بالنسبة له ليست وضع فقط بل استعمال أيضاً؛ حيث حاول من خلالها الحاج صالح أن يستغل قدرة الحاسوب على حفظ ذلك الكم الهائل من المعلومات، ولكن مطمحه من هذا كله أن يسهل على الباحث العربي الوصول إلى ما يريده في بحثه في ثوانٍ. ولعل قيمة «مشروع علمي حضاري قومي يتعدى طاقة الفرد الواحد أو الجماعة الواحدة أو الدولة الواحدة؛ فهو مشروع جماعي تتعاضد على إنجازه

¹ عمر بلخير: مشروع الذخيرة العربية ودورها في النهوض بالمستوى الثقافي والحضاري والعلمي لشعوب البلدان

العربية والإسلامية، 2015م، ص 10.

² عبد الرحمان الحاج صالح: مشروع الذخيرة العربية، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثاني، ديسمبر

2005م، ص 287.

مؤسسات علمية عربية عديدة»¹، ليست لتسهيل عملية البحث؛ بل حفظ العربية من أي خطر يهددها.

1.3. توحيد المصطلحات العلمية في الكتب المدرسية:

يعتبر اللساني الجزائري عبد الرحمان الحاج صالح من أهم وأبرز اللسانيين العرب الذين شغلته فوضى المصطلحات بوجه عام والعلمية سواء في الكتب المدرسية أو العلمية بوجه خاص، لذلك كان مشروع الذخيرة إعلاناً صريحاً منه عن إرادته في توحيد المصطلحات العلمية وقد ظهر ذلك جلياً في مقالاته العديدة، حيث تناول الموضوع في مقال له في العدد الثامن عشر من مجلة المجمع الجزائري للغة العربية تحت عنوان: "الذخيرة العربية ودورها في شيوع المصطلحات وتوحيدها"، إن أهم شيء دفع به إلى التفكير في مثل هذه المشاريع عجز مختلف المؤسسات البحثية العربية من مجامع ومجالس وجامعات على توحيد المصطلحات العلمية على نطاق واسع، إلا تلك الأعمال القليلة التي قام بإنجازها مكتب التنسيق والتعريب، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وكذا وقوع المستخدمين في تعدد المصطلحات العلمية والتقنية باللغة العربية وانتشار المصطلح العلمي وتداوله كما هو في لغته الأصل؛ أي باللغة الفرنسية أو الإنجليزية بدلاً من محاولة ترجمته والإتيان بما هو مقابل له باللغة العربية. وهذا ما سبب تعددًا وتداخلًا آلت إلى بلبلة في الميدان العلمي «وهذا خطير جداً. ولذلك لا بد من إنترنت عربي يُظهر محتواه الاستعمال الحقيقي للغة العربي. وستتوحد بذلك المصطلحات تلقائياً»².

ويذهب الحاج صالح إلى أن «المصادر الثلاثة لشيوع الألفاظ وانتشارها انتشاراً واسعاً هي الأسرة المثقفة، والمدرسة والجامعة، ووسائل الاتصال»³، ويشير إلى أن البدايات الطامحة إلى

¹ بشير ابرير: الذخيرة العربية مشروع علمي حضاري، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الرابع، ديسمبر 2006م، ص 36.

² عبد الرحمان الحاج صالح: الذخيرة العربية ودورها في شيوع المصطلحات وتوحيدها، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 18، السنة التاسعة، ص 13.

³ عبد الرحمان الحاج صالح: الذخيرة العربية ودورها في شيوع المصطلحات وتوحيدها، ص 13.

توحيد المصطلح العلمي واللغوي بوجه عام يعود إلى فكرة الرصيد اللغوي الوظيفي من سنة 1975 إلى 1980 حيث أشرفت عليه الحكومات المغربية الثلاثة: تونس، والجزائر، والمغرب؛ وقد تمّ استثمار تلك المفردات والمصطلحات التي كانت متداولة من قبل التلاميذ ومن ثمّ أدمجت في الكتب المدرسية على اعتبار أنّ المدرسة هي التربة الخصبة التي يجري فيها استثمار ما قد تمّ التوصل إليه، وهذه المؤسسة هي التي تضمن للمصطلحات والمفردات الانتشار في المجتمع، لأنّ الطفل سينقل ما تعلمه إلى أسرته ومن ثمّ إلى مجتمعه.

ولعل أهم أهداف الذخيرة العربية إنجاز المعجم الآلي للمصطلحات العلمية والتقنية المستعملة في العربية.

وبهذا الشكل يكون الحاج صالح من أهم اللسانيين الذين كان لهم الدور الكبير في محاولة توحيد المصطلحات العلمية والتقنية، وبخاصة ما تعلق منها بالمدرسة العربية، وليس المدرسة الجزائرية فحسب وهذا كله في إطار مشروع أوسع هو مشروع الذخيرة العربية.

الخاتمة

لقد خلصنا من خلال بحثنا في هذا الموضوع إلى ما يلي:

- تعدد المصطلحات التي تدل على المعنى الواحد في الكتب المدرسية.
- تعدد المصطلحات العلمية يؤدي إلى حدوث خلل في العملية التعليمية التعلمية حيث يصبح التلميذ غير قادر على التمييز بين ما هو صواب وبين ما هو غير ذلك.
- برغم الجهود المبذولة في ميدان توحيد المصطلحات العلمية فإنها ما زالت تعاني نوعاً من التعدد المصطلحي والتداخل اللغوي.
- يجب على الأساتذة بوجه عام تجنب الوقوع في قضية عدم الاستقرار بين استعمال المصطلحات العلمية بين ما هو عربي وما هو أجنبي والالتزام بما هو عربي حتى لا ينتشتت ذهن التلميذ.

بحوث مترجمة

حول الترجمة

ترجمة: د. قاسم المقداد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق – سورية

صعوبة الترجمة ونجاحها¹

اسمحو لي بداية بالتعبير عن عرفاني بالجميل إلى القائمين على مؤسسة DVA للنشر في شتوتغارت لدعوتهم لي لكي أدلي بدلوي على طريقي وأشارك في منح الجائزة الفرنسية-الألمانية للترجمة لعام 1996. وقد قبلتم بأن أسم ملاحظاتي التالية بتحديات الترجمة وحظوظها".

أود أن أضع ملاحظاتي على الصعوبات الكبرى التي تواجهها الترجمة وعلى حظوظ نجاحها القليلة تحت عنوان "اختبار الترجمة" الذي وضعه المأسوف على روحه أنطوان بيرمان لدراسته الهامة الموسومة "الثقافة والترجمة في ألمانيا إبان الحقبة الرومانتيكية".

بداية، سوف أسهب كثيراً في تناول الصعوبات التي تواجهها الترجمة التي هي رهان صعب أولاً، ومستحيلة التحقق ثانياً. هذه الصعوبات يختصرها مصطلح "الاختبار" Epreuve بمعناه المزدوج: أي باعتباره عبئاً يقع على كاهل المترجم، بكونه مدة اختبار يمر بها هذا المترجم.

لإيضاح هذا الاختبار، أقترح عقد مقارنة بين "المهمة التي يضطلع بها المترجم" التي يتحدث عنها والتر بنجامان بالمعنى المزدوج الذي يخلعه فرويد على كلمة "عمل" Travail في دراسته: عمل الاستذكار travail du souvenir وعمل التنازل travail de deuil الذي ورد في دراسة

¹ مؤلف النصوص هو بول ريكور، ونشرت في كتيب حمل عنوان Sur la traduction في دار Bayard الباريسية (نيسان 2004).

أخرى له. ونشير أيضاً إلى أننا في الترجمة، نقوم بشيء من الإنقاذ كما نشهد بعض الضياع. فما الذي يا ترى ننقذه وما الذي نضيعه؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه عبارة الآخر Etranger (أو الآخر) في عنوان بيرمان. إن فعل الترجمة يصل شريكين ببعضهما بعض، هما الآخر (الآخر) وهي عبارة تشمل العمل والمؤلف ولسانه - والقارئ الذي يتوجه الكتاب المترجم إليه، وبينهما المترجم الذي يقوم بنقل الرسالة كاملة أو بتمريرها من لغة إلى أخرى. في هذا الوضع الوسيط، غير المريح، يقع الاختبار الذي أشرنا إليه والذي رأى فيه فرانز روزفايغ تناقضاً إذ يقول: "الترجمة هي القيام على خدمة سيدين: الآخر في كتابه والقارئ في رغبته بالتملك: مؤلف آخر (آخر)، وقارئ يسكن لغة المترجم نفسها". هذا التناقض يقود في حقيقته إلى إشكالية فريدة لما ينطوي عليه من رغبة في الأمانة وخوف من الخيانة. وهو تناقض فككه شليرماخر [...] إلى جملتين هما: "اقتياد القارئ نحو المؤلف واقتياد المؤلف نحو القارئ".

في هذا التبادل، وفي قلب العبارة هذا وهذه المقابلة العكسية يكمن معادل ما أسميناه سابقاً بالاستنكار والتنازل. لنتناول الاستنكار أولاً. الاستنكار الذي يمكن مقارنته بالمخاض، يستند إلى الترجمة لأنه يهاجم تقديس اللسان الذي يسمى اللسان، كما يهاجم التخوف على الذات من جانب آخر.

علينا ألا نقلل من شأن هذه المقاومة التي يبديها القارئ إزاء الترجمة. والزعم بالاكْتفاء الذاتي ورفض وساطة الآخر (الآخر) قد غديا العرقيات اللسانية خلسة. وأخطر من هذا أنهما غديا الادعاء بالهيمنة الثقافية كما لاحظناها بالنسبة لهيمنة اللسان اللاتيني منذ العصور القديمة المتأخرة وحتى نهاية العصر الوسيط، بل وامتدت إلى ما بعد عصر النهضة. وبالنسبة للسان الفرنسي الذي هيمن إبان الحقبة الكلاسيكية وهيمنة اللسان الإنكليزي - الأمريكي في أيامنا هذه، استعملت كلمة "مقاومة" كما في التحليل النفسي، لأعير عن هذا الرفض المخادع لاختبار الآخر (الآخر) من قبل لسان الاستقبال.

لكن مقاومة عمل الترجمة باعتباره معادلاً للاستنكار ليست أقل من المقاومة التي يبديها لسان

حول الترجمة

الآخر. والمترجم يقع على هذه المقاومة في أكثر من مرحلة من مراحل مشروعها. فهو يقع عليها قبل أن يبدأ على شكل تخمين بعدم إمكان الترجمة. وهذا التخمين يكبحه. وكل شيء يجري كما في حالة الانفعال الأولي، أو في الإحساس بالمرارة عند البدء بالقيام بأي شيء، أي كما لو أن النص ينتصب كتلة جامدة تقاوم الترجمة. هذا التخمين الأولي ليس سوى توهم يغذيه القول الفارغ بأن النص الأصلي لا يتكرر بنص أصلي آخر. أقول كلام فارغ، لأنه يشبه ذلك الاعتراف الذي يصدر عن أي هاو لجمع اللوحات أو غيرها، عن أفضل نسخة من عمل فني معين. والعيب الأكبر في هذه النسخة يكمن في أنها ليست الأصل. إلا أنّ توهم القيام بترجمة كاملة مكملّة parfaite يحل محل الحلم المبتذل برغبتنا في إنتاج نص أصلي مكرر. ويبلغ التوهم ذروته في الخوف من ألا تكون الترجمة أكثر من ترجمة سيئة إلى حد ما، لأنها بالتحديد، ليست سوى ترجمة.

لكن المقاومة التي تبرز أمام الترجمة تتخذ شكلاً أقل توهماً مع بداية عمل الترجمة. حيث تبرز مساحات مما لا يمكن ترجمته، تتوزع في النص فتحول الترجمة إلى دراما، وتحول أمنية إنجاز الترجمة إلى رهان. وفي هذا الصدد فإن ترجمة الأعمال الشعرية هي التي تقف العقول تحديداً في مرحلة الرومانسية الألمانية التي امتدت من هيردر إلى غوته ومن شيلر إلى نوباليس وجاء بعدهم همبولت وشليرماخر وفي أيامنا بنجامان وروزنترفايغ.

مترجم الشعر يعاني من صعوبة كبيرة تكمن في وحدة المعنى بالإيقاع، والدال بالمدلول. أما الصعوبات التي تعترض ترجمة الأعمال الفلسفية، وهي التي تهمننا اليوم أكثر من غيرها، فتكشف عن صعوبات من نوع آخر، بمعنى أنه لا يمكن معالجتها أيضاً لأنها تنبثق من مستوى تقطيع الحقول الدلالية نفسه، لعدم إمكان نقل هذه الحقول من لسان لآخر. وتبلغ الصعوبة مداها إزاء الكلمات الأساسية grundwörter بحيث يفرض المترجم على نفسه أحياناً ترجمة حرفية بحيث يضع للكلمة مكافئاً ثابتاً في لسان الوصول. لكن لهذا الإكراه المشروع حدوده ما دامت هذه الكلمات الشهيرة vorsellung, aufhebung, Dasein, Ereignis هي نفسها خلاصات لنصيّة طويلة تتعكس فيها أسبقية كاملة، هذا إذا تجنبنا الحديث عن ظواهر التناص الذي يختبئ خلف

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

طباعة الكلمة نفسها. التناص الذي يعادل أحياناً الاستئناف والتبديل ودحض الاستعمالات السابقة من قبل كتاب ينتمون إلى التقاليد الفكرية نفسها أو المضادة لها.

إضافة إلى عدم إمكان نقل المجالات الدلالية من لسان لآخر، فإن التراكيب نفسها غير متكافئة، لأن صياغات الجمل لا تنتقل الموروث الثقافي نفسه، وماذا بوسعنا القول عن الدلالات الإيحائية نصف الخرساء التي تنتقل على أفضل الدلالات المباشرة التي يمكن الإحاطة بها للمفردة الأصلية. وهذه الدلالات تعوم إلى حد ما بين العلامات والجمل والمقاطع القصيرة أو الطويلة. هكذا يدين النص الآخر في مقاومته للترجمة إلى عقدة التنافر هذه. وبهذا المعنى إلى عدم قابلية ترجمته بشكل مجزأ. وفيما يتعلق بالنصوص الفلسفية ذات الحمولة الدلالية الصارمة فهي تُبرز تناقض الترجمة بشكل واضح تماماً. وعلى هذا فإن علم المنطق كايـن Quine، الذي يندرج في خط الفلسفة التحليلية للسان الإنكليزي، يقدم شكلاً لاستحالة وجود التوافق بين نصين في غياب الترابط بينهما.

المعضلة تكمن في وجوب قياس نصّي الانطلاق والوصول في الترجمة الجيدة، بنص ثالث غير موجود. المشكلة تكمن فعلياً في قول الشيء نفسه بشكلين مختلفين. لكن هذا الشيء نفسه، هذا المثل، لا نجده على شكل نص ثالث من شأن مكانته أن تكون كمكانة الرجل الثالث في كتاب أفلاطون بارمينيدس؛ أي طرف ثالث يقع بين فكرة الرجل وبين العينات البشرية المفترض أنها تشارك في الفكرة الحقيقية والواقعية. في غياب هذا النص الثالث، حيث يكمن المعنى نفسه والمطابق الدلالي، لا يبقى مناص إلا إلى اللجوء إلى القراءة النقدية لبعض المتخصصين ممن يتقنون لسانين أو أكثر؛ قراءة نقدية تعادل ترجمة خاصة يقوم القارئ عن طريقها بإعادة صياغة عمل الترجمة لحسابه، فيتحمل تبعه اختبار الترجمة ويصطدم بوجود تكافؤ يخلو من التطابق.

وهنا أتوقف لكي أتحدث عن القارئ الذي يعيد الترجمة، بشكل ألامس مشكلة أعم تتعلق بالاستمرار في ترجمة الأعمال الكبرى، أي الأعمال الكلاسيكية العظيمة التي تنتمي إلى الثقافة العالمية مثل الكتاب المقدس ومؤلفات شكسبير ودانتي وسيرفانتيس وموليير. ربما ينبغي القول إن

حول الترجمة

إعادة الترجمة تجعلنا نلاحظ، بشكل أفضل، اندفاع الترجمة المشوية بعدم الرضا مقارنة بالترجمات المتوفرة.

لقد تابعنا المترجم منذ شعوره بالمرارة التي تمنعه من الشروع بالترجمة وخلال نضاله مع النص طيلة عمله لنتركه في حالة من عدم الرضا تشبه تلك التي يتركها فيه الكتاب بعد الانتهاء من ترجمته.

هذه المناسبة دفعتني إلى إعادة قراءة أنطوان بيرمان قراءةً موسعة، فرأيته يختصر في عبارة موفقة شكلي المقاومة أو الممانعة، أي المقاومة التي يبديها النص المزمع ترجمته، ومقاومة اللسان الذي سيستقبل الترجمة: "يعاني المترجم من ازدواجية نفسية لأنه يريد الضغط على جانبيين: الضغط على لسانه لكي يتخلص من غرابته وعلى اللسان الآخر لكي ينتقل إلى لسانه الأم".

إلا أن مقارنتنا بالاستذكار الذي تحدث عنه فرويد قد لاقت معادلها المناسب في عمل الترجمة وهو عمل يجري على جبهة مزدوجة لمقارنة مزدوجة. وحينما يصل التنازل إلى هذه النقطة من الدرمة فإنه يجد مكافئاً له في علم الترجمة، ويقدم له تعويضاً مرّاً لكنه ثمين وألخصه بأنه ترجمة كاملة مكملة. هذا التخلي وحده يسمح لنا بفهم الاستحالة التي ذكرناها سابقاً باعتبارها نقصاً أو عيباً مقبولاً، وهي خدمة السيدين المتمثلين بالمؤلف والقارئ. ويسمح لنا هذا التنازل بإنجاز المهمتين الشائعتين عنهما أنهما متناقضتان وهما "اقتياد المؤلف نحو القارئ، والقارئ نحو المؤلف"، بمعنى آخر شجاعة تحمل مسؤولية إشكالية الأمانة والخيانة المتمثلة بثنائية التمني/الشك.

لكن ما هي الترجمة الكاملة المكتملة المقصودة في ذلك التخلي أو في هذا التنازل؟ قدم كل من لاکو-لابارت وجان لوك-نانسي رؤية عن هذه الترجمة تنطبق على الرومانتيكيين الألمان تحت عنوان: المطلق الأدبي.

هذا المطلق الأدبي يقوم على مشروع من التخمين approximation أطلقت عليه تسميات

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

مختلفة مثل: "إعادة توليد" لغة الوصول عند غوته"، و"تقدير إمكانيات لغة الانطلاق عند نوفاليس، والتقاء عملية التأهيل Bildung بالعمل من هذا الجانب أو ذاك، عند فون همبولت.

لم يكن هذا الحلم خادعاً تماماً لأنه شجع الطموح إلى إظهار الوجه للسانين: لسان الانطلاق في العمل المنوي ترجمته، وكذلك إزالة الطابع عن اللسان الأم الذي يراد منه إعادة النظر في نفسه باعتباره لساناً كغيره من الألسن من جهة، وكلسان أجنبي من جهة أخرى. لكن هذه الرغبة في إنجاز ترجمة كاملة مكملة اتخذت أشكالاً أخرى أذكر منها اثنين: أولاً، الطموح إلى العالمية كما رغبت في ذلك فلسفة الأنوار aufklarung، وتحقيق حلم تكوين مكتبة شاملة تتحول تراكمياً إلى كتاب أو شبكة تضم ترجمات الأعمال المتوفرة في المكتبات بكل الألسن، وهذا الأمر من شأنه أن يتبلور في ما يشبه مكتبة عالمية يزول فيها كل ما يقال أنه غير قابل للترجمة. وهو حلم من شأنه أن يكون حلم إيجاد عقلانية لا مكان للقيود الثقافية فيها ولا للحدود الفاصلة بين التجمعات البشرية. حلم الترجمة الكلية هذا يطمح إلى إشباع فضاء الاتصال البيولوجي وسد ثغرة غياب اللسان العالمي. الهدف الآخر للترجمة الكاملة المكملة يتجسد في ذلك الانتظار الميساني الذي أعاد والتر بنجامان الحياة إليه على مستوى اللغة langage في نصه الرائع الموسوم: مهمة المترجم. ما نرمي إليه إذاً، هو الوصول إلى حلم لا تشويه شائبة، كما يقول بنجامان، وهذا يعني أن الترجمة تحمل في طياتها ما يشبه صداها الميساني (الانتظاري). بعد تقليب هذه الأوجه كلها نرى أن الحلم بإنجاز ترجمة كاملة مكملة يعادل أمينتنا في أن نحقق الترجمة مكسباً لا خسارة فيه. هذا المكسب هو الذي ينبغي تحويله إلى تنازل حتى نصل إلى قبول الاختلاف الذي لا يمكن تجاوزه بين ما يخصنا وبين ما هو آخر عنا. حينما نتحقق العالمية فإنها تسعى لإلغاء ذاكرة الآخر (الأخر) وربما إلى تحبيب المرء بلسانه الخاص كرهاً منه بمحلية اللسان الأم. مثل هذه الشمولية التي تلغي تاريخها الخاص تحول الجميع إلى غرباء عن الذات، ومشردين عن اللغة، وإلى منفيين ربما توقف بحثهم عن ملجأ للغة الاستقبال. إنها تحولهم إلى بدو رحل.

هذا التنازل عن فكرة الترجمة المطلقة هو ما يحقق نجاح الترجمة. ويتحول هذا النجاح، المرتبط بفقدان المطلق اللغوي، إلى مكسب حينما يقبل الانزياح بين الكمال والتكافؤ، أي قبول

حول الترجمة

التكافؤ بلا تطابق. وهنا يكمن نجاح الترجمة. حينما يعترف المترجم بعدم إمكان دمج ما يخصه بالآخر (الأخر) فإنه يجازى بالاعتراف بالمكانة اللازمة لحوارية فعل الترجمة باعتباره الأفق المعقول للرجبة في إنجازها. وعلى الرغم من العمه agnostique الذي يُدرِمُ مهمة المترجم فإنه قادر على النجاح في ما أود تسميته بالضيافة اللغوية.

وعلى هذا فإن أسلوب المترجم هو أسلوب التوافق الذي ينقصه الكمال. ويكون هذا الشرط واهياً حينما لا يقبل، من أجل التحقق من صحة الترجمة، إلا القيام بعمل إعادة الترجمة الذي سبق ووصفته بأنه نوع من التمرين على التبطين من خلال الحد الأدنى للثنائية اللسانية لعمل المترجم، أي إعادة ترجمة ما ترجمه المترجم. انطلقت من هذين النموذجين اللذين تربطهما، إلى حد ما، علاقة معينة بالتحليل النفسي وبالتنازل لكي أقول إنه، كما في فعل القص، يمكن القيام بترجمة مختلفة بدون تعليل النفس بسد ثغرة الانزياح بين التكافؤ والكمال. إذن كرم الضيافة اللغوية، حيث تكمن متعة الإقامة في لسان الآخر، تعوضه متعة الإنسان في استقباله لكلام الآخر (الأخر) في مضيفه.

نموذج الترجمة

هناك طريقان للدخول إلى المشكلة التي يطرحها فعل الترجمة: إما النظر إلى كلمة "ترجمة" بالمعنى الحرفي، أي نقل رسالة كلامية من لسان لآخر، أو النظر إليه بشكل أوسع واعتباره مرادفاً لتأويل مجموعة دالة ضمن الجماعة اللغوية نفسها.

لكل من المقاربتين ما يبررها: الأولى التي اختارها أنطوان بيرمان في دراسته اختبار الآخر، تأخذ بنظر الاعتبار مجمل تعددية الألسن وتتنوعها، أو الطريق الثاني الذي حدده جورج شتاينر في دراسته: ما بعد بابل¹، فيتوجه مباشرة إلى الظاهرة الشاملة، ويلخصها المؤلف بعبارة "الترجمة هي الفهم". أما أنا فقد اخترت الانطلاق من المقاربة الأولى التي تنقل علاقة الخاص بالآخر

¹ منشورات ألبان ميشيل 1998، باريس

(الآخر) إلى المستوى الأول وتقود من ثم إلى المقاربة الثانية من خلال الصعوبات والمتناقضات التي تثيرها ترجمة لسان إلى لسان آخر.

لننتقل إذاً من تعددية الألسن وتنوعها ولنشر إلى حقيقة أولى تقول إن وجود الترجمة رهن بكون الناس يتكلمون ألسناً مختلفة. هذه الحقيقة هي حقيقة تنوع الألسن كما يقول فيلهلم فون همبولت. لكنها تتطوي في الوقت نفسه على أحجية: لم لا يتكلم الناس لساناً واحداً؟ ولم وجود خمسة أو ستة آلاف لسان كما يقول علماء الإناسة؟ لو كان هناك لسان واحد لانهزم أي معيار دارويني حول الفائدة والتكيف في النضال من أجل البقاء. هذه التعددية العصبية على الحساب ضارة وعديمة الجدوى أيضاً. إذا كان التبادل بين الجماعات البشرية يجري بواسطة قوة اندماج اللسان منفصلاً عن غيره، فإن التبادل اللغوي بواسطة ما يسميه شتاينر "الوفرة المشؤومة" يتعذر خارج الجماعة اللغوية. لكن اللغز ليس مرده فقط إلى تشوش التواصل الذي تسميه أسطورة بابل "التشتت" على الصعيد الجغرافي و"التشوش" على صعيد التواصل، بل أيضاً إلى تناقضه مع سمات أخرى تتعلق باللغة أيضاً. أولها الحقيقة الكبرى لعالمية اللغة language وهي أن الناس كلهم يتكلمون". هذا المعيار هو معيار إنساني يمكن تصنيفه إلى جانب الأداة والمؤسسة والقبر، ونقصد باللغة استعمال علامات ليست أشياء إنما تقوم مقامها - تبادل العلامات في عملية التخاطب-، الدور الأكبر للسان المشترك هو التعريف بالهوية. لكن هذه الكفاءة الشاملة [التمثلة باللسان] غير موجودة نظراً لوجود اللهجات المحلية المتفرعة عنه، لذا فإن تطبيقاتها تكون متشظية وموزعة ومتفرقة. من هنا جاءت التفكرات على صعيد الأسطورة أولاً، ثم على صعيد فلسفة اللغة لتسائل نفسها عن أصل هذا التفرق - التشوش. إن أسطورة بابل، مع قصرها وتشوش مضمونها الأدبي، تجعلنا نحلم أكثر، وبشكل تراجعى، بلسان فردوسي مفقود ولا تقدم دليلاً هادياً في هذه المتاهة. عندئذ يفهم التشتت - التشوش على أنه كارثة لغوية لا سبيل إلى إصلاحها. بعد قليل سأقترح قراءةً أطف لشرط البشر العادي. لكن قبل هذا أود القول بأن هناك حقيقة أخرى لا ينبغي أن تطمس الأولى، وهي حقيقة تنوع الألسن التي بلغت من الأهمية مكاناً بحيث لم نتوقف عن الترجمة. فقبل وجود المترجمين المحترفين كان هناك دائماً المسافرون والتجار

حول الترجمة

والسفراء والجواسيس، مما أدى إلى نشوء العديد من ثنائيي ومتعددي اللسان. وهنا نلامس، مع الأسف، سمة تكتسب الأهمية نفسها التي لعدم قابلية التواصل، أي حقيقة الترجمة نفسها التي تفترض سلفاً قدرة المتكلم على تعلم ألسن أخرى تختلف عن لسانه وممارستها. وتبدو هذه القدرة متضامنة مع سمات أخرى خافية لها علاقة بممارسة اللغة. سمات تقودنا، في نهاية المطاف، إلى قرب الطرائق الترجمة في داخل اللغة، أي، وأستبق هنا القول، القدرة الانعكاسية للغة، وهي إمكانية طالما توفرت للحديث على اللغة بموضوعية، ومن ثم تعامل المترجم مع لسانه كواحد من بين الألسن الأخرى. سأرجيء تحليل انعكاسية اللغة إلى وقت لاحق لكي أركز الآن على فعل الترجمة فقط. صحيح أن البشر يتكلمون ألسناً مختلفة، لكنهم قادرون أيضاً على تعلم ألسن أخرى تختلف عن لسانهم الأم.

هذه الحقيقة أثارت جدلاً واسعاً أغلق الباب على نفسه داخل خيار مدمر لابد من التخلص منه. هذا الخيار الذي يشل الحركة هو التالي: إما أن تتوع الألسن يعبر عن تنافر أساسي- وعندها تكون الترجمة مستحيلة نظرياً، لأنه مرسوم في أذهاننا سلفاً أن ترجمة الألسن مستحيلة، أو ينظر إلى الترجمة على أنها فعل تفسره خلفية مشتركة تجعل فعل الترجمة ممكناً. لكن عندها علينا أن نتمكن إما من العثور على هذه الخلفية المشتركة، وهذا ما نقول به نظرية اللسان الأصلي، أو إعادة بناء هذه الخلفية بشكل منطقي، وهي نظرية اللسان العام (الشامل). وسواء أكان اللسان أصلياً أم شاملاً النظري، يجب إبراز هذا اللسان المطلق من خلال جداوله الفونولوجية والمعجمية والتركيبية والبلاغية. أعود هنا لتكرار الخيار النظري: إما أن يكون تتوع الألسن جذرياً وعندها يجب أن تكون الترجمة مستحيلة، أو أن الترجمة فعل حقيقي يفرض علينا وضع إمكانية إنجازه حتماً بالتحقيق في أصله أو من خلال إعادة بناء الظروف (الشروط) القبلية للواقعة (الحقيقة) التي نلاحظها.

أقترح ضرورة الخروج من البديل النظري: قابل للترجمة # غير قابل للترجمة، بصرف النظر عن الاعتراف بممارسة الترجمة ذاتها، ووضع بديل آخر محله وهو الخيانة # الأمانة، بصرف النظر عن الاعتراف بأن ممارسة الترجمة تبقى عملية مخاطرة تبحث عن نظرية لها. سنرى في

النهاية أن صعوبات الترجمة الناشئة من داخل اللغة تؤكد هذا الاعتراف المحرج. قبل مدة قصيرة شاركتُ في ندوة دولية حول التأويل *interprétation* استمعت فيها إلى عرض قدمه الفيلسوف التحليلي دونالد دايفيدسون بعنوان: "صعب وقاس من الناحية النظرية لكنه سهل ويسير من الناحية العملية".

وهذا ما تقوله أطروحتي حول الترجمة من الناحيتين اللغوية وغير اللغوية: الترجمة غير مفهومة نظرياً لكن يمكن ممارستها عملياً، وهذا ما يؤكد اعتمادنا البديل العملي أمانة # خيانة.

قبل الولوج في طريق هذه الجدلية العملية: أمانة # خيانة، أود أن أوجز أسباب المأزق الجدالي الذي يتصادم فيه مفهوم عدم إمكان الترجمة مع مفهوم إمكان الترجمة.

الأطروحة القائلة بعدم إمكان الترجمة هي الخلاصة التي توصل إليها أحد اتجاهات الإناسة اللغوية - ويمثله كل من ب. لي وورف وإدوارد سابير - الذي اهتم بالإشارة إلى عدم إمكان نقل مختلف التقطيعات التي تستند إليها عدة منظومات لسانية: المنظومات الفونولوجية، مثل الأحرف الصائتة والصامتة وغير ذلك تقوم على أساس التقطيع الصوتي والتمفصلي، وتقوم المنظومات المعجمية (المعجمات والموسوعات وغيرها) على أساس التقطيع المفهومي، أما علوم القواعد المختلفة فتقوم على التقطيع التركيبي، والأمثلة غزيرة: حينما نقول في اللسان الفرنسي، bois فإننا نجمع بين المادة اللحافية (الخشبية) وبين فكرة الغابة الصغيرة. لكننا نجد في لسان آخر هاتين الداللتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى ومجموعتين في منظومتين دلالتين مختلفتين. على صعيد القواعد تسهل رؤية اختلاف منظومات الزمن الكلامية (الحاضر والماضي والمستقبل) من لسان لآخر. هناك ألسن لا تجد فيها تحديداً للوضعية في الزمن بل تجد الصفة التامة أو الناقصة للفعل، وأخرى تخلو من الأزمان الكلامية حيث لا تتحدد الوضعية في الزمن إلا بظروف مثل: "أمس" و"غد" وغيرهما. إذا أضفت فكرة أن أي تقطيع لساني يفرض رؤية معينة حول العالم، وهي فكرة لا أرى شخصياً إمكان اعتمادها كقولك، على سبيل المثال، أن اليونانيين قاموا بوضع الأونطولوجيات لأن لغتهم تتضمن فعل "الكون" الذي يقوم بدور الرابط والمؤكد للوجود في الوقت

حول الترجمة

نفسه، على حين يتبين أن مجموع العلاقات البشرية التي يقيمها متحدثو لسان معين هي تلك التي لا تقبل النقل مع مجموع العلاقات التي يفضلها نفهم من يتحدث بلسان آخر من خلال فهم علاقته بالعالم. عندها لا بد من استخلاص أن سوء الفهم واقع لا محالة وأن الترجمة مستحيلة وأن الأفراد ثنائيي اللسان لا يمكن أن يكونوا إلا فصامين.

عندئذ نجد أنفسنا مع الأطروحة الأخرى التي تقول: لأن الترجمة موجودة فلا بد من ثم من أن تكون ممكنة. وإذا كانت ممكنة فهناك، وراء تنوع الألسن، بنى مخفية تحمل إما بقايا لسان أصلي مفقود ينبغي العثور عليه، أو أن هذه البنى تتطوي على مدونات سابقة وبنى شاملة متسامية كما يقال. وقد دافع عن الرأي الأول القائل بأصل اللسان - أصحاب نظرية الإدراك الحسي والقبلايون [اليهود الذين فسروا التوراة صوفياً ورمزياً] والتيارات التأويلية بمختلف أنواعها فتوصلوا إلى نتائج سامة كتلك التي تدافع عن وجود لسان آري مزعوم قيل عنه تاريخياً بأنه لسان خصب ويضعونه في مقابل اللسان العبري المعروف بعقمه. في كتابه "ألسن الفردوس" الذي يحمل عنواناً فرعياً مثيراً للقلق هو "الآريون والساميون: زوجان سماويان"، ندد أولاً بما يسميه "الخرافة المعقدة" بهذه اللاسامية اللسانية الخادعة، لكن، للإنصاف، علينا القول إن الحنين إلى لغة أصلية (أم) أنتج أيضاً وساطة والتر بنجامان الذي تحدث عن "اللسان الكامل" في كتابه "مهمة المترجم": اللسان النقي يتبدى كالأفق الميساني لفعل الترجمة، لأنه يحقق، خلسة، تلاقي الألسن حينما ترتقي إلى ذروة الإبداع الشعري. لسوء الحظ لا تلقى ممارسة الترجمة أي عون من هذا الحنين الذي تحول إلى انتظار أخروي. وربما ينبغي أن نصل عما قريب إلى نفي الرغبة بالكمال من أجل الاضطلاع بـ"مهمة المترجم" بكل قناعة وبعيداً عن الشعور بالنشوة.

أما النظرية الأكثر تشدداً القائلة بالبحث عن الوحدة، ولكن ليس وحدة الأصل في الزمن بل وحدة المدونات السابقة. وقد أفرد أمبرتو إيكو فصلاً مفيداً لهذه المحاولات في كتابه "البحث عن اللسان الكامل في الثقافة الأوروبية". وتهدف هذه المحاولات إلى استبعاد النواقص من الألسن الطبيعية لأنها تشكل أصنام اللسان" كما يقول بيكون. ودعم لبينتز هذا المطلب بفكرته حول الصفة الشمولية التي لا تهدف إلا إلى تصنيف معجم شامل يضم الأفكار البسيطة، ويُستكمل

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

بمجموعة تضم قواعد التأليف بين هذه الذرات الحقيقية المكونة للفكر. والآن حان وقت الوصول إلى مسألة الثقة، وهو ما يشكل منعطف مداخلتي هذه، حيث ينبغي أن نسأل أنفسنا عن السبب وراء فشل هذه المحاولة ووجوبه.

قدمت قواعد شومسكي التوليدية نتائج جزئية في هذا المجال لكنها فشلت فشلاً ذريعاً في الناحيتين المعجمية والفونولوجية لأن عيوب الألسن الطبيعية ليست هي الملومة بل طريقة عملها. ولكي نبسط هذا النقاش التقني العالي إلى أقصى درجات التبسيط، تجدر الإشارة إلى صعوبتين: الأولى هي غياب الاتفاق على ما من شأنه تمييز اللسان الكامل على صعيد معجم الأفكار البدائية الداخلة في التأليف. هذا الاتفاق يفترض بشكل قبلي وجود تجانس تام بين العلامة والشئ، بعيداً عن أية اعتبارية على الإطلاق، ومن ثم، إذا وسعنا المجال، بين اللغة والعالم، وهو نتيجة طبيعية، على اعتبار أن تقطيعاً من هذا النوع قد سُنَّ ليشكل صورة للعالم أو أن يكون زعماً لا يمكن التحقق من صحته لعدم وجود كشف شامل بالألسن المنطوقة كلها؛ العقبة الثانية، وهي الأشد خطورة، هي أنه ليس هناك من يمكنه القول بقدرتنا على اشتقاق الألسن الطبيعية - بكل ما في ذلك من غرائب سنحدث عنها لاحقاً - من اللسان الكامل المزعوم: يبدو أننا غير قادرين على تجاوز الانزياح بين اللسان الشامل واللسان التجريبي وبين ذلك الموجود بين القبلي من جهة والتاريخي من جهة أخرى. هنا تكون الأفكار التي سننهي بها حديثنا عن عمل الترجمة في داخل اللسان الطبيعي نفسه مفيدة لبيان التعقيدات اللامتناهية لهذه الألسن التي تجعلنا نتعلم باستمرار آلية عمل اللسان بما في ذلك لساننا.

هذه هي المحصلة الموجزة للمعركة التي تضع النسبية العملية التي يجب أن نقود إلى وضع استحالة الترجمة في مقابل الشكلانية المكتتبية التي فشلت في تأسيس واقع الترجمة على بنية شاملة قابلة للبرهان. نعم، علينا الاعتراف بذلك: إذ إن الحال من لسان لآخر هي حال التششت والتشوش. ومع هذا فالترجمة تندرج في لائحة "رغماً عن ذلك" الطويلة. فبالرغم من الاقتتال الأخوي فإننا نناضل من أجل تحقيق الأخوة العالمية. وعلى الرغم من عدم تجانس اللغات فإننا نجد ثنائيي اللغة ومتعددي اللهجات إضافة إلى المؤلفين والمترجمين.

حول الترجمة

إذن، كيف يقوم المترجمون بعملهم هذا؟

أعلنت قبل قليل عن تغير في التوجه، أي التخلي عن البديل الجدلي الذي يضع قابلية الترجمة في مقابل عدم قابلية الترجمة، ودعوت إلى الدخول في البديل العملي الذي يضع الأمانة في مقابل الخيانة.

كي نضع أقدامنا على طريق هذا الانقلاب، أود العودة إلى تفسير أسطورة بابل التي لا أريد لها أن تنتهي بفكرة الكارثة اللسانية التي أنزلها أحد الآلهة بالبشر نتيجة حسده لهم على ما حققوه من نجاح. يمكننا قراءة هذه الأسطورة كما نقرأ أساطير البدء كلها التي تعتمد حالات ثابتة على أنها إثبات لوجود الانفصال الأصلي. نبدأ من بداية سفر التكوين التي تتحدث عن انفصال العناصر الكونية التي أدت إلى انبثاق النظام من العماء وإلى استمراره نتيجة فقدان البراءة ثم عملية الطرد من الفردوس، التي تحدد أيضاً الولوج إلى سن البلوغ وتحمل المسؤولية، ثم تنتقل بعد هذا إلى - وهو ما يهمننا كثيراً من أجل إعادة قراءة أسطورة بابل - الاقتتال الأخوي، ومصرع هابيل الذي يجعل من الأخوة نفسها مشروعاً أخلاقياً وليس مجرد معطى من معطيات الطبيعة. إذا اعتمدنا خط القراءة هذا، الذي أشارك فيه بول بوشام، أي خط تشتت الألسن وتشوشها كما جاء في أسطورة بابل، فسندرى أن ذلك كله يتوج تاريخ الانفصال من خلال نقله إلى لب ممارسة اللغة. فهل هذا هو حال وجودنا؟ أو هكذا نوجد مفرقين وتائهين؟ وما هي المهمة المنوطة بنا؟

حسناً. إننا مدعوون لممارسة الترجمة! هناك مرحلة ما بعد بابل تحدها "مهمة المترجم". وهذا هو العنوان الذي وضعه، للمرة الأولى، فالتر بنجامان لدراسته الشهيرة التي تحمل هذا الاسم. لتعزير هذه القراءة فإنني أشارك أمبرثو إيكو في التذكير بأن قصة سفر التكوين (11، 1-9) بالآيتين المرقمتين 10، 31-32 حيث يبدو أنه نظر إلى تعدد الألسن على أنه معطى مؤكد.

هذه هي الآيات كما جاءت في ترجمة شورافي (إلى اللسان الفرنسي) التي تتميز بالخشونة:

Voici les fils de Shem pour leur clan, pour leur

Langue, dans leur terre, pour leur peuple.

Voilà les clans des fils de Noah, pour leur geste,

Dans leur peuple : de ceux-là se scindent les
Peuples sur terre après le Déluge.

أولاء هم أبناء حام لأجل عشيرتهم، ومن أجل لسانهم ومن أجل
أرضهم، من أجل شعبهم.
ها هي عشائر أبناء نوح. لأجل تحركهم بين شعبهم: منهم تتكون
الشعوب على الأرض بعد الطوفان.

في هذه الآيات التي جاءت على شكل تعدادي تعبير عن مجرد فضول ينبعث من نظرة
خيرة. وهنا تكون الترجمة هامة، ليس بمعنى الواجب الملزم بل بمعنى ما ينبغي القيام به لكي
يتمكن الفعل البشري من مجرد الاستمرار، كما تقول حنا أرنت صديقة بنجامان في كتابها
الموسوم "شرط إنساني".

بعد هذا تأتي قصة "أسطورة بابل":

Et c'est toute la terre : une seule lèvre, d'unique Parole.

Et c'est là leur départ d'Orient : ils trouvent un
Canyon en terre de Shinéar, ils s'y établissent.

Ils disent, chacun à son semblable : allons, briquetons

Des briques, flambons-les à la flambée.

Et la brique devient pour eux pierre, le

Bitum, mortier.

Ils disent : allons, bâtissons-nous une ville et une tour

Sa tête : aux cieux. Faisons-nous un nom, que nous ne soyons

Dispersés sur la face de toute la terre.

IHVH-Adonāi descend pour voir la ville et la tour qu'ont bâties

Les fils de l'homme.

IHVH-Adonāi dit : oui, un seul peuple, une seule lèvre pour tous :

Voilà ce qu'ils commencent à faire ! Maintenant rien n'empêchera

Tout ce qu'ils auront dessein de faire !

Allons ! Descendons ! Confondons là leurs lèvres

L'homme n'entendra plus la lèvre de son prochain.

IHVH-Adonāi les disperse de là sur la face de toute la terre.

Ils cessent de bâtir la ville.

Sur quoi il clame son nom : Babel confusion car là confond

La lèvre de toute la terre.

Voici la geste de Shem, shem, âgé de cent ans,

Engendre Arpakhshad, deux ans après le déluge.

Shem vit, après l'engendrement d'Arpakhshad,

Cinq cents ans. Il engendre des fils et des filles.

"والأرض كلها شفة واحدة، وكلام واحد هوذا رحيلهم من الشرق: عثروا على منخفض في أرض شينيار واستقروا فيه.

قالوا: لكل واحد صنوه: هيا نصنع القرميد ونشويه في النار

تحول القرميد إلى حجر والقار إلى ملاط

قالوا هيا نبني لنا مدينة وبرجاً. رأسه في السماء. ولنطلق على أنفسنا اسماً، وألا نتفرق فوق وجه الأرض

يهوه - أدوناي، نزل يتفرج على المدينة، وعلى البرج الذي بناه بنو الإنسان.

يهوه - أدوناي قال: نعم، شعب واحد، وشفة واحدة للجميع. وهو ما بدأوا به!

والآن لا شيء يمنع من تحقيق ما ينوون القيام به!

هيا بنا نزل! لكي نخلط شفاهم ببعضها شفاهم بحيث لا يستطيع الإنسان من سماع شفة قريبه.

يهوه - أدوناي شنتهم من هناك على وجه البسيطة كلها. توقفوا عن بناء المدينة.

فخاطبها: ليحل التشوش عليك يا بابل، لأن شفاه الأرض كلها اختلطت فيها، ومنها شنتهم يهوه - أدوناي فوق وجه البسيطة.

هذا ما قام به حام البالغ من العمر مائة عام [بعد أن] أنجب أرباخشاد بعد عامين من الطوفان. وعاش حام بعد ولادة أرباخشاد خمسمائة سنة وأنجب صبياناً وبنات".

ليس في النص السابق أي نوع من الاحتجاج أو الاتهام. كل ما في الأمر أن يهوه - أدوناي قام بتفريقهم فوق البسيطة فتوقفوا عن البناء". وعبارة: "توقفوا عن البناء" تعني بطريقة أخرى: "هكذا، على هذا النحو". هكذا. عجباً! هكذا، كما كان يحلو لبنجامان القول.

هكذا كان واقع الحياة في تلك الحقبة، ومن ثم ينبغي على الترجمة أن تنطلق من هذا الواقع وتأخذه بنظر الاعتبار.

لكي يكون حديثي عن مهمة المترجم واضحاً، أود أن أقول ما قاله بيرمان في اختبار الآخر عن "الرغبة في الترجمة". وهي رغبة تتجاوز الإكراه والمنفعة. لاشك في وجود الإكراه: إذا شئنا البدء بعمل أي شيء أو إذا أردنا السفر أو التفاوض أو حتى القيام بالتجسس، لا بد من رسائل تتحدث عن لسان الآخرين. أما الفائدة فهي جلية للعيان. إذا أردنا الاقتصاد في تعلم الألسن الأجنبية فإن وجود المترجمين يبعث السرور فينا لأننا ننفذ من خلال الترجمة إلى عالم الأعمال التراجمية ومؤلفات أفلاطون وشكسبير وسيرفانتس وبتراكي ودانني وشيلر ودستوفسكي. حسناً، ولكن، هناك إكراه وفائدة! لكن هناك ما هو أصعب وأعمق وأبعد عن النظر، وأعني به الرغبة الترجمة.

هذه الرغبة هي التي شحذت همم المفكرين الألمان منذ غوته، الكلاسيكي العظيم، وفون همبولت الذي أشرنا إليه، مروراً بالرومانتيكيين مثل نوفاليس والأخوين شليغل (ولا ننسى شليرماخر مترجم أفلاطون)، وهولدرلين، مترجم مأساويات سوفوكليس، وانتهاء بوالتر بنجامان وريث هولدرلين. ويشكل لوثر خلفية هذا العالم الجميل باعتباره مترجم التوراة حيث سعى إلى ألمنتها (جعلها ألمانية) بعد أن بقيت أسيرة ترجمة القديس جيروم باللغة اللاتينية.

ترى ما الذي انتظره أولئك المشغوفون بالترجمة من وراء رغبتهم تلك في الترجمة؟ إنه ما سماه أحدهم بتوسيع أفق لسانهم إضافة إلى ما أجمع الكل على تسميته بالتأهيل *bildung*، أي الاهتمام بالشكل والتربية في آن معاً، وإذا جاز لي أضيف: اكتشافهم للسانهم الخاص ولمصادره التي ظلت أرضاً بوراً. يقول هولدرلين: "عليك أن تتعلم ما يخصك كما تتعلم ما هو آ، أي عنك". لكن لماذا يكون جزء الرغبة في الترجمة هو وصفها بالمعضل، أي معضلة الأمانة/الخيانة؟. السبب هو غياب معيار مطلق نحكم من خلاله على جودة الترجمة. ولكي يتوفر مثل هذا المعيار لا بد من مقارنة كل من نصّي الانطلاق الوصول بنص ثالث يحمل معنى مشابهاً يفترض

حول الترجمة

أنه ينتقل من النص الأول إلى الثاني. أي ما يقوله هذا الطرف أو ذاك. ومثلما لا يوجد بالنسبة لأيسبق المعضلة مينيدس إنسان ثالث بين فكرة اللسان وبين إنسان متميز - ونقصد به سقراط - فلا يوجد نص ثالث بين النص المصدر والنص الهدف. من هنا ينشأ التناقض الذي يسبق المعضلة: لا يمكن للترجمة الجي-، إلا أن تهدف إلى تحقيق تكافؤ مزعوم لا يقوم على تطابق معنى يمكن البرهنة عليه، أي تكافؤ بلا تطابق، وهذا التكافؤ ينبغي البحث عنه والعمل عليه والزرع بوجوده. والطريقة الوحيدة لنقد ترجمة معينة- وهو ما نستطيعه دائماً -، يكمن في اقتراح ترجمة أخرى مزعومة، افتراضية سواء أكانت أفضل منها أو مختلفة عنها. وهذا ما يقوم به فعلياً، المترجمون المحترفون. أما بالنسبة للنصوص العظيمة في ثقافتنا فنقول إننا نتغذى أساساً من ترجمات معادة تخضع مباشرة للتحقيق. ومثالنا على هذا التوراة ونصوص هوميروس وشكسبير والكتاب الذين ذكرناهم سابقاً إضافة إلى الفلاسفة بدءاً من أفلاطون وانتهاء بنيتشه وهايدغر.

وعلى الرغم من هذه الترجمات المعادة، فقد بقينا عاجزين عن حل معضلة الأمانة/الخيانة. والمخاطرة التي تترتب على الرغبة في الترجمة وتحول لقاء الآخر في لسانه إلى اختيار، هي مخاطرة لا يمكن تجاوزها. فرانز روزنفايغ- الذي اتخذ زميلي هانز كريستوف أسكان" شاهداً على مشكلة الترجمة" - أعطى الاختبار شكل التناقض حينما قال: "الترجمة هي القيام على خدمة سيدين، الآخر في غرابته والقارىء في رغبته بالتملك". وقبله قام شليرماخر بتفكيك هذا التناقض إلى جملتين هما: "اقتياد القارىء نحو المؤلف" و"اقتياد المؤلف نحو القارىء". أما أنا فسأخاطر بتطبيق عبارة فرويد على هذه الحالة والتحدث عن عمل الحرمان بشكل يختلف عن عمل الاستذكار الذي عناه فرويد في حديثه عن عمل الترجمة.

تهض المقاومة الداخلية لعمل الترجمة بدافع الخوف أو كراهية الآخر (الآخر) الذي ينظر إليه على أنه مصدر تهديد لهويتنا اللغوية.

لكن عمل الترجمة هو عمل حرمان أيضاً لأنه ملزم بالتخلي عن مثال الترجمة الكاملة المكملة parfaite. هذا المثال، في الحقيقة، لم يغذ الرغبة في الترجمة والسعادة في إنجازها فقط، بل

أشقى هولدرلين أيضاً، فحطمه طموحه إلى صهر الشعر الألماني واليوناني لبيدع شعراً رفيعاً متسامياً hyper-poesie يلغى الاختلاف بين اللغات. ترى من يعرف أكان مثال الترجمة الكاملة هو الذي يغذي، في نهاية المطاف، الحنين إلى اللسان الأصلي، أم إرادة السيطرة على اللغة langage عن طريق اللسان العالمي؟ ويستمر العزوف عن الترجمة وعن الآخر (الآخر). ويبقى لدينا موضوع اختبار الآخر. وهنا أعود إلى عنواني: جذر الترجمة.

يبدو لي، حقيقة، أن الترجمة ليست عملاً ثقافياً نظرياً أو عملياً فحسب بل هي قضية أخلاقية. لأن اقتياد القارئ إلى المؤلف، والمؤلف نحو القارئ تحت طائلة القيام على خدمة سيدين وخيانتهما يعني ممارسة ما أحب تسميته بالضيافة اللغوية لأنها تقدم نموذجاً لأشكال الضيافة الأخرى التي أراها مرتبطة بها: أوليست أشكال الإيمان المتعددة والديانات تشبه الألسن الآخرة عن بعضها من حيث معجمها وقواعدها وبلاغتها وأسلوبها الذي ينبغي تعلمه للتمكن من النفاذ إليها؟ أولاً نمارس الضيافة القرآنية eucharistique بركوب الأخطار نفسها التي نركبها في عملية الترجمة- الخيانة، والتنازل عن الترجمة الكاملة؟ سأقف عند هذه القياسات غير المؤكدة وعند علامات الاستفهام هذه. لكن لا أريد أن أنهي مداخلتني دون ذكر الأسباب التي تمنع من إهمال النصف الآخر من قضية الترجمة وأعني بها، إن كنتم تذكرون، الترجمة داخل الجماعة اللغوية نفسها. أود أن أبين، ولو بإيجاز، أنه في العمل على الذات من خلال اللسان نفسه، تنكشف الأسباب العميقة لعدم إمكان تجاوز الانزياح بين لسان كامل وشامل وبين الألسن التي نسميها طبيعية أي غير المصطنعة. وكما سبق أن ذكرت، نحن لا نرغب في إلغاء نواقص أو عيوب الألسن الطبيعية، بل طريقة عملها لما تتطوي عليه من غرائب مدهشة. وعمل الترجمة الداخلية هو الذي يكشف عن هذا الانزياح. وهنا أتفق مع المقولة الأساسية لكتاب جورج شتاينر، ما بعد بابل، وهي مقولة "الترجمة تعني الفهم". والأمر هنا يتجاوز مجرد استبطان العلاقة بالآخر (الآخر) تبعاً لقول أفلاطون بأن (الفكر هو حوار النفس مع ذاتها) وهو استبطان من شأنه جعل الترجمة الداخلية مجرد ملحق بالترجمة الخارجية. إنه التقصي الأصيل الذي يكشف عن طرائق التعبير اليومية التي يعبر عنها لسان نابض بالالسيء، هذه الطرائق لا تمكن أي لسان من إعادة

حول الترجمة

بناء تنوعها اللامحدود. إنها اقتراب من خفايا اللسان الحي، وفي الوقت نفسه توضيح لظاهرة سالحي، فاهم والفهم السيئ، وهي ظاهرة تستدعي، كما يقول شليرماخر، التأويل الذي تريد الفلسفة الظاهرية وضع نظرية له. وأسباب الانزياح بين اللسان الكامل المكمّل parfaite وبين اللسان الحي، هي بالضبط الأسباب تكمن وراء سوء الفهم.

سأنتقل من هذه الحقيقة الهامة التي يتميز بها استعمالنا لألسننا، حيث بوسعنا دائماً قول الشيء نفسه بطريقة أخرى. وهو ما نقوم به حينما نعرّف كلمة بكلمة أخرى تنتمي إلى مفردات اللسان نفسه lexique، وهو ما نجده في المعجمات كلها. شارل بيرس يضع، من خلال معرفته السيميائية، هذه الظاهرة في صلب انعكاسية اللغة على نفسها. وهذا ما نقوم به عندما نلجأ إلى إعادة صياغة حجة لم يتمكن متحدثنا من فهمها، فنقول: "إننا نفسر هذه الجملة «أي إننا نقوم بإبراز ما تخفيه تلك الحجة. وقول الشيء نفسه بطريقة أخرى -autrement dit- هو ما كان يقوم به المترجم عن لسان أجنبي. وهكذا نجد أنفسنا ثانية، في داخل جماعتنا البشرية، أمام لغز الشيء نفسه le même والدلالة نفسها والمعنى المطابق الذي لا يمكن العثور عليه والذي يفترض فيه وضع النسختين اللتين تتحدثان عن الشيء نفسه في حالة تكافؤ. لهذا نبقي، كما يقال في هذه الدوامة. وغالباً ما تفاقم تفسيراتنا سوء التفاهم. في الوقت نفسه، نقيم جسراً بين الترجمة التي أسميها "الترجمة الداخلية" وبين "الترجمة الخارجية"، بمعنى أن الفهم يتطلب وجود متخاطبين اثنين ضمن اللسان نفسه، وهما بالتأكيد ليسا آخرين لكنهما آخران، أو قل هما آخران قريبان من بعضهما. ولهذا فإن هوسرل يطلق، في معرض حديثه عن معرفة الآخرين، اسم der fremde على الآخر اليومي أي الآخر. والتعبير عن الشيء نفسه بطريقة أخرى لا يتم فردياً بل من خلال عدة أشخاص، فتراهم يضعون التعريف ويعيدون الصياغة ويقومون بالشرح.

دعونا نخطو خطوة إضافية أخرى نحو خفايا شتاينر الشهيرة التي لا يكف عن العودة إليها المرة تلو الأخرى، ونسأله: ما هي عدتنا حينما نتكلم ونوجه كلامنا إلى الآخر؟
إننا نستعمل ثلاثة أنواع من الوحدات: أولاً، الكلمات، أي العلامات التي نراها في مسرد

الألفاظ lexique، ثانياً الجمل، التي لا تدخل في أي مسرد (لأن أحداً لا يستطيع حصر الجمل التي قيلت وستقال سواء في اللسان الفرنسي أم في أي لسان آخر)، وثالثاً النصوص، أي متواليات الجمل. التعامل بهذه تشكل الانزياح عن الوحدات التي أشار سوسير إلى الأولى منها وكل من بينفينيست وجاكويسون إلى الثانية وهارالد وينريش وجوس وأصحاب نظرية تلقي النصوص أشاروا إلى الوحدة الثالثة. هذه الوحدات تشكل الانزياح عما يزعم أنه لسان كامل مكمل، ومصدراً لسوء التفاهم في الاستعمال اليومي، لذا فهي السبب في التفسيرات المتعددة والمتافسة في ما بينها. بقي لنا أن نوجز القول في الكلمة. إن كل كلمة من كلماتنا تحمل أكثر من معنى كما في المعجمات ويقوم الاستعمال الجديد بتحديد المعنى المعبر عنه والمعروض للتبادل ويتكفل السياق بتحديد المعنى الذي اكتسبته الكلمة في ظرف معين من ظروف الخطاب، وهنا تبدأ المنازعات ولا تنتهي حول الكلمة، كقولنا، على سبيل المثال: ماذا أردت أن تقول؟. وفي تناوب السؤال والجواب تتحدد الأشياء أو تختلط لأننا لا نكون أمام السياقات الظاهرة فحسب بل أمام سياقات خافية نسميها بالدلالات الإبحائية الفكرية والعاطفية والعامية، ومنها ما هو خاص بوسط محدد أو طبقة معينة أي بدائرة مجهولة. وهذا ما يتيح لنا إمكانية رؤية الهامش كله الذي يخفي خلف الرقابة والممنوع وهامش المسكوت عنه، أي الهامش الذي تتوزع فيه أشكال المستور كلها.

بهذا اللجوء إلى السياق ننقل من الكلمة إلى الجملة، وهي وحدة جديدة تكوّن أولى وحدات الخطاب، على اعتبار أن وحدة الكلمة تنتمي إلى وحدة العلامة التي لم تتحول بعد إلى خطاب. هذه الوحدة تحمل معها مصادر غموض جديدة ترتبط أساساً بعلاقة المدلول (ما يقال) بالمرجع (موضوع الدال) أي العالم في نهاية الأمر. وهذا برنامج واسع كما يقول الآخر. ونظراً لعدم وجود وصف مكتمل، فإننا نبقي إزاء وجهات نظر وآفاق وروى جزئية عن العالم. لذا لا نكف عن شرح ما نقول بالكلمات وبالجمل، وتوضيح أفكارنا للآخر (الآخر)، الذي لا يرى الأشياء من الزاوية التي ننظر من خلالها.

هنا يأتي دور النصوص، أي متواليات الجمل، كما تدل الكلمة على هذا، وهذه النصوص

حول الترجمة

هي متواليات الجمل التي تتسج الخطاب في مقطوعات طويلة أو قصيرة. وتعد القصة *récit* أبرز هذه المقطوعات. وتكتسب الحكاية الخرافية أهمية خاصة في أحاديثنا إذ طالما تعلمنا أنه بوسعنا التحدث بشكل مختلف من خلال تنويع الحكبة. لكن هناك أيضاً أنواع أخرى من النصوص التي لا قَصَّ فيها كما في النصوص الأخلاقية والقانونية والسياسية. هنا تدخل البلاغة بأساليبها واستعاراتها ومجازاتها وغير ذلك، إضافة إلى الصياغات اللغوية التي تخدم استراتيجيات لا حصر لها من بينها الإغراء والتهديد على حساب هم الإقناع الصادق.

ينجم كل ما استطعنا قوله في علم الترجمة عن العلاقات المعقدة بين الفكر واللسان وبين الروح والحرف، كما ينجم السؤال الدائم: هل ينبغي ترجمة المعنى أم ترجمة الكلمة؟. إن العقبات التي تقف أمام الترجمة من لسان لآخر تعود، في الأصل إلى انعكاس اللسان على ذاته، وهو ما دفع شتاينر إلى القول: "الترجمة هي الفهم".

غير أنني أبلغ هنا أكثر ما يتشبه به شتاينر والذي من شأنه تحويل ما قلناه كله إلى اتجاه مخالف لاختبار الآخر (الأخر). يطيب لستاينر تقصي استعمالات الكلام حيث يُستهدف ما هو غير حقيقي وغير واقعي، بمعنى أنه لا يستهدف الخطأ الواضح فحسب، بل أيضاً ما يمكن تصنيفه خارج إطار الواقعي، أي الممكن والمحتمل وما يدل على التمني والافتراضي والطوباوي وهذا يوضح أننا نستطيع القيام بأشياء كثيرة من خلال اللغة. نحن لا نقول الشيء نفسه بطريقة أخرى فحسب بل نقول أيضاً شيئاً آخر غير ما هو كائن، وهذا ما حير أفلاطون حينما تحدث عن أسلوب السفسطائي.

إلى *langage* بل هو نزوع اللغة لكن ليس هذا هو الأسلوب الأكثر زعزعة لما نحن بصدده، الإلغاز والاصطناع والتعمية والإخفاء، أي إجمالاً، نزوعها إلى عدم التوصيل. من هنا يأتي ما أسميه تطرف شتاينر الذي قاده، بسبب مقتته للثرثرة، والاستعمال التواضعي واستغلال اللغة، إلى *soi* سراً معادلة "الترجمة هي الفهم" على علاقة الآخر مقابلة التأويل بالتواصل. عندها تتغلغل حيث نعرثر على ما لا يقبل الترجمة والذي اعتقدنا أننا استبعدناه لحساب *soi-même* بالذات

ثنائية الأمانة/الخيانة. نعثر عليه في طريق أمنيتنا بالتزام أقصى حدود الأمانة. لكن من يطالبنا بالتزام هذه الأمانة وما هو غرضها؟. إنها الأمانة إزاء قدرة اللغة على صيانة السر الذي يمنعها من الخيانة. وبالتالي فهي الأمانة إزاء الذات وليس إزاء الآخرين. صحيح أن شعر بول سيلان الرفيع يقترب مما لا يمكن ترجمته لأنه يجاور، قبل هذا، ما لا يمكن قوله وما لا يمكن Celan بين لسانين. في الانزياح تسميته في صلب لسانه نفسه كما يحدث

أعترف بأني ما زلت حائراً أمام ما يمكن استخلاصه من سلسلة التغيرات المفاجئة هذه. لكنني واثق من ميلي إلى تفضيل الدخول من بوابة الآخر. ومهما قيل، ألا يعود الفضل في حراكنا أولاً إلى واقع التعددية البشرية وإلى اللغز المضاعف الكامن وراء عجز اللغات عن التواصل في ما بينها، وإلى الترجمة؟ أخيراً، بوسعنا الإحساس بغرابة (اختلاف) لساننا لولا اختبار الآخر؟ أخيراً، أما كنا لولا هذا الاختبار، مهددين بالانغلاق على أنفسنا نتجرع مرارة المناجاة وحيدين مع كتبنا؟
المجد إذن للضيافة اللغوية.

لكنني أيضاً أرى بوضوح ذلك الجانب الآخر، أي الجانب المتعلق بشغل اللسان على نفسه. أو ليس هو من يقدم لنا مفتاح الصعوبات التي تعترض سبيل الترجمة؟ وهل أمكننا الإحساس بالسر لولا اقترابنا من المناطق الخطيرة لما يعصى على القول؟ ذلك السر الذي لا يمكن ترجمته؟ وهل استطاعت عيون ما تبادلناه من عبارات الحب والصدقة صيانة قيمة الدراية - سر/دراية التي تحافظ على المسافة في القرب؟
أجل، هناك طريقان للدخول في قضية الترجمة.

ترجمة ما لا يقبل الترجمة

تعالج مساهمتي هنا ذلك التناقض الذي نجده في أساس الترجمة ويعد في الوقت نفسه واحداً من آثارها. أي إنني سأتناول، بمعنى من المعاني، جانب الرسالة الكلامية الذي لا يقبل الترجمة من لسان لآخر.

1. هناك ما لا يترجم أولاً، أي ما لا يقبل الترجمة منذ البداية، وهو تعدد الألسن الذي يحسن أن نطلق عليه من الآن، كما فعل همبولت، اسم تنوع الألسن أو اختلافها الذي يوحي بفكرة عدم التجانس الأساسي الذي من شأنه مصادرة إمكان الترجمة. هذا التنوع يصيب المستويات الفاعلة للغة langage مثل التقطيع الصوتي والمفصلي القائم على المنظومات الصوتية؛ والتقطيع المعجمي الذي لا يقابل الألسن ببعضها من خلال وضع كلمة من هنا مقابل كلمة من هناك، بل بوضع منظومة معجمية هنا مقابل منظومة معجمية هناك على اعتبار أن الدلالات الكلامية في مسرد ما lexique تتطوي على مجموعة من الاختلافات والمترادفات؛ والتقطيع التركيبي الذي يصيب، على سبيل المثال، المنظومات الكلامية وموضع الحدث في الزمن، أو أيضاً التسلسل والتتالي. ونضيف أن الألسن لا تختلف من حيث طريقة تقطيعها للواقع فحسب بل أيضاً من خلال إعادة تكوينه على صعيد الخطاب. بهذا الصدد يلاحظ بينفينيست، في معرض رده على سو سير، أن الوحدة الأولى التي تتألف منها اللغة الدالة هي الجملة وليس الكلمة التي سبق أن تحدثنا عن طبيعتها المتناقضة. الجملة تنظم، بشكل تركيبى، المتحدث والمخاطب والرسالة التي تسعى للدلالة على شيء ما، والمرجع، أي من نتحدث عنه، وموضوع الحديث (شخص يقول شيئاً لشخص آخر حول موضوع ما وفقاً للقواعد المتعارفة في التدليل). عند هذا المستوى يتبين ثنائية أن ما لا يقبل الترجمة مثير للقلق: ليس تقطيع الواقع فقط، بل علاقة المعنى بالمرجع، أي ما نقوله من خلال علاقته بما نتحدث عنه. فترى جمل العالم كله تتطاير بين الناس كما الفراشات التي يتعذر إدراكها. وهذا ليس كل شيء بل هناك ما هو أكثر وأهم، وهو أن الجمل عبارة عن خطابات قصيرة مقتطعة من خطابات أطول هي النصوص.

يعرف المترجمون جيداً أن نصوصنا تريد ترجمة نصوص وليس ترجمة الجمل أو الكلمات. والنصوص بدورها تشكل جزءاً من مجموعات ثقافية يجري من خلالها التعبير عن العالم بروى مختلفة يمكن أن نتواجه ضمن المنظومة الأولية نفسها التي تضطلع بالتقطيع الفونولوجي والمعجمي والتركيبى، لدرجة تحوّل معها ما ندعوه بالثقافة الوطنية أو ثقافة الجماعة إلى شبكة

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

من الرؤى المتعلقة بالعالم، تتنافس سرّاً أو علناً. وهذا ما يذكرنا بالغرب وعلاقاته المتعاقبة باليونانية واللاتينية والعبرية وبمراحل فهمه الذاتي التنافسي منذ القرون الوسطى مروراً بمراحل النهضة والإصلاح والتنوير والمرحلة الرومانتيكية.

هذه الاعتبارات تقودني إلى القول بأن مهمة المترجم لا تنطلق من الكلمة إلى الجملة ثم النص وبعد ذلك إلى المجموع الثقافي بل العكس هو الصحيح: فالمترجم يهبط من النص إلى الجملة فالكلمة، لأنه متشبع بقراءة واسعة لروح هذه الثقافة أو تلك.

في نهاية المطاف يتم وضع مسرد الكلمات. واختيار المسرد هو آخر اختبار يتبلور فيه أخيراً، إلى حد ما، ما ينبغي أن تكون عليه استحالة الترجمة.

2. فرغت تَوّاً من الحديث عن الأول الذي لا يقبل الترجمة. ولبلوغ النهائي الذي لا يقبل الترجمة، لابد الآخر "هذا. عن كيفية قيام الترجمة ب، فقدا، لأنها اليوم موجودة مثلما كانت دائماً في الماضي، فقد سعى التجار والمسافرون والسفراء والجواسيس لإشباع الحاجة إلى نشر التبادلات البشرية خارج حدود الجماعة اللغوية التي تشكل مكوناً أساسياً من تلك التي يقوم عليها التجانس الاجتماعي لتلك الجماعة مثلما يقوم عليها تجانس هويتها. ولطالما عرف المنتمون إلى ثقافة معينة بوجود آخرين لهم أخلاقهم وألسنهم المختلفة. ولطالما كان الآخر مثيراً للقلق فنتساءل متعجبين: هناك إذاً طرائق عيش تختلف عن طرائق عيشنا؟. وقد جاءت الترجمة رداً جزئياً على "اختبار الآخر" هذا. فهي تفترض أولاً وجود الفضول - يتساءل أحد عقلايين القرن الثامن عشر: كيف يمكن للمرء أن يكون فارسياً؟. وكلنا يعرف المتناقضات التي وقع فيها مونتيסקيو في كتابه "رسائل فارسية" في تصوره للطريقة التي ينظر الفارسي من خلالها إلى أخلاق الإنسان الغربي باعتباره يونانياً - لاتينياً ومسيحياً ومؤمناً بالسحر وعقلاً. بهذا الفضول إزاء الآخر ترتبط ما يسميها أنطوان بيرمان في كتابه (اختبار الآخر): الرغبة في الترجمة.

كيف يتصرف المترجم إذن؟ هنا أستعمل فعل "تصرف" عن قصد. لأن الفضل في اجتياز

حول الترجمة

المترجم، مبدئياً، لعقبة عدم إمكان الترجمة من لسان لآخر، يعود إلى هذا الفعل، ويفضله أيضاً يتجاوز عقبة الاعتراض النظري على عدم الإمكان هذه أيضاً. في دراسة سابقة ذكرت المحاولات الرامية إلى إيجاد حل نظري للحيرة بين عدم إمكان الترجمة من حيث المبدأ، وبين ممارسة الترجمة، لأنها تجري إما باللجوء إلى لسان أصلي *originelle* أو إلى تكوين لسان مصطنع عثر أمبرتو إيكو عليه مصادفة في كتابه "البحث عن لسان كامل في الثقافة الأوربية". ولن أعود إلى ما قدم من براهين على فشل هاتين المحاولتين: أي عبثية إعادة تشكيل لسان أصلي (أولي) يبدو من المتعذر العثور عليه. وقد يكون الأمر مجرد توهم، أي توهم الأصل الذي أصبح تاريخياً، والرفض البائس للشرط الإنساني الحقيقي الذي هو شرط التعددية التي تمتد فوق مستويات الوجود كلها. تعددية يشكل تنوع الألسن فيها أكثر التجليات إرباكاً حيث يتساءل المرء: ولم هذا العدد من الألسن؟ فيأتي الجواب: هكذا!. إننا موجودون بقوة القانون وليس، مصادفة قد تكون خطأ، "بعد بابل"، كما يشير عنوان شتاينر. أما في ما يتعلق باللسان الكامل المكمل، باعتباره لساناً مصطنعاً، فتلك قضية لا يمكن حلها لأن أحداً لم ينجح في كتابة مثل هذا اللسان بعد العجز عن تحقيق الشرط الأولي اللازم لإجراء تعداد شامل للأفكار البسيطة ولغياب طريقة شاملة للاشتقاق وبسبب الانزياح بين اللسان المصطنع المزعوم والألسن الطبيعية بما تتضمنه من أمزجة وغرائب. ويضاف إلى هذا الانزياح تلك الطريقة المختلفة التي تقوم الألسن المتنوعة من خلالها بمعالجة العلاقة القائمة بين المعنى والمرجع، والعلاقة بين التعبير عن الواقع والتعبير عن شيء آخر يختلف عن الواقع مثل الممكن أو غير الواقعي أو الطوباوي، أي السري أو عما لا يمكن قوله، أي باختصار، التعبير عن شيء آخر يختلف عن الشيء الذي يمكن إيصاله. إن نقاش اللسان مع السري أو المخفي أو الغامض يعني الحوار حول ما لا يمكن إيصاله وعن الأولي العصي الذي لا يمكن ترجمته.

إذاً كيف يتصرف المترجمون؟. في دراستي السابقة حاولت إيجاد مخرج عملي من خلال وضع البديل المعوق: أمانة # خيانة، في محل الخيار: ما يمكن ترجمته # ما لا يمكن ترجمته- مع اعترافي بأن ممارسة الترجمة تبقى مخاطرةً دائمةً للبحث عن نظرية لها.

أريد العودة إلى هذا الاعتراف مشيراً إلى ما أسميه: النهائي غير القابل للترجمة، الذي تكشفه الترجمة بل وينشأ عنها. تصبح معضلة الأمانة/الخيانة معضلة حقيقية لغياب معيار مطلق اسمه الترجمة الجيدة. قد يكون هذا المعيار المطلق هو المعنى نفسه المكتوب في مكان ما، فوق نصي الانطلاق والوصول أو بينهما. وقد يكون النص الثالث حاملاً للمعنى المطابق المفترض أنه ينتقل من الأول إلى الثاني. هنا يبرز التناقض الذي تخفيه الحيرة الحقيقية بين الأمانة والخيانة: لا يمكن للترجمة الجيدة إلا أن تحقق تكافؤاً مزعوماً غير قائم على تطابق معنوي قابل للبرهان، أي تكافؤ بلا تطابق. عندها يمكن ربط عمل الترجمة بزعم وجود تكافؤ بلا تطابق، وهو عمل يتضح جلياً في إعادة ترجمة النصوص الإنسانية العظيمة، لاسيما تلك التي تتجاوز عقبة اختلاف منظومات التقطيع وإعادة البناء الجملي والنصي التي ذكرناها، كما هو الحال بين العبرية واليونانية واللاتينية أو بين أسن الهند ولسان الصين. ومع ذلك لم نتوقف عن إعادة الترجمة ضمن المساحة الثقافية نفسها كما في إعادة ترجمة التوراة وهوميروس وشكسبير ودستوفسكي. ومثل هذا العمل (أي إعادة الترجمة) يشكل مصدر طمأنينة للقارئ لأنه يضع بين يديه أعمالاً تنتمي إلى ثقافة أجنبية يجهل لسان أهلها. أما بالنسبة لحيرة المترجم بين الأمانة والخيانة، فقد قام عشاق الترجمة الكبار، وهم الرومانتيكيون الألمان الذين تحدث أنطوان بيرمان عن مغامرتهم في كتابه: اختبار الآخر قاموا بمضاعفة صور هذه الحيرة العملية التي كانوا يخفون من وطأتها بعبارات نحو "اقتياد القارئ إلى المؤلف" و"اقتياد المؤلف إلى القارئ". إن ما كانوا يخفون من وطأته هو الفلق من القيام على خدمة سيدين: الآخر في غرابته والقارئ في رغبته بالتملك. وقد نساهم في هذا التخفيف باقتراح التخلي عن السعي إلى إنجاز ترجمة كاملة مكملة والاعتراف بالاختلاف الذي لا يمكن تجاوزه بين ما يخلصنا وبين ما يخص الآخر. وللمرة الثانية سيشكل هذا الاعتراف منطلقاً لي.

مع ذلك كله، فإن ما كان مفترضاً وراء صيغة التكافؤ بلا تطابق، التي تبدو في ظاهرها متواضعة، هو الوجود القَبْلِيُّ للمعنى الذي يفترض بالترجمة "تقديمه" مصحوباً بفكرة "الاستعادة" الغامضة. هذا التكافؤ لا يمكن أن يتحقق إلا إذا بحثنا عنه وعملنا عليه وخدمناه.

حول الترجمة

هذا التخمين هو الذي ينبغي أن يكون موضع تساؤل. فهو مقبول نسبياً ضمن مساحة ثقافية واسعة حيث الهويات البشرية بما فيها الثقافية هي نفسها نتيجة تبادلات استمرت حقباً طويلة كما في المناطق الهندو-أوربية، أو بالأحرى في تجمعات فرعية تربطها القرابة كما هو حال الألسن الرومانية والجرمانية والسلافية، وفي العلاقات الثنائية كتلك القائمة بين اللسان اللاتيني واللسان الجرمانى والألسن الأنجلو سكسونية. عندها يبدو التخمين بوجود التكافؤ مقبولاً. الواقع أن القرابة الثقافية تخفي الطبيعة الحقيقية للتكافؤ الذي تنتجه الترجمة ولا تخمنه. مرجعي في هذا كتاب لا يتعلق بالترجمة مباشرة لكنه يبين جزئياً ظاهرة أحاول وصفها، وهي ظاهرة إنتاج التكافؤ عن طريق الترجمة. مرجعي في هذا كتاب مارسيل ديتيان، أحد المتخصصين في الحضارة اليونانية القديمة، الموسوم: مقارنة ما لا يقبل المقارنة. ومع أن الكتاب لا يتعلق مباشرة، حيث لترجمة إلا أنه يتحدث عن ظاهرة أحاول تقديم وصف لها وهي ظاهرة التكافؤ عن طريق الترجمة. الكتاب موجه ضد الشاعر القائل بأنه لا يمكن عقد المقارنة إلا بين أشياء تقبل المقارنة (ص 45) ولذا فهو يتحدث عن "الاتجاه البناء في المقارن، حيث يتحدث بيرمان عن "اختبار الآخر" نجد أن ديتيان يتحدث عن "صدمة ما لا يقبل المقارنة". ويشير إلى أن ما لا يقبل المقارنة يضعنا أمام "غرابية الحركات والسلوكيات الأولية" (ص 48).

دعونا نطبق صيغة "بناء الأشياء التي تقبل المقارنة" على الترجمة عبر مثال عملي تضمنه تفسير قدمه فرانسوا جوليان، أحد المتخصصين الفرنسيين اللامعين باللغة الصينية.

قدم جوليان تفسيراً للعلاقة بين الصين القديمة واليونان في طورها القديم والكلاسيكي. هذا الفرضية، التي أستعملها كفرضية عمل بدون مناقشتها، تقول إن اللغة الصينية هي المطلق الآخر للغة اليونانية، وأن معرفة داخل اللغة الصينية يعادل القيام بتفكيك التفكير والكلام اليونانيين من الخارج. عندئذٍ نحن من بيدي الغرابية المطلقة، ونحن الذين نتكلم اللغة اليونانية ونفكر من خلالها سواء فكرنا باللسان الألماني أو بأي لسان لاتيني. وتبلغ هذه الفرضية مداها الأقصى حينما نقول بأن اللغتين اليونانية والصينية تتميزان بوجود عقبة pli أولية توجد في ما يمكن التفكير فيه وفي ما يمكن البرهنة عليه، وهي عقبة لا يمكن تجاوزها. لذا يؤكد جوليان في

كتابه الأخير "عن الزمن" أن الصيني لا يملك الأزمنة الكلامية (الفعلية) بسبب انعدام مفهوم الزمن عنده، أي الزمن الذي تحدث عنه أرسطو في الجزء الرابع من كتابه الفيزياء وأعاد كانط بناءه في "علم الجمال المتعالي" وعممه هيجل عبر أفكاره المتعلقة بالسلسبي والانقطاع Aufhebung. كتاب جوليان كله يعج بعبارات مثل "لا يوجد... ليس هناك... بل هناك". هنا أ طرح السؤال: كيف يعبر الفرنسيون بلغتهم عما هو كائن في اللغة الصينية؟ علماً أن جوليان لا يذكر كلمة صينية واحدة باستثناء كلمة -yen yang! مع أنه يكتب بلغة فرنسية جميلة عما يحل محل الزمن، أي عن فصول السنة والمناسبات والجذور وأوراق الشجر والينابيع وحالات مد البحر. بانياً لنا بهذا أشياء قابلة للمقارنة وفقاً للطريقة التي ذكرتها وهي أننا حينما نقوم بالترجمة من الأعلى نحو الأسفل فإنما نتبع الحدس الشامل الذي يركز اهتمامه على اختلاف "الصعوبة" pli مروراً بالكتب والكلاسيكيات الصينية لكي ينزل نحو الكلمات، مما يعني في نهاية المطاف أننا نعبر عن بناء ما يقبل المقارنة من خلال المسرد lexique الذي نجده في كلمات ألسنا "اليونانية" غير الكلمات المعتادة التي لم تحظ بالتقدير الفلسفي وقامت الترجمة بانتزاعها من سياقات استعمال معينة ورفعت إلى مرتبة الشرف التي تحتلها التكافؤات. هذه التكافؤات الشهيرة التي تنفقر إلى الهوية مع زعمنا بأن لها وجوداً سابقاً لا نراه في مكان ما قد يتمكن المترجم من الكشف عنه؟.

عظمة الترجمة تكمن في المخاطرة بالعمل فيها؛ والتملك المبدع من خلال لسان الاستقبال، وهي بناء ما لا يقبل المقارنة. إلا أن هذا الحال لم يكن حال المراحل المتعددة التي مرت بها ثقافتنا. فحينما أقدم السبعيون Septante على ترجمة الكتاب المقدس العبراني في النسخة التي نطلق عليها "نسخة السبعين حاخام"، وهي نسخة لا يمكن توجيه النقد المتروي لها إلا من قبل المتخصصين بالعبرية. يمكن للمتخصصين باللغة العبرية. وكرر القديس جيروم خطأه عندما ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية La vulgate وهو بناء ما يقبل المقارنة باللغة اللاتينية. لكن اللاتينيين أبدعوا قبل جيروم نصوصاً أو كلمات قابلة للمقارنة عندما قرروا لنا أن virtus هي ترجمة لكلمة arête و urbs تقابل polis و civis تقابل politès. ولكي نبقي في مجال

حول الترجمة

الكتاب المقدس، يمكننا القول إن لوثر لم يقم ببناء القابل للمقارنة فقط حينما ترجم هذا الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية عبر "ألمنته" كما قالها بجرأة، في مقابل لاتينية القديس جيروم، بل أبدع أيضاً اللغة الألمانية باعتبارها مضارعة للغة اللاتينية ولغة نسخة السبعين اليونانية ولغة الكتاب المقدس العبري.

3. لم نأت على كل ما يتعلق بما لا يقبل الترجمة، لأننا قمنا بحل لغز التكافؤ بالقيام بينائه. بل أصبح بناء القابل للمقارنة مبرراً لارتكاب خيانة مزدوجة ما دام السيدان غير المحدودين تحولاً إلى سيدين محدودين من خلال عملية الترجمة-البناء. بقي أخيراً، أمرٌ ما لا يقبل الترجمة النهائي الذي نكتشفه من خلال بناء ما يقبل الترجمة أو القابل للمقارنة. هذا البناء يجري على صعيد "المعنى". والمعنى هو الكلمة الوحيدة التي لم نتناولها بالتعليق لأننا افترضنا وجوده. مع أنه يجري انتزاعه من الوحدة التي ينتمي إليها مع لب الكلمات، وهذا اللب نسميه "حرفاً". وقد تخلص المترجمون منه بطيبة خاطر حتى لا يتهموا بممارسة "الترجمة الحرفية". لكن أليست الترجمة الحرفية هي ترجمة كلمة بكلمة؟ يا للعار! يا للمصيبة! لقد قام مترجمون بارعون مثل هولدرلين وبول سيلان وهنري ميشونيك في المجال التوراتي قاموا بحملة ضد ترجمة المعنى لوحده، أي المعنى بدون الحرف، المعنى في مقابل الحرف. وهجروا ملجأ تكافؤ المعنى المريح وخطروا بالدخول إلى مناطق يحثوا فيها عن قضايا الموسيقى والذوق والإيقاع والفواصل المنتظمة والصمت بين الكلمات والعروض والقافية.

الغالبية العظمى من المترجمين يقاومون، بلا شك، وفقاً لمقولة: انفذ بجلدك *sauve-qui peut* دون الاعتراف بأن ترجمة المعنى وحده يعد إنكاراً لما حققته السيميائية المعاصرة في مجال وحدة المعنى والصوت، ووحدة الدال والمدلول خلافاً للفكرة السابقة التي ما تزال موجودة في كتابات هوسرل الأولى، وهي أن المعنى تام في عبارة "منح المعنى" *conférer sens* - *sinnegebung* الذي يدرس التعبير *expression* كأنه لباس آخر على الجسم، في الوقت الذي هو فيه الروح الملموسة للمعنى أي للدلالة *bedeutung*. النتيجة هي أن الشاعر يمكنه ترجمة الشاعر. لو كان بيرمان في قيد الحياة - وما أشد شوقنا إليه وأسفنا على وفاته - لأجبتّه بأنه آخر كثيراً، ما يمكن

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

مقارنته، على صعيد الحرف. على قاعدة نجاح هولدرلين المقلق الذي يتحدث اليونانية باللغة الألمانية وربما نجاح ميشونيك في تكلمه العبرية باللغة الفرنسية. أما الترجمة الحرفية التي يتابعها مختاراً فليست ترجمة كلمة بكلمة بل حرفٍ بحرف.

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية¹

د. وليم كوكراهام وجراهام سكامبلر

ترجمة: د. حسني إبراهيم عبد العظيم

جامعة بني سويف - مصر

مقدمة

تعد العلاقة بين علم الاجتماع الطبي¹ والنظرية السوسولوجية أمراً جوهرياً وحاسماً بالنسبة

¹ هذا الفصل مترجم عن المصدر التالي: William C. Cockerham and Graham Scambler, Medical Sociology and Sociological Theory, in William C. Cockerham (ed.) (2010) The Blackwell Companion to Medical Sociology, Blackwell Publishers Ltd., pp. 3-22. وليام كوكراهام (1939-).
وجراهام سكامبلر (1948) من أهم رواد علم الاجتماع الطبي المعاصرين، فعالم الاجتماع الأمريكي كوكراهام له العديد من الدراسات والأبحاث الهامة في هذا المجال، من أهم مؤلفاته علم الاجتماع الطبي Medical Sociology 1986 وسوسولوجيا الاضطراب النفسي Society of Mental Disorder 1995 ومجتمع الشيخوخة This Aging Society 1996، معجم علم الاجتماع الطبي Dictionary of Medical Sociology 1997، والدليل إلى علم الاجتماع الطبي The Blackwell Companion to Medical Sociology 2010 وغير ذلك من المؤلفات الهامة، فضلاً على عشرات البحوث والدراسات في المجلات العلمية الرائدة في علم الاجتماع، كما أنه أسس في عام 1995 نظرية نمط الحياة الصحي Health life style، وهي إحدى النظريات الهامة في علم الاجتماع الطبي في الوقت الراهن. أما سكامبلر فهو عالم اجتماع بريطاني له جهود معتبرة في تطوير علم الاجتماع الطبي في بريطانيا، من أهم مؤلفاته تطبيق علم الاجتماع في الطب Sociology as applied to medicine (1982) والنظرية السوسولوجية وعلم الاجتماع الطبي Sociological theory and medical sociology (1987) والحدائق والطب والصحة Modernity, medicine and health (1998) وهابرماس والنظرية النقدية والصحة Habermas, critical theory and health (2001) والصحة والتغير الاجتماعي Health and social change (2002) وعلم الاجتماع الطبي Medical sociology (2005) والمنظرون المعاصرون وعلم الاجتماع الطبي Contemporary theorists and medical sociology (2012) إضافة لعشرات المقالات والبحوث والفصول المتفرقة في كتب مختلفة.

لعلم الاجتماع الطبي، فالنظرية تربط علم الاجتماع الطبي بالميدان الأوسع وهو علم الاجتماع أكثر من أي جانب آخر من جوانب المشروع المعرفي السوسولوجي. ثم إن النظرية عادة ما تميز البحث في مجال علم الاجتماع الطبي عن الدراسات الموجهة اجتماعياً في المجالات القريبة منه، كالصحة العامة وبحوث الخدمات الصحية، ولأن الإسهامات السوسولوجية الأصيلة في الدراسات الكمية والكيفية، والعديد من المفاهيم الأساسية المتعلقة بالسلوك الاجتماعي تندرج في العديد من المجالات العلمية البينية، فإن النظرية السوسولوجية تتيح لعلم الاجتماع الطبي أن يبقى فريداً ومتميزاً بين النظم المعرفية الاجتماعية المنشغلة بقضايا الصحة.

والحق أن ذلك يعدُّ - بشكل ما - أمراً مستغرباً، ذلك لأن علم الاجتماع الطبي كان يوصف في الماضي بأنه نسق معرفي (غير نظري) atheoretical. وصحيح أن معظم الجهود في هذا العلم كانت - تاريخياً - تطبيقية تهدف إلى حل مشكلة طبية أو قضية إجرائية، أكثر من انشغالها بتطوير نظرية أو استعمال النظرية في التفسير. والواقع أن علم الاجتماع الطبي لم يكن قد أسس بعد حتى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حينما منحت الحكومة الأمريكية تمويلاً مكثفاً من خلال المعاهد القومية للصحة للربط بين المشروعات البحثية السوسولوجية والطبية، وساد نفس الوضع في أوروبا الغربية، حيث أن عدداً محدوداً من علماء الاجتماع الطبي كانوا - على العكس مما يوجد في الولايات المتحدة - منتسبين لأقسام علم الاجتماع الجامعية، وكان ارتباطهم بالفرع الأم (علم الاجتماع العام) ضعيفاً (كلاوس 1982 وكوكراهام 1983)، والحقيقة أن وفرة الاعتمادات المالية الحكومية جعلت علماء الاجتماع والعاملين في النسق الطبي يتبنون علم

¹ علم الاجتماع الطبي أحد الفروع الحديثة والهامة لعلم الاجتماع يهتم بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للصحة والمرض، وما يرتبط بهما من قضايا مستنداً في ذلك إلى الإطار النظري والمنهجي لعلم الاجتماع. وقد أنشئ قسم لعلم الاجتماع الطبي في الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع في عام 1959، وأصدرت الجمعية أول مجلة علمية في علم الاجتماع الطبي في عام 1967، وهي مجلة الصحة والسلوك الاجتماعي، وشهد هذا الفرع نمواً وتطوراً هائلاً بصورة فاقت تطور بعض الفروع العريقة لعلم الاجتماع. انظر: حسني إبراهيم عبد العظيم (2017) علم الاجتماع الطبي: الجذور التاريخية والقضايا المعاصرة، دار الكتاب الجامعي، بني سويف، مصر. (المترجم)

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

الاجتماع كنظام علمي جديد. ولم تكن المؤسسات التمويلية مهمة بالعمل النظري، بل كانت ترعى البحوث التي تتضمن فوائد عملية لمجتمع ما بعد الحرب، وكانت الحكومات الغربية قد بدأت تدرك أن العوامل الاجتماعية مهمة للصحة.

ومع نهاية القرن العشرين تغير الموقف تماماً، حيث ظل معظم البحوث في علم الاجتماع الطبي موجهاً نحو حل مشكلات الممارسة الطبية، بيد أن استعمال النظرية السوسولوجية في هذا المسعى أضحى أمراً واسع الانتشار. حيث طرأ تطور عام في الجهد العلمي في علم الاجتماع الطبي، فتم الاقتران بين الدراسات التطبيقية والاتجاهات النظرية، بحيث تُستعمل النظرية السوسولوجية كإطار عام لتفسير العلاقة بين الصحة والسلوك الاجتماعي أو التنبؤ بتلك العلاقة، وفي الوقت ذاته ابتعد علم الاجتماع الطبي عن حالة تبعيته للطب في الأجندة البحثية إلى وضع مستقل نسبياً، والواقع أنه رغم أهمية العلاقة بين الطب وعلم الاجتماع الطبي، فإن تلك العلاقة لم تكن متناغمة على الدوام، حيث مال علم الاجتماع الطبي نحو المرضى وأعطى اهتماماً أكبر لحالات سوء المعاملة للمرضى، على حين نظر بعض الأطباء باستخفاف إلى دور علماء الاجتماع الطبي داخل المؤسسات الصحية.

ومع ذلك فإن الطب قام في مرحلة مبكرة برعاية علم الاجتماع الطبي وتمويل بحوثه وساهم في تطوره، وما زال مستمراً في ذلك حتى الآن. والحقيقة أن المرء يمكن أن يقرر بارتياح أن الطب قد دعم علم الاجتماع الطبي بالتمويل وتوفير فرص للعمل بدرجة تفوق كثيراً ما قدمه علم الاجتماع، ويمكن الادعاء أيضاً أن الاستعمال المتنامي للنظرية في علم الاجتماع الطبي يمثل جهداً من جانب علماء الاجتماع الطبي لتدعيم الروابط بعلم الاجتماع العام وليس العكس. والمحصلة أن الطب كان ومازال حليفاً جيداً لعلم الاجتماع الطبي بدرجة أكبر من علم الاجتماع.

وحيثما بدأ علم الاجتماع الطبي في الاقتراب من علم الاجتماع، بدأ في تحرير نفسه من التبعية للطب، وثمة أسباب أربعة لهذا التطور: الأول أن التحول من الأمراض الحادة إلى الأمراض المزمنة كأسباب أولية للوفاة في المجتمعات المعاصرة جعل علم الاجتماع الطبي

يحظى بأهمية متزايدة في مجال الطب، وذلك بسبب الدور المحوري للسلوك الاجتماعي والظروف المعيشية في الوقاية أو الإصابة بالأمراض المزمنة، وفي مسارها وتطورها، حيث أظهر علماء الاجتماع الطبي مهارة واضحة في تحليل الظروف الاجتماعية المرتبطة بالصحة والمرض أكثر من الأطباء الذين تلقوا تدريباً يسيراً في هذا المجال، وربما لم يتلقون تدريباً على الإطلاق. السبب الثاني أن علم الاجتماع الطبي اتجه نحو شراكة أكبر مع الطب حينما تمكن من إنتاج كم هائل من التراث البحثي الناضج كان أغلبه ملائماً للطب السريري والسياسة الصحية. السبب الثالث هو أن نجاح البحوث السوسولوجية في الطب عزز المكانة المهنية لعلماء الاجتماع الطبي في مجالي الطب وعلم الاجتماع، أما السبب الرابع فيتمثل في أن علم الاجتماع الطبي وضع أجندته البحثية التي تتضمن السياسة والممارسة الطبية كموضوع وهدف للدراسة، ففضايا مثل سوء الممارسة الطبية، الفشل في الحد من وجود الممارسين غير الأكفاء، الإتاحة المحدودة للفقراء من الرعاية الطبية الجيدة، وتقديم المصالح المهنية على مصالح الجمهور، مثل تلك القضايا جعلت من علماء الاجتماع الطبي نقاداً قساة للنسق الطبي. إن اتجاه علم الاجتماع الطبي إلى تكوين أواصر قوية مع علم الاجتماع العام يعكس رغبة العلم الوليد في توسيع إمكانياته التحليلية، وتدعيم قدراته الذاتية. كما أن الظروف الاجتماعية المتغيرة المرتبطة بانتقال المجتمع من نمط المجتمع ما بعد الصناعي إلى مجتمع الحداثة المتأخرة أو ما بعد الحداثة، تطلب من كل علماء الاجتماع أن يفسروا تلك التغيرات، وأن يصوغوا مفاهيم جديدة تلائمها. إن هذا الموقف يبيّن أن علم الاجتماع الطبي لا ينتمي فقط لعلم الاجتماع العام، وإنما يبيّن كذلك أن هناك توجهاً من علم الاجتماع العام ذاته نحو الارتباط الوثيق بهذا الفرع؛ لأن الصحة أضحت عاملاً مؤثراً دائماً في مختلف الجوانب الاجتماعية للحياة اليومية للأفراد، وأن علماء الاجتماع الطبي هم الأكثر قدرة وكفاءة في تفسير ذلك التداخل.

وفي ظل الظروف الراهنة للتغير الاجتماعي يستعمل علماء الاجتماع الطبي النظرية السوسولوجية بطريقة مميزة، لأن النظرية تعزز القوة التفسيرية لمعطياتهم الإمبريقية، هذا التطور قاد البعض إلى الاعتقاد أن علم الاجتماع الطبي يؤكد أنه الرائد في تطوير النظرية

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

السوسولوجية المعاصرة. (تيرنر 1992) ومع أن درجة تحقيق تلك المقولة تحقياً كاملاً لم تتأكد بعد، فإن الواضح أن ثمة قدراً معتبراً من الجهد النظري يجري في علم الاجتماع الطبي (كوكراهام 2007 أ) وسوف يقدم الجزء المتبقي من هذا الفصل نظرة عامة فيما يتعلق بالنظرية في هذا المجال.

بارسونز، دوركايم والبنائية الوظيفية

خلال المدة من عام 1946 حتى عام 1951 كان علم الاجتماع الطبي - ذلك المجال الوليد - منطقة بحثية تطبيقية خالصة تقريبا، حيث عمل علماء الاجتماع الطبي مع الأطباء النفسيين وغيرهم من الأطباء في مشروعات ممولة من الحكومة لمعالجة مشكلات طبية محددة، وعمل عدد قليل من علماء الاجتماع الطبي في أقسام علم الاجتماع بالجامعات الأمريكية، وغابوا تماماً عن أقسام علم الاجتماع في أوروبا وآسيا.¹ غير أن حدثاً علمياً مهماً وقع في عام 1951 وجّه علم الاجتماع الطبي نحو الانشغال بالجانب النظري، والشروع في تدشين مؤهلاته الأكاديمية. كان ذلك الحدث هو صدور كتاب النسق الاجتماعي The Social System لـ (تالكوت بارسونز)، ذلك الكتاب الذي جعل من بارسونز الشخصية المهيمنة في علم الاجتماع الأمريكي في ذلك الوقت. فأضحت أعماله تجذب اهتماماً كبيراً؛ لأنه كان يرسم مساراً نظرياً عاماً لعلم الاجتماع ككل.

قدم الكتاب نموذجاً بنائياً وظيفياً للمجتمع، تضمن مفهوم بارسونز عن دور المريض sick

¹ ينطبق هذا الوضع أيضاً على علم الاجتماع الطبي في إفريقيا والوطن العربي، حيث أن بداية الاهتمام بهذا المجال لم يبدأ في العالم العربي إلا في أواخر السبعينات في مصر، وتحديدًا في عام 1979 حينما تم افتتاح كلية الطب في جامعة قناة السويس، وبدأت بها الدراسة بطريقة فريدة حيث ركزت على الجوانب الاجتماعية في الممارسة الطبية واستعانت بأعضاء من هيئة التدريس بقسم علم الاجتماع بجامعة القاهرة لتوضيح أهم الجوانب الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالصحة والمرض، ثم توالى بعد ذلك الجهود العلمية في هذا المجال الجديد. انظر: على المكاوي (1990) علم الاجتماع الطبي: مدخل نظري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 35. (الترجم)

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

role وكانت تلك هي المرة الأولى التي يهتم فيها مُنظر سوسولوجي كبير بتحليل وظيفة الطب في سياق رؤيته للمجتمع. لقد كان بارسونز (1951:482-489) مهتماً بالأدوار المختلفة للمهنيين في المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، وقرر أن يشمل الأطباء وعلاقاتهم بمرضاهم في تحليله، وذلك لأن هذا الموضوع يعد مجالاً للاهتمام الطويل الأمد، كما أنه شعر بشئ من الألفة نحو هذا المجال، فقد تلقى بارسونز تدريباً في التحليل النفسي في عام 1950 في معهد بوسطن للتحليل النفسي Boston Psychoanalytic Institute عندما كان عضواً في هيئة التدريس بجامعة هارفارد (سملسر 1998).

هذه الخبرة جعلته يتعمق في نظريات فرويد التي تركت تأثيراً كبيراً في أعماله، إضافةً إلى تأثره بأفكار الرائدتين الكبيرتين إميل دوركايم وماكس فيبر. أتم بارسونز دراسات الدكتوراه في جامعة هايدلبرج الألمانية، وشارك أثناء ذلك في دائرة فيبر Weber Circle التي استمرت في الانعقاد بانتظام لمناقشة قضايا علم الاجتماع بعد وفاة فيبر في منزل أرملة ماريان فيبر. قام بارسونز في وقت لاحق بترجمة كتاب فيبر الشهير (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) عام 1958 إلى اللغة الإنجليزية، وأعاد تقديم أعمال دوركايم وفيبر لعلماء الاجتماع الأوروبيين بعد انقطاعها أثناء الحرب العالمية الثانية، إن مفاهيم فرويد عن التحويل والتحويل المضاد يمكن تلمسها في أسلوب بارسونز في استنتاج أوجه المماثلة بين دور الوالدين والطفل ودور الطبيب المريض والتي كانت مهمة في فكرته عن دور المريض. وتنبدى كذلك أفكار حول بناء الشخصية ونظرية اللاوعي في أفكار بارسونز حول دافعية المرضى إما للشفاء أو تحقيق المكاسب (الثانوية) للمزايا المصاحبة لدور المريض وإعفائه من أداء الأدوار الاجتماعية العادية بطريقة مشروعة. وقد مزج بارسونز بين أفكار دوركايم عن السلطة الأخلاقية وتحليل فيبر للدين في مناقشته للشرط المعياري لزيارة الطبيب عندما يكون الشخص مريضاً، وتحليل الوضع المهيمن للطبيب في نسق العلاقة بين الطبيب والمريض.

إن مفهوم دور المريض الذي طرحه بارسونز يعد بياناً واضحاً وصريحاً لأربع قضايا أساسية¹ تحدد النمط المعياري لاستفادة المرضى من الأطباء وللدور الاجتماعية لكل منهما. والحقيقة أن بارسونز لم يشيد فقط المفهوم النظري الأول القابل للتطبيق في علم الاجتماع الطبي، وإنما فعل ذلك في إطار معايير النظرية السوسولوجية الكلاسيكية من خلال استفادته من جهود دوركايم وفيبير. إن صياغة بارسونز لمفهوم دور المريض قد تم التعامل معها بحق باعتبارها تحليلاً ملائماً وناجحاً للمرض من وجهة نظر سوسولوجية متميزة (فريديسون 1970).

وقد أثر بارسونز أيضاً في دراسة المهن من خلال استعمال مهنة الطب نموذجاً للمهن المرتكزة على الخبرة ذات التوجه الخدمي. وعلى الرغم من النقد الواسع لنموذج بارسونز في وقت لاحق، فإن ذلك لا ينفي التأثير الكبير الذي تركه بارسونز في تعزيز النقاش والبحوث في علم الاجتماع الطبي. لقد جعل بارسونز أكثر من أي عالم اجتماع آخر في ذلك الوقت علم الاجتماع

¹ يرى "بارسونز" أن دور المريض له أربعة جوانب هامة تمثل الأبعاد الأساسية له، يمثل البعدان الأول والثاني "حقوق المريض" ويمثل البعدان الثالث والرابع "واجبات المريض" ويتضح ذلك فيما يلي:

1. يتم إعفاء Exemption المريض من المسؤوليات المرتبطة بحياته اليومية المعتادة، ويرتبط هذا الإعفاء بطبيعة المرض وشده، ويمثل الطبيب السلطة الرسمية لإضفاء الشرعية Legitimation علي إعفاء المريض من مسؤولياته، ويعد هذا الإعفاء حقاً من حقوق المريض يقره المجتمع ولا يتعرض لأي لوم من أفراد المجتمع.
2. يعد المريض شخصاً يحتاج للمساعدة من أجل تحسين حالته، فهو في وضع لا يستطيع أن يساعد نفسه، وفي حاجة لمن يهتم به وخاصة الجماعة القربانية وأسرته، ويعد هذا حقاً آخر من حقوق المريض. أما واجبات المريض، فهي:
3. يجب أن يدرك المريض أنه في حالة غير مرغوب فيها Undesirable وينبغي أن يكون لديه الرغبة القوية في أن يصبح في حالة جيدة بأسرع ما يمكن.
4. يجب علي المريض أن يبحث عن المساعدة الطبية اللازمة لعلاج حالته، وغالباً ما تجري هذه المساعدة لدى الطبيب المتخصص، ولذا يجب أن يتعاون المريض مع طبيبه. وإذا تقاعس المريض عن الذهاب إلي الطبيب وطلب المساعدة الطبية، فإنه يتخلى عن أحد واجباته، ولا يعد مريضاً وإنما يعد ممتارضاً Malingerer ويحاول الهروب من مسؤولياته اليومية، ومن ثم يتعرض للعقاب الاجتماعي من أفراد المجتمع. انظر: Parsons, (المترجم) Talcott (1951) The Social system, The Free Press, N.Y. p. 459.

أكثر احتراماً من الناحية الأكاديمية من خلال إمداده بتوجهاته النظرية المبدئية.

وعلى كل حال، فإن البنائية الوظيفية بسبب تأكيدها التوافقَ القيمي، والنظام الاجتماعي، والاستقرار، والعمليات الوظيفية في المستوى الأكبر Macro – level للمجتمع، لم تدم طويلاً كنموذج نظري رائد في علم الاجتماع الطبي. وقد وسع روبرت ميرتون وزملاؤه نطاق التحليل البنائي الوظيفي فدرسوا عملية تنشئة طلاب الطب socialization of medical students في كتابهم المعروف (الطبيب الطالب) (The Student Physician) (1957). غير أن البنائية الوظيفية ذاتها قد تعرضت لهجوم عنيف من قبل النقاد خلال المدة من عام 1960 حتى عام 1970، ومن ثم فقدت نفوذها الكبير.

ولقد ألحَّ دوركايم (1950) - الذي كان بصورة عامة أحد رواد النظرية - على أهمية المستوى الأكبر Macro-level للعمليات والبنى الاجتماعية والمعايير والقيم الخارجية التي تُفرض على الأفراد، وتجعلهم مرتبطين مع المجتمع الأكبر، وتساهم في تشكيل سلوكهم. وتم تصوير الناس كأنهم مجبرون على الانصياع للنظام الاجتماعي (بإرادتهم الحرة). وتعد نظريته عن الانتحار التي أوضح فيها أن تعامل الفرد مع حياته يتحدد وفقاً لروابط ذلك الفرد بجماعته أو مجتمعه هي العمل الوحيد لدوركايم الذي له تطبيق مباشر في علم الاجتماع الطبي، ويتضح ذلك من خلال تميطه للصور الثلاثة للانتحار: الأناني (الانفصال الاجتماعي)، واللامعاري (حالة انعدام المعايير) والإيثاري (قوة الترابط الاجتماعي). إن فائدة نظرية دوركايم أنها تظهر قدرة المجتمع الأكبر على خلق ظروف ضاغطة، حيث يكون الأفراد مجبرين على الاستجابة لظروف ليست من اختيارهم، لذا فإن دوركايم لا يساعدنا فقط على فهم الجوانب الاجتماعية للانتحار، وإنما يجعلنا ندرك أن الأحداث الاجتماعية الكبرى (مثل الركود الاقتصادي) يمكن أن تؤثر في الصحة بطرق متباينة من خلال الضغوط، وأن تلك الضغوط يمكن تخفيفها من خلال الدعم الاجتماعي. (كوكروهم 2010) ومن ناحية أخرى فقد أثر دوركايم بطريقة غير مباشرة في دراسة المهن الصحية من خلال ملاحظته للانتقال من التضامن الآلي للتضامن العضوي، وتأثيره في التخصص والتقسيم المعاصر للعمل.

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

وعلى كل حال، فقد عارض علماء التفاعلية الرمزية فكرة أداء الأفراد لأدوار مفروضة عليهم من الأنساق الاجتماعية الأكبر، على حين وجد منظرو الصراع أن البنائية الوظيفية غير ملائمة في تفسير عملية التغير الاجتماعي والوظائف الاجتماعية للصراع. ويبدو أن إلحاح النظرية على التوازن والإجماع ساهم في الحفاظ على الوضع الراهن في ذلك الوقت، وعمل على دعم النخب المسيطرة (ريتزر 2008)، في وقت كان ثمة احتجاج اجتماعي واسع على السلطة في الغرب خلال الستينيات.

والحقيقة أن البنائية الوظيفية بوجه عام وبارسونز بوجه خاص قد عانوا من انخفاض خطير في شعبيتهم، على الرغم من أن أعمال بارسونز قد شهدت انبعثاً طفيفاً في التسعينيات (كالينيكوس 2007). بيد أن مفهوم بارسونز عن دور المريض بقي قضية نظرية مركزية في علم الاجتماع الطبي برغم التحديات. فما زال يستعمل كنموذج مثالي لتفسير علاقة الطبيب بالمريض والتفاعل بينهما، وهو ما يعد موجهاً لدور الطبيب وتعاون المريض معه في العيادات الطبية أو أي موقع لرعاية المريض.

التفاعلية الرمزية

كانت التفاعلية الرمزية هي الاتجاه النظري الأكبر الذي تحدى مقولات بارسونز والبنائية الوظيفية في علم الاجتماع الطبي، وهي التي قامت بالأساس على جهود جورج هربرت ميد (1934) وهربرت بلومر (1969)، تؤكد التفاعلية الرمزية أن الواقع الاجتماعي يجري تشييده على المستوى الصغير micro level من خلال تفاعلات الأفراد بعضهم مع بعض على أساس المعاني الرمزية المشتركة. وينظر هذا الاتجاه إلى الأفراد باعتبارهم مُلاكاً للقدرة على التفكير، وتعريف المواقف، ويصوغون سلوكهم استناداً إلى تعريفاتهم وتفسيراتهم المشتركة.

بإرادته (أو إرادتها) الحرة: إن الفعل الاجتماعي ليس مجرد أداء أنشطة مفروضة على الفاعل بفعل عوامل أولية مرتبطة بالتنظيم الذي ينتمي إليه، ولذلك فإن الحياة الاجتماعية يجري إنتاجها بواسطة أفراد متفاعلين يختارون سلوكهم وأفعالهم بإرادتهم، وليس من خلال البناءات والعمليات

الاجتماعية الكبرى التي تنظم السلوك بأضعف الخيارات وأقل المسارات.

والحقيقة أن التفاعلية الرمزية لا تمتلك فقط تصورهما النظري المميز المتعلق بالوحدات الصغرى، وإنما لديها أيضاً منهجياتها البحثية الكيفية الدقيقة كالملاحظة بالمشاركة، التي تركز على التفاعلات الاجتماعية في الجماعات الصغيرة، وملاحظة المواقف الاجتماعية الطبيعية والتفانية، وكذلك المنهج الإثنوميثودولوجي الذي يمثل وصفاً مميزاً للمعاني التي تعد أموراً مسلماً بها المواقف الطبيعية، أكثر من توجهه نحو تحليل تلك المواقف.

يعد (أنسيلم ستراوس) و(إرفنج جوفمان) أكثر منظري التفاعلية الرمزية إسهاماً في علم الاجتماع الطبي في بداياته المبكرة. انضم ستراوس إلى هيوارد بيكر وآخرين وأجروا دراساتهم الكلاسيكية الشهيرة: أولاد في المعطف الأبيض Boys in White التي صدرت في عام 1969، وتناولت التنشئة المهنية لطلاب الطب في الكليات الطبية، ولقد قدم ستراوس إسهامات نظرية ومنهجية في مجالات متعددة، منها دراساته الرائدة مع (جلاسر) Glaser حول العمليات الاجتماعية المرتبطة بالموت والاحتضار في عامي 1965 و1968، وملاحظة نظام التفاوض في روتين المستشفى الذي يتضمن حدّاً أدنى للسرعة والجدة، وحدّاً أقصى للإبداع والارتجال، في رعاية المريض خاصة في حالة الطوارئ (ستراوس وآخرون 1963) إضافةً لصياغته لفكرة المنهجية المشتقة من النظرية grounded theory methodology المتعلقة باستنباط الفروض من البيانات بعد جمعها وليس قبله. (جلاسر وستراوس 1967)

أما (جوفمان) الذي أصبح منظراً بارزاً في علم الاجتماع بوجه عام، فقد بدأ نشاطه البحثي في علم الاجتماع الطبي باستعمال طريقة الملاحظة بالمشاركة في دراسة حياة المرضى في المستشفيات النفسية، ولقد قدم من خلال دراسته الكلاسيكية الشهيرة (المصحات) Asylums 1961، مفهوم (المؤسسات الشمولية) total institutions الذي ظهر كتحديد سوسيلوجي للظروف الاجتماعية للأفراد المحتجزين داخل المؤسسات، كما أدت ملاحظاته إلى تطوير أفكاره حول إدارة الانفعالات management of impressions، وأدت كذلك إلى ابتكاره للمنظور

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

المسرحي أو الدرامي dramaturgical perspective في علم الاجتماع، الذي ينظر للحياة الاجتماعية كمسرح، وللأفراد كمتثلين على خشبة ذلك المسرح، كما أدت إلى توصله إلى نظرية الوصمة Stigma. (جوفمان 1959 و1967).

ومع دخول التفاعلية الرمزية إلى مجال علم الاجتماع الطبي حيث كانت البنائية الوظيفية هي الاتجاه المهيمن عليه، غدا العلم حلبة للحوار والجدال بين النظريتين السوسولوجيتين الرئيسيتين، غير أنه بحلول منتصف عام 1960 أصبحت التفاعلية الرمزية هي المهيمنة على شطر معتبر من مجال علم الاجتماع الطبي، وتجسدت إحدى سمات تلك الهيمنة في ذلك الكم الهائل من الدراسات التي اعتمدت على نظرية الوسم أو التسمية Labeling Theory وهي إحدى صور التفاعلية الرمزية، ومدى الجدل الذي أثارته. لقد رأيت نظرية الوسم أن السلوك المنحرف ليس هو نوعية الفعل الذي ارتكبه الشخص، ولكنه بالأحرى التعريف الذي يضيفه الآخرون على هذا الفعل (بيكر 1973). لذا فكون الفعل يعد منحرفاً أو غير منحرف يعتمد على رد فعل الآخرين تجاهه، ومع أن نظرية التسمية تتعلق بوجه عام بالانحراف، فإن البراهين الأولية لها ركزت على تجربة المرضى النفسيين، من خلال جهد توماس شيف (1999) Thomas Scheff العناصر البارز لهذا الاتجاه، كما جرى توظيف النظرية في دراسات إليوت فريديسون (1970) Eliot Freidson عن مهنة الطب، واعتبرها بديلاً عن مفهوم (دور المريض) sick role لبارسونز.

ومع عام 1980 دخلت التفاعلية الرمزية في مرحلة تراجع في علم الاجتماع الطبي، وقام العديد من مؤيديها بالتشويش عمداً على الوظيفية، وأعطوا أصواتهم للمرأة والجماعات الاجتماعية المهمشة مثل المرضى العقلين، والمعوقين بدنياً، والمسنين، والمؤسسات الزراعية لهم من خلال ملاحظة عوالمهم، وكما يقرر دينزن (1991) أنه في المدة من 1981-1990 تحولت النصوص الأساسية من ميد إلى بلومر، بل إن بلومر نفسه تعرض لهجوم كبير في العديد من القضايا النظرية والمنهجية، وأصبح العديد من ممارسي النظرية ومنظريها طاعنين في السن، (مَشَيَّب التفاعلية) The graying of Interactionism وبدأ عدد الطلاب المتبنين للنظرية في التناقص، كما أن العدو القديم - البنائية الوظيفية - كانت قد هزمت تماماً. وفي مكان آخر في بريطانيا

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

حيث كانت التفاعلية الرمزية هي الاتجاه المهيمن في علم الاجتماع الطبي، كما لوحظ في معظم الدراسات المنشورة، ثمة اتجاه نظري آخر يسود الآن وهو البنائية الاجتماعية. (نيتلتون 2006 وسبيل 2008)

ولسوء الحظ، فقد أخذت النظرية صورة المذهب الجامد Fixed doctrine وباستثناء مفهوم ميد (1934) عن الآخر المعمم، لم تستطع النظرية أن تربط ربطاً مرضياً عمليات الجماعات الصغيرة مع الظواهر الاجتماعية التي تعكس المؤثرات السلوكية للمجتمع الأكبر، فلم تستطع تفسير التفاعل بين النظم أو المستويات الاجتماعية الأكبر التي تؤثر كل منها في الأخرى، ولا يقتصر تأثيرها على الأفراد فقط. وإضافةً إلى ذلك فإن نظرية الوسم على أهميتها في تفسير دور المؤثرات السلوكية القوية للوسم أو العلامة على الأفراد، فإنها لم تفلح في تفسير أسباب الانحراف (بخلاف تناولها لرد فعل الآخرين)، كما أن المنحرفين أنفسهم يشتركون مع باقي الأفراد في سمات عامة كالفقر، والضعوط، والخلفية الأسرية.

والحقيقة أنه من الخطأ إحالة التفاعلية الرمزية على التاريخ، فما زالت الملاحظة بالمشاركة هي الصورة الأهم للبحوث الكيفية في علم الاجتماع الطبي، فالملاحظة بالمشاركة والمنهج الإثنوميثودولوجي مازالا يمثلان أفضل المناهج في تسجيل السلوك الاجتماعي من وجهة نظر شخصية للمبجوثين في المواقع التي يدبرون منها حياتهم المعتادة. وفضلاً على ذلك فإن الأنماط الملحوظة من السلوك، وفهم الشخص المبدئي للمواقف يكشف المعنى الحقيقي للحياة، وهو المعنى الذي لا يتمكن البحث الكمي من الإمساك به. ومع أن التفاعلية الرمزية لم تتحرك بعيداً عن المفاهيم الأصلية لـ (جورج هربرت ميد) و(هربرت بلومر) فإنها استمرت كاتجاه نظري مهم لدراسة وتفسير السلوك والتفاعل الاجتماعي داخل الجماعات الصغيرة ومدى ملاءمته للصحة.

وتمّ منطقة بحثية جديدة نسبياً في علم الاجتماع الطبي ساعدت على إعادة إحياء التفاعلية الرمزية وهي سوسولوجيا العواطف sociology of emotions وهو موضوع جرى إهماله في الماضي. يهدف البحث في هذا المجال إلى فهم العلاقة بين العوامل الاجتماعية والعواطف، لأن

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

العواطف يجري التعبير عنها من خلال العلاقات الاجتماعية، والمواقف الاجتماعية أو كليهما. ولقد سدت التفاعلية الرمزية الفجوة بين الاتجاهات العضوية والبيولوجية التي تدرس العواطف، وبين الاتجاهات الاجتماعية التي تتجاهل العمليات العضوية وتركز - بشكل حصري - على المكونات الاجتماعية والثقافية للعواطف كالنظرية البنائية الاجتماعية. (ويليامز وبيندلو 1996).

إن التفاعل بين الأفراد ربما يؤدي الدور الأكبر في تنشيط العواطف والتعبير عنها، وبالطبع فإن تحليل العلاقات بين الأشخاص هو قوة منظور التفاعل الرمزي، إن العواطف كما تبين سيمون وويليامز (1998) هي حالات جسدية وجودية تربط المشكلات الشخصية بالبناء الاجتماعي، بطريقة تؤثر في الصحة، وتشكل أنماط المرض. فقد وجدت وويليامز على سبيل المثال أن مشاعر التوتر والعجز والإحباط والإحساس بعدم الأمان والتماسك، وضعف السيطرة قد ثبت أنها ترتبط بالمعدلات العالية للوفاة والمرض.

نظرية الصراع

انضمت نظرية الصراع من خلال جذورها في أعمال كارل ماركس وماكس فيبر إلى التفاعلية الرمزية في الحد بقدر كبير من تأثير البنائية الوظيفية، ولكنها فشلت في تحديد موضع قدم راسخ لها في علم الاجتماع الطبي. تركز نظرية الصراع على افتراض أساسي مؤداه أن المجتمع يتشكل من جماعات متعددة تتصارع من أجل الحصول على المنافع، وأن عدم المساواة تعد سمة أساسية للحياة الاجتماعية وأن الصراع هو السبب الأهم للتغير الاجتماعي.

يبدو منظور ماركس في نظرية الصراع في رفضه لوجهة نظر البنائية الوظيفية التي ترى أن المجتمع يتشكل من خلال القيم والمعايير المشتركة. تدعي نظرية الصراع أن الإجماع الحقيقي غير موجود، بل إن قيم المجتمع ومعاييره ما هي إلا قيم ومعايير النخبة المسيطرة التي تفرضها على الطبقات الأدنى للحفاظ على وضعها المتميز. ويضيف فيبر أن اللامساواة الاجتماعية لا تركز فقط على المال والثروة وعلاقات ووسائل الإنتاج، وإنما تتأسس أيضاً على المكانة الاجتماعية والنفوذ السياسي. لأن كل النظم الاجتماعية تتضمن مثل ذلك الظلم، فإن الصراع يعد

نتيجة حتمية، وهو بدوره المسئول عن التغيير الاجتماعي.

وفي حين كان التوجه الماركسي في دراسة الصراع منصباً على الصراع الطبقي، اتجه منظرون آخرون مثل دارندورف(1959) إلى التركيز على أنماط الصراع التي تحدث بين جماعات المصالح interest groups كما اهتم بالتوزيع غير العادل للقوة السياسية. ووفقاً لما يطرحه براين تيرنر (1988) ينبغي أن نفهم جيداً أن المجتمعات الحديثة تتضمن صراعاً بين مبادئ السياسة الديمقراطية (التي تُلحُّ على مبادئ المساواة وحقوق الإنسان العالمية) وبنية نظمها الاقتصادية (بما تضمه من إنتاج وتبادل واستهلاك السلع والخدمات التي تتضمن صوراً من عدم المساواة المعترية)، لذا فإنه على حين يمتلك الناس المساواة السياسية، فإنهم يفتقدون المساواة الاجتماعية. وهذا التناقض الذي لم يُحلَّ دائم نسبياً ويمثل مصدراً كبيراً للصراع. إن أيديولوجيات العدالة تجابه دوماً بواقع اللامساواة، وتؤثر تلك الأيديولوجيات في الحكومات لتحاول أن تحل الموقف من خلال السياسة ومزايا الرفاهية الاجتماعية.

يمثل الموقف السابق أحد أهم أصول نظرية الصراع في علم الاجتماع الطبي، وهو القدرة على تفسير السياسات المرتبطة بالإصلاح الصحي. إن نظرية الصراع تسمح لنا بفهم المناورات التي تقوم بها كيانات متعددة - مثل مهنة الطب، شركات التأمين، شركات الأدوية، مجتمع رجال الأعمال، والجمهور - الذين يكافحون من أجل كسب وحماية أو توسيع مصالحهم ضد البرامج والأنظمة الحكومية القائمة. وثمة مداخل أخرى للصراع أكثر ارتباطاً بالماركسية الكلاسيكية حيث تركز على الصراع الطبقي لتفسير مخرجات السياسة الصحية (نافارو 1994) وحرمان الطبقات الدنيا والعاملة من مزايا النظم الطبية الرأسمالية التي تركز على الربح (ميكلاي 1984 ووايتزكين 1983). ومع أن الاهتمام الأساسي لنظرية الصراع في علم الاجتماع الطبي يركز على دور المصالح المتناقضة في سياسة توزيع الرعاية الصحية، فإن ثمة اهتمامات أخرى بقضايا متنوعة مثل مصادر المرض والعجز في بيئة العمل، صحة الطبقة العاملة، التبائن في أنماط الحياة الصحية، والأيديولوجيات الرأسمالية الداعمة للتفاعل بين الطبيب والمريض. (Blane 1987; McKinlay 1984; Navarro 1986; Waitzkin 1983, 1989, 1991).

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

وعلى كل حال، فهناك قيود جذرية على استعمال نظرية الصراع في علم الاجتماع الطبي، ففي حين تتأثر بعض الظروف الصحية بحالات الصراع، فإن مواقف أخرى لا تتأثر بها، كما أن بعض الناس قد يحافظون على صحتهم أو يصبحون مرضى، ولا علاقة لذلك بالصراع أو السياسة أو صراع جماعات المصالح، أو الصراع الطبقي وما شابه.

والواقع أن الماركسية قد فقدت رونقها منذ أواخر السبعينيات فصاعداً، فكما يوضح أليكس كالينكوس (2007) أن الأحداث السياسية أدت إلى غياب الماركسية من الجامعات، حيث أدار الباحثون الفرنسيون أولاً ظهورهم للماركسية؛ لأسباب منها أنها كانت نظرية للهيمنة جاءت كاستجابة لمعسكرات العمل السوفييتية، والحرب الباردة، وقمع حركة التضامن في بولندا عام 1981، ولاقى النظرية ردود فعل مماثلة في أماكن متعددة في أوروبا وأمريكا اللاتينية، وكان التراجع بطيئاً في العالم الناطق بالإنجليزية كما يقرر (كالينكوس 1970). مع بداية التسعينيات وتحت تأثير ما بعد الحداثة وانهايار الاشتراكية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي، بدأ ماركس (كلباً ميتاً) في نظر كثير من المثقفين في هذه الدول. والواقع أن الماركسية اللينينية - كمذهب سياسي- فشلت في تأسيس ظروف اجتماعية صحية ونظام ملائم لتوزيع الرعاية الصحية في الاتحاد السوفييتي السابق ودول أوروبا الشرقية الاشتراكية. (كوكرهام 1997-1999-2000-2007 ب) وقد شهد معظم أقطار هذه المنطقة انخفاضاً في معدل الحياة المتوقع للذكور خلال ثلاثين عاماً في المدة من 1965-1995، وما تزال المشكلات الصحية مستمرة في بعض هذه الدول مثل بيلاروسيا، وكازاخستان وروسيا وأوكرانيا.

وكان مركز الانخفاض في متوسط العمر المتوقع في روسيا، حيث انخفض هذا المعدل بين الذكور بمقدار 5.2 عاماً خلال المدة من 1965-2005. إن الفشل النظري والتطبيقي للماركسية في إنتاج مجتمعات صحية قوض جذرياً جدوى النظريات المرتكزة على التحليل الماركسي في علم الاجتماع الطبي. (كوكرهام 2007) بيد أن أعظم الإمكانات الفكرية في نظرية الصراع لعلم الاجتماع الطبي تكمن في جوانبها غير الماركسية، حيث أن المنافسة بين جماعات المصلحة في دول الرفاهية أكثر أهمية وملاءمة لتفسير الظروف الصحية من الفكرة الماركسية عن الصراع الطبقي.

ماكس فيبر

لم ينشغل المُنظرون الكلاسيكيون لعلم الاجتماع: كونت، سبنسر، سيمل، ماركس، دوركايم، وفيبر بعلم الاجتماع الطبي. بيد أن فيبر كان له التأثير المباشر الأعظم في هذا الميدان. كانت أهم إسهاماته تلك المرتبطة بمفهومه حول العقلانية الرسمية، وأساليب الحياة.

فيما يتعلق بالمفهوم الأول حدد فيبر (1978) نمطين أساسيين من العقلانية: العقلانية الرسمية Formal rationality والعقلانية الجوهرية substantive rationality، العقلانية الرسمية هي التقدير الهادف لأكثر الوسائل والإجراءات كفاءة لتحقيق الأهداف، على حين تعني العقلانية الجوهرية إدراك القيم والأفكار المرتكزة على التقاليد والعادات والتقوى والإخلاص الشخصي. وقد وصف فيبر كيف أضحت العقلانية الرسمية في الغرب مهيمنة على نظيرتها الجوهرية، حيث يسعى الناس لإنجاز أهداف معينة من خلال توظيف الوسائل الأكثر نجاعة، ويميلون في إطار تلك العملية إلى تجاهل العقلانية الجوهرية لأنها غالباً ما تكون ثقيلة وبطيئة وغير ناجزة وخانقة للتقدم.

ولقد أدى هذا الشكل من العقلانية إلى نهضة الغرب، وقيام النظام الرأسمالي واتساعه، كما ارتبط أيضاً بتطور الطب العلمي والبناء الاجتماعي الحديث من خلال الأشكال البيروقراطية للسلطة والتنظيم الاجتماعي الذي يتضمن المستشفيات. إن الفعل العقلاني الموجه بالهدف الذي يجري في المستشفى يمثل شكلاً مرناً من النظام الاجتماعي الذي يركز على متطلبات رعاية المريض أكثر من ارتكازه على التنظيم الجامد الذي رسمه فيبر في إطار مفهوم البيروقراطية. بيد أن منظوره حول البيروقراطية يكشف عن الطريقة التي تُمارس بها السلطة والضبط بشكل هرمي، ويكشف كذلك عن أهمية الأهداف التنظيمية في عمل المستشفى (هيلر 1987).

كذلك فقد جرى تطبيق فكرة فيبر عن العقلانية الرسمية على ضعف المهنية لدى الأطباء Deprofessionalization of physicians ويعني هذا المصطلح أن انخفاض القوة يؤدي إلى انخفاض درجة احتفاظ المهنة بخصائصها المهنية. وقد رصدت الدراسة القيمة التي أجراها إلبوت

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

فريدسون خلال دراساته للطب الأمريكي في عام 1970 الهيمنة المهنية للطب في علاقاتها بالمرضى والمنظمات الخارجية، لقد كان الطب نموذجاً للمهنية، حيث كان الأطباء يملكون سلطة مطلقة في عملهم، وكانت مكاناتهم الاجتماعية في قمة هرم التدرج الاجتماعي أو قريبة منها. وعلى كل حال فقد لاحظ ريتزر ووالزاك (1988) فقدان الأطباء لسلطتهم المطلقة في أواخر القرن العشرين، حيث خضعت قراراتهم الطبية لمراجعة متزايدة من جانب المرضى ومنظمات الرعاية الصحية وشركات التأمين، والهيئات الحكومية.

ولقد وجد كل من ريتزر ووالكزاك (1995) أن السياسات الحكومية التي تشدد على مزيد من الضبط لتكاليف الرعاية الصحية، وارتفاع حافز الربح قد حددت اتجاهاً في الممارسة الطبية ينحو بعيداً عن العقلانية الجوهرية (التي تُلحُّ على قيم من قبيل خدمة المرضى) وتقترب من العقلانية الرسمية (التي تركز على القواعد والانتظام والكفاءة). وأدى إشراف الحكومة وشركات التأمين على مراجعة واعتماد قرارات رعاية المرضى، وظهور المؤسسات الخاصة للرعاية الصحية إلى انخفاض مستوى استقلال الأطباء من خلال استقطابهم كموظفين، والتحكم في أعمالهم، وقد اقترن ذلك بتعاظم النزعة الاستهلاكية للمرضى، وانخفاض كبير في المكانة والقوة المهنية للأطباء. وهكذا انتهى العصر الذهبي للقوة والنفوذ الطبي، عندما تركت الجهود الطبية مفتوحة كسوق طبية غير منظمة.

وفيما يتعلق بأسلوب الحياة فقد منحت أعمال فيبر (1978) الخلفية العلمية لنظرية أسلوب الحياة الصحي. فقد حدد فيبر مصطلحي سلوك الحياة life conduct، وفرص الحياة life chances باعتبارهما المكونين الأساسيين لأسلوب الحياة lifestyles. يشير مفهوم سلوك الحياة إلى الاختيار أو الاتجاه الذاتي في السلوك. وكان فيبر غامضاً في ما يتعلق بما يعنيه بمفهوم فرص الحياة، غير أن رالف دارندورف (1979) قام بتحليل كتابات فيبر ووجد أن المفهوم الأكثر استيعاباً لمفهوم فرص الحياة في معجم ماكس فيبر هو مفهوم (الوضع الطبقي) وربط دارندورف المصطلح بمدى قدرة الشخص على إشباع احتياجاته ومتطلباته، وتحقيق مصالحه. ولم يعتبر فرص الحياة مسألة فرص مطلقة، وإنما هي تلك الفرص التي تتاح للأفراد في الحياة بسبب

أوضاعهم الاجتماعية.

وقد تركز الإسهام الأكثر أهمية لفيبر - في سياق صياغته لمصطلح أسلوب الحياة - على تحديده للتفاعل الجدلي بين الاختيارات والفرص - بحيث تؤثر إحداهما في الأخرى وتتأثر بها - لتشكيل نتائج أسلوب الحياة (Abel and Cockerham 1993; Cockerham, Abel, and Lüschen 1993 فالناس يختارون أساليب حياتهم، والأنشطة التي تميزها، بيد أن اختياراتهم تظل محكومة بأوضاعهم الاجتماعية. ومن خلال مفهوم Verstehen أو الفهم التفسيري interpretive understanding يبدو أن فيبر يفضل دور الاختيار كسمة للفاعل على دور الفرصة كممثل للبناء في اختيار نمط الحياة، على الرغم من أهمية المفهومين. وأوضح فيبر أيضاً أن أسلوب الحياة لا يعتمد كثيراً على ما ينتجه الناس، بل يعتمد على ما يستهلكونه. ومن خلال ربط نمط الحياة بالمكانة الاجتماعية، يقترح فيبر أن وسائل الاستهلاك لا تعبر فقط عن الاختلافات في الممارسات الاجتماعية والثقافية بين الجماعات، ولكنها ترسخ تلك الاختلافات وتجعل منها حدوداً اجتماعية.

أساليب الحياة الصحية هي تلك الأنماط الجمعية للسلوك المرتبط بالصحة التي تركز على اختيارات من أبدالٍ متاحة للناس وفقاً لفرص حياتهم. تتضمن تلك الفرص الطبقة، العمر، النوع، السلالة، والمتغيرات البنائية الأخرى ذات الصلة والتي تشكل خيارات أساليب الحياة. وتشمل تلك الخيارات القرارات المتعلقة بالتدخين، وتعاطي الكحول، الحمية الغذائية، التمارين الرياضية وغيرها.

إن أنماط السلوك الناجمة عن التفاعل بين الخيارات والفرص قد تكون لها نتائج إيجابية أو سلبية على الصحة، ولكنها مع ذلك تشكل نمطاً للممارسات الصحية التي تُكوّن نمط الحياة. ومع أن أساليب الحياة الصحية الإيجابية تؤدي إلى تحقيق صحة جيدة، فإن الهدف النهائي لمثل هذه الأساليب هو استعمال (أو استهلاك) الصحة الجيدة لتحقيق شيء ما كالقدرة على العمل، وشعور المرء بأنه على ما يرام، المشاركة في الأنشطة الرياضية والترفيهية، والاستمتاع بالحياة.

والحقيقة أن أساليب الحياة الصحية قد نشأت في الطبقة الوسطى العليا -upper middle class- بيد أن تلك الأساليب تمتلك القدرة على الانتشار عبر الحدود الطبقة بدرجات متفاوتة من الجودة. ومع أن فيبر لم يأخذ في الاعتبار الجوانب الصحية لأساليب الحياة، فإن مفاهيمه تسمح لنا بأن ننظر إلى أساليب الحياة الصحية على أنها:

- ترتبط بمكانة الجماعة، وهي بالأساس ظاهرة جمعية أكثر منها فردية.

- تمثل أنماط الاستهلاك وليست طرق الإنتاج.

- تتشكل من خلال التفاعل الجدلي بين الاختيارات والفرص.

وقد شكلت تصورات فيبر عن أساليب الحياة الأساس الذي بُنيت له نظرية أساليب الحياة المرتبطة بالصحة. (كوكراهام 2005 و2007)

النظرية النقدية ويورجين هابرماس

للمصطلح (النظرية النقدية) تاريخ طويل، بيد أن المصطلح عندما دخل علم الاجتماع ارتبط بمجموعة من الفلاسفة والمنظرين الاجتماعيين البارزين في النقد الثقافي في فرانكفورت في سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها، وفي كاليفورنيا مع ظهور النازية. فبالهام من هوركهايمر وأدورنو في فرانكفورت، وجهود ماركيز عام 1960 في الولايات المتحدة، جرى إعادة إنتاج الإسهامات الكلاسيكية لماركس وفيبر وتأطيرها رداً على الفاشية والستالينية والرأسمالية الإدارية (أوزوايت 1996). وارتبط اسم أدورنو على وجه الخصوص بتشاؤم حضاري عميق وقاس. ونظر إلى منطق القرن العشرين، برغم الحداثة باعتباره مساراً إلى الانهيار الحتمي. ويجسد كتابه المؤثر جدلية التنوير الذي كتبه مع هوركهايمر أثناء الحرب العالمية الثانية ونشر في عام 1947 هذا الشعور القوي بالانهيار. أحد مساعدي أدورنو: يورغن هابرماس لم يشارك معلمه التشاؤم، وأضحى إسهامه مهيماً على النظرية النقدية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين. وقد نفت بعض علماء الاجتماع لجهده واستلهموا منه رواهم النظرية. ولقد ميز مفهوم هابرماس عن العقلانية نظرياته عن نظريات سابقه مثل ماركس وفيبر وأدورنو وهوركهايمر،

فرفض أي اقتراح بأن العقلانية تندرج تحت مصطلح العقلانية الغرضية أو الأدواتية لدى فيبر. بمعنى آخر فالعقلانية أكبر من تلك التي تحكم اختيار الوسائل لتحقيق غايات محددة عادة ما تكون مادية. لقد طور فكرة ما أصبح يعرف بمفهوم العقلانية التواصلية الذي يشير إلى فعل التفكير في الافتراضات المسلمة حول العالم، وإحضار المعايير الأساسية إلى الواجهة لتخضع للاستجواب والتفاوض. فالواقع أن العقلانية الأدواتية لا تتجاوز تلك المعايير فحسب، بل هي في ذاتها غير كافية للإمام بطبيعة التطور الثقافي، أو حتى فهم تطور الاقتصاد والدولة، وهما أكثر تعقيداً من اعتبارهما مجرد منتج (بفتح التاء) لتلك العقلانية.

ثمة نقطة أساسية في جهده المبكر وهي التمييز بين العمل والتفاعل. فرأى أن ماركس وفيبر وأسلافه في مدرسة فرانكفورت قد ركزوا على العمل وأهملوا التفاعل. فالنظرية الماركسية - التي يرى هابرماس أنها اختزال للتفاعل أو الفعل التواصلية في العمل والفعل الأدواتية أو الاستراتيجية - قد ضيقت نطاقها على نحوٍ دراماتيكي في فهم الحداثة وتأسيس مشروع للتحرك الإنساني. وقد أخذ كتاب نظرية الفعل التواصلية بمجلديه الذي نشر في عام 1981 في ألمانيا هذا التحليل نحو مستوى جديد من الدقة والشمولية. (هابرماس 1984 و1987) ولقد سعى هابرماس - من خلال وضع نظرياته في مدار مشروع إعادة بناء التنوير - إلى الجمع بين مدخلين ظلاً متنافسين مدة طويلة في النظرية الاجتماعية:¹ الأول يحلل المجتمع ككيان له معنى لدى المنتمين إليه (نظرية

¹ كانت النظرية السوسولوجية تسير في اتجاهين منفصلين حتى ستينيات القرن الماضي: الاتجاه الأول تمثله النظريات البنائية الكبرى - خاصة البنائية النظرية الوظيفية ممثلة في رؤى دوركايم وبارسونز - يركز على المستوى المجتمعي والعلاقات القائمة بين أجزاء المجتمع المختلفة (أي التركيز على مفهوم البناء) وهيمنتها على الفرد، الاتجاه الثاني يهتم بمستوى الأفراد الفاعلين (أي الاهتمام بالفعل) وبدأت إرصاصاته مع سهامات فيبر والتفاعلية الرمزية، ثم بيبر بورديو وجينز. فلقد حاول برديو على سبيل المثال تجاوز تلك المشكلة من خلال تأسيس نظرية وسطى تعمل على التغلب على الثنائية المتعسفة بين الفرد (النزعة الذاتية) والمجتمع (النزعة الموضوعية)، ومن أجل تحقيق ذلك أبدع العديد من المفاهيم المهمة كالهابيتوس والحقل وغيرهما. (المترجم) أنظر : Ernest, H. (2006). Pierre Bourdieu on structure agency Structuralism, Radbaud University .of Nijmegen, Netherlands

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

الفهم) والثاني يحلل المجتمع كنسق مستقر خلف ظهور المشاركين فيه (نظرية النسق). وقد أدى هذا الهدف إلى التمييز بين (عالم الحياة) المرتكز على التكامل الاجتماعي، وبين النسق القائم على تكامل الأنساق.

يتميز عالم الحياة بوجود الفعل التواصلي، وله جانبان أو نسقان فرعيان: المجال الخاص الذي يتشكل من الأسرة وهي الوحدة السريعة التغير، على حين يمثل المجال العام مجال التواصل الشعبي والمناقشة والحوار. أما النسق فإنه يشتغل عن طريق الفعل الاستراتيجي، وله كذلك نسقان فرعيان وهما الاقتصاد والدولة. تلك الأنساق الفرعية الأربعة مترابطة، فكل واحد منها مستقل فيما يتعلق بما ينتجه، بيد أنه يعتمد على الأنساق الأخرى فيما لا ينتجه، فالمجال الخاص لعالم الحياة ينتج الالتزام، والمجال العام ينتج التأثير، أما نسق الاقتصاد فينتج المال، والدولة تنتج القوة. كل تلك المنتجات أو (الوسائط) يجري تبادلها بين الأنساق الفرعية الأربعة؛ وهكذا فإن الاقتصاد يعتمد على الدولة في إنشاء مؤسسات قانونية ملائمة كالملكية الخاصة والتعاقد، ويعتمد على المجال العام لعالم الحياة في التأثير في أنماط الاستهلاك، ويعتمد على المجال الخاص للحصول على قوة عاملة ملتزمة، كما أن نسق الاقتصاد نفسه يمد الأنساق الفرعية الأخرى بالمال. ويرى هابرماس أنه في العصر الحديث أضحى النسق وعالم الحياة منفصلين. وفوق ذلك، فقد أصبح النسق منتجاً على نحوٍ متزايد نحو استعمار عالم الحياة والهيمنة عليه. لذا فإن عملية صناعة القرار في العديد من المجالات تتأثر بالمال والقوة، بصورة أكثر من تأثرها بالحوار العقلاني والتوافق.

هذه الفكرة المتعلقة باختراق النسق واستعماره لعالم الحياة جرى تناولها في علم الاجتماع الطبي. (سكامبلر 2001) فأنساق الخبراء - مثل النسق الطبي - أصبحت أكثر استجابة لضرورات النسق من عالم الحياة المتعلق بالمرضى. ووفقاً لمفردات ميشلر (1984) فقد أصبح صوت الطب في السلطة أعلى من صوته في عالم الحياة. وبعيداً عن دوافع وطموحات وأحياناً فردية الأطباء، فلقد أصبحوا أقل استجابة لاحتياجات المرضى، على الرغم من أن خطاباتٍ عكس ذلك واسعة الانتشار. إن الإطار النظري لهابرماس المتعلق بالنسق وعالم الحياة، والفعل

الاستراتيجي والتواصل، ما يزال حاضراً في القرن الحادي والعشرين لتحليل وتفسير التغيرات على المستوى الأكبر في تنظيم الرعاية الصحية وتوزيعها، وعلى المستوى الأصغر فيما يتعلق بالتفاعل والتواصل بين الطبيب والمريض. فعلى سبيل المثال اعتمد سكامبلر (2002) على هذا الإطار لتفسير فشل بيل كلينتون في عدم تسليع (أي جعلها سلعة) الرعاية الصحية في الولايات المتحدة في أوائل عام 1990، وإعادة التسليع الجزئي للخدمات الصحية الوطنية البريطانية منذ عام 1980 فصاعداً. كما استعمل سكامبلر إطار هابرماس كذلك لمعالجة تساؤل ثقة المريض في اللقاءات الفردية مع الأطباء، وهو موضوع يحظى بأهمية متزايدة في نسق الرعاية الصحية.

النظرية في القرن الحادي والعشرين

انتهى القرن العشرون بوقائع اجتماعية جديدة دفعت علم الاجتماع وعلم الاجتماع - الطبي للتوافق معها وصياغة تصورات نظرية جديدة، وتهيئة الأطر النظرية القديمة لتستوعب تلك التغيرات، وحسبما يشرح كل من بيسكوسوليدو وكوريننفيلد 1959: نحن نقف في منطقة انتقالية بين أشكال اجتماعية متباينة، فالمجتمع الذي خلق الفرصة لصعود وهيمنة مهنة الطب، ولتطور النظام المعرفي الجديد لعلم الاجتماع، وأوجد دوراً لعلم الاجتماع الطبي، هذا المجتمع يكابد تغيرات هائلة. ولأن النسق الاجتماعي الأكبر يتكشف في مواجهة التغير الاجتماعي السريع، فإن المشكلات القائمة والحلول والتقاومات تواجه تحدياً؛ لأنها لا تتصدى بصورة ناجحة الوقائع المعاصرة.

لقد شهدنا في القرن العشرين آثار انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفييتي السابق وأوروبا الشرقية، والتنوع الثقافي لأوروبا وأمريكا الشمالية، وظهور السياسات الثقافية والجنسية، وتغير أشكال التدرج الاجتماعي، وتنامي أهمية المعلومات كسلعة اقتصادية، وهيمنة القطاع الخدمي على الاقتصاد الكوني، وظهور الصين كمركز عالمي لتصنيع السلع الاستهلاكية، والركود الاقتصادي العالمي، وانتخاب أول رئيس أسود للولايات المتحدة. لقد أفرزت تلك الظروف المتغيرة تصورات جديدة نحو الحياة لكثير من الناس. يرى كراوفورد (2000) على سبيل المثال أن ثمة

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

تناقضاً في قلب المجتمع الاستهلاكي الجديد. فهو يرى أن الرأسمالية لا تعمل إلا إذا كان الناس منتجين ومستهلكين في ذات الوقت، ويجادل أيضاً بأن الشخصيات والأخلاق للمنتجين والمستهلكين على طرفي نقيض، فلكي تكون منتجاً في مكان العمل فهذا يتطلب إنكار الذات، وضبط النفس، والعقلانية، والانضباط الشخصي وقوة الإرادة، على حين يتسم الاستهلاك باللاعقلانية وطلاق العنان، والتساهل، والبحث عن المتعة. هذا التعايش واضح فيما يتعلق بممارسات أسلوب الحياة الصحي كالتدخين، وتناول الأطعمة المتنوعة، والرياضة، وتعاطي الكحول، وغير ذلك. لتلك الممارسات طابع ثنائي، حيث يمكن أن تكون نافعة أو ضارة اعتماداً على كيفية تأثيرها على صحة الشخص، وإذا كان الناس في الماضي يستخفون بصحتهم بقدر كبير أو صغير، فلم تعد تلك هي الحالة الآن، حيث تعد الصحة إنجازاً، ويتوقع أن يعمل كل شخص ليكون مُعافى من المرض، وإلا فسيكون عرضة للمرض المزمن والوفاة المبكرة (كلارك 2003) إن الظروف الاجتماعية التي أدت إلى تغيرات صحية تستلزم حدوث توافق في الاتجاهات النظرية القائمة في علم الاجتماع الطبي، أو استحداث اتجاهات جديدة تستطيع تفسير تلك التغيرات.

ما بعد البنيوية: ميشيل فوكو

تتبع العديد من النظريات الراهنة من نظرية ما بعد البنائية، والتي خرجت بدورها من رحم المنظور البنيوي الذي شاع في فرنسا في عام 1960 ولم يعمر طويلاً. تستمد البنيوية جذورها من علم اللغة، خاصة النظرية السيميائية (نظام العلامات) لفرديناند دي سوسير، وترتكز البنيوية على نطاقٍ واسعٍ على أعمال الأنثروبولوجي كلود ليفي سترانس. ولقد طورت البنيوية وما بعد البنيوية نظريات تحلل الثقافة وفقاً لمفاهيم محددة كالعلامات، والشفرات الرمزية، واللغة، وتبني النظريتان موقفاً من الإنسان يتحدد في أن الفرد ليس مستقلاً، وإنما هو محكوم بالخطاب. (بيست وكيلنر 1991)

وتصور البنيوية المعاني الاجتماعية كعناصر ثابتة وليست حرة، وتتحقق من خلال البنى

التقليدية والعامة (البنى العميقة) التي شكلت نظاماً ثابتاً وقائماً بذاته. ولقد رفض مفكرو ما بعد البنيوية فكرة أن هناك قواعد عالمية تنظم الظواهر الاجتماعية في نظم محكمة، إضافةً إلى فشل البنيوية في تفسير دوافع مستخدمي اللغة، ومنهجها اللاتاريخي في التحليل. تعد جهود (جاك دريدا) المقاربة الأهم في ما بعد البنيوية، فهي التي ساعدت في إرساء الأساس لظهور نظرية ما بعد الحداثة. وقد كشف تحليل (دريدا 1978) التفكيكي للنصوص، أن اللغة المكتوبة لم تكن مقيدة بالظرف الاجتماعي، كما أن معانيها لم تكن ثابتة ولا نمطية. فاعتماداً على السياق الذي استعملت فيه يمكن أن تكون غير ثابتة وغير نمطية.

ويعد المنظر الفرنسي (ميشيل فوكو) الممثل الرائد لاتجاه ما بعد البنيوية، الذي ركز على العلاقة بين المعرفة والقوة. قدم (فوكو) التاريخ الاجتماعي للطريقة التي تنتج بها المعرفة الخبرة التي تستعمل في المهن والمؤسسات ومن ضمنها الطب لتشكيل السلوك الاجتماعي. لقد بين (فوكو) أن ثمة ترابطاً وثيقاً بين المعرفة والقوة، وأن امتداد إحداهما يعني تلقائياً اتساع الأخرى، والحقيقة أن (فوكو) كان يستعمل عادة مصطلح (المعرفة/القوة) للدلالة على تلك الوحدة. (تيرنر 1995). إن الارتباط بين القوة والمعرفة ليس فقط أمراً قمعياً، وإنما هو أيضاً منتج وممكن (بكسر الكاف وتشديدها) حيث يمثل الأساس الحاسم الذي تتوزع بناء عليه الأوضاع في المجتمع.

يتمثل الإسهام الرئيس لفوكو في علم الاجتماع الطبي في تحليله للوظائف الاجتماعية لمهنة الطب، ويشمل ذلك استعمال المعرفة الطبية كأدوات للضبط والانظام الاجتماعي، وذلك كما تجلّى في دراساته عن الجنون والعيادة، والجنسانية. وجد (فوكو 1973) اتجاهين متميزين ظهرا في تاريخ الممارسة الطبية: طب الأنواع (تصنيف الأمراض وتشخيصها وعلاجها) وطب الفضاءات الاجتماعية (الوقاية من المرض) يعرّف الاتجاه الأول الجسد الإنساني كهدف للدراسة وموضوع للتدخل والضبط الطبي، على حين جعل الثاني صحة الجمهور موضوعاً للانظام الطبي والمدني. إن خضوع الجنسانية لمراقبة الدولة والكنيسة والطب ساهم في إخضاع الأنشطة الجسدية الأكثر حميمية للرصد الخطابي المؤسسي، ولذلك تغدو الأجساد ذاتها خاضعة لوصاية الخبراء نيابة عن المجتمع. (بيترسون وبيبتون 1997 وتيرنر 1992 و1996)

إن مقارنة (فوكو) لدراسة الجسد¹ أثرت كذلك في تطوير تخصص جديد وهو سوسولوجيا الجسد، ويمثل كتاب تيرنر الجسد والمجتمع الذي نشر أول مرة عام 1984 العمل الأساسي في هذا المجال. فالتطورات النظرية المتعلقة بالفهم السوسولوجي لضبط الجسد واستعماله والخبرة الفينومينولوجية له التي تتضمن العواطف كانت أكثر وضوحاً في بريطانيا، حيث أصبح ذلك الموضوع مجالاً أساسياً في علم الاجتماع الطبي. وكانت إحدى المناطق البحثية في هذا المجال هي العلاقة الجدلية بين الجسد العضوي والذاتية، أو بمعنى آخر الخبرة المعاشة أو الفينومينولوجية لوجود الجسد وامتلاكه.

وكما تشرح (ديبورا ليبنتون) (1998:85) تشكل صورة الجسد الطريقة التي يفهم الأفراد من خلالها الإحساسات العضوية ويجربونها، ويضعون أنفسهم في الفضاء الاجتماعي، كيف يتصورون ذواتهم كنزوات منفصلة عن الظواهر العضوية الأخرى، كيف يحمون أنفسهم، كيف يميزون الداخلي عن الخارجي، وكيف يستثمرون أنفسهم كذات أو موضوع.

وبصرف النظر عن تأثير ما بعد البنائية وأعمال (فوكو) في العديد من جوانب النظرية المعاصرة في علم الاجتماع الطبي، فإنهما كانتا عرضة للنقد، حيث يقترح البعض أن ما بعد البنائية لا تأخذ في اعتبارها قيود السلطة، كما أنها لا تفسر العلاقات بين المستوى الأكبر لبناءات السلطة، سوى إسهابها في شرح آلياتها في عملية إعادة الإنتاج، وإضافةً إلى ذلك ثمة تجاهل للفاعل في مفاهيم النظرية، خاصة لدى فوكو، ويلاحظ أنتوني جيدنز (1987) مثلاً أن تاريخ فوكو لا يميل نحو إبراز أي فاعلين إيجابيين على الإطلاق، ويقول إنه تاريخ إلغاء الفاعل، ويذهب جيدنز إلى القول إن الأفراد الذين يظهرون في تحليل فوكو يبدون غير قادرين على تقرير مصائرهم. بيد أن معادلة فوكو (المعرفة/السلطة) المطبقة في السلوك الاجتماعي تبقى أمراً مهماً

¹ لمزيد من التفاصيل عن إسهام ميشيل فوكو في تأسيس سوسولوجيا الجسد انظر: حسني إبراهيم عبد العظيم، الجسد والسلطة والمعرفة: دراسة تحليلية لإسهام ميشيل فوكو في تأسيس سوسولوجيا الجسد، مجلة كلية الآداب، جامعة بنى سويف، مصر، العدد الثاني عشر - الجزء الثاني، إبريل 2008 (المترجم).

لعدد من الموضوعات في علم الاجتماع الطبي. (بيترسون وبينتون 1997). ومع أن البنيوية وما بعد البنيوية تعدان الآن (تراثاً) ميثاً في الفكر الاجتماعي، فإن بعض الموضوعات المرتبطة بها لا تزال مع ذلك مؤثرة، ويظهر ذلك في البنائية الاجتماعية والنظرية النسوية، وبوجه خاص في نظرية ما بعد الحداثة وأعمال بورديو.

البنائية الاجتماعية

ثمة مجال نظري للبحث يرتبط بما بعد البنائية وهو النظرية البنائية الاجتماعية التي تنهض على افتراض أن الظواهر لا تكتشف بل يجري تشكيلها اجتماعياً (تينر 2004)، أي إن الأشياء هي ما يجري تعريفها كأشياء، والمرض مثال على ذلك، فعلى سبيل المثال تؤكد (جاديث لوربر 1997) وآخرون (رادلي 1993) أن المرض يجري تشكيله اجتماعياً من حيث أن التعبير عن الأعراض يتشكل وفقاً للقيم الأخلاقية والثقافية، ويمارس من خلال التفاعل مع الآخرين، ويتأثر بمعتقدات محددة حول ما يشكل الصحة والمرض، والمحصلة كما تزعم (لوربر) هي تحول الأعراض الفسيولوجية إلى تشخيص ينتج سلوك مرض ملائم اجتماعياً ومكانة اجتماعية مغايرة. وعندما تتعرض البنائية الاجتماعية للعواطف فإنها تركز على الطبيعة الاجتماعية بصورة أكبر من الطبيعة البيولوجية للعواطف. (جيمس وجيب 1996) إنها تنطلق من موقف محدد مؤداه أن العواطف تتباين في معانيها وطرق التعبير عنها وفقاً للعوامل الاجتماعية والثقافية، وتبعاً لذلك فالعواطف - وفقاً للنظرية - هي أولاً وقبل كل شيء بنى اجتماعية وثقافية. (ويليامز وبيندلو 1996) في علم الاجتماع الطبي، ترتبط إحدى صور البنائية الاجتماعية بقوة ب (ميشيل فوكو) وتحليلاته للجسد كمنتج (بفتح التاء) للسلطة والمعرفة. (انانديل 1998 وبيري 1986 ونيلتون 2006). تركز النظرية على فحص الأسلوب الذي يقوم الناس من خلاله بتشكيل وتقديم وإدارة وتقييم الجسد اجتماعياً، ولقد أوضح (كريس شلنج 1993) أن للطبقة الاجتماعية تأثيراً عميقاً في كيفية تطوير الأفراد لأجسادهم، وتطبيق قيم رمزية على أشكال جسدية معينة. ويرى (شلنج 1993) أن الأجساد تمثل أشكالاً لرأس المال العضوي تتحدد قيمتها بقدرة الجماعات المهيمنة

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

على تعريف أجسادهم وأنماط حياتهم باعتبارها نماذج (رفيعة) superior تستحق المكافأة، وتمثل بصورة حقيقية أو مجازية - تجسيدا للطبقة. يلخص نيثلتون (2006) جناح فوكو في البنائية الاجتماعية في علم الاجتماع الطبي بالإلحاح على سماته الرئيسية الثلاثة: الأول أنه ينكر وجود الحقيقة وإمكان الوصول إلى تفسير صحيح وحيد للمرض والجسد. الثاني أنه يعارض التاريخ التقليدي للطب الذي يفترض تقدماً ثابتاً ومستمراً نحو معرفة صادقة متنامية للمرض. تفضل البنائية الاجتماعية عوضاً عن ذلك مقارنة أكثر انتقائية بالتركيز على أدلة محددة ومتقطعة. والثالث، نظراً إلى أن كل أنماط المعرفة - سواء ارتكزت على العلم أو الخبرة - متساوية في الصدق، فإن إعادة التفكير في العلاقة بين الخبراء الطبيين والأشخاص العاديين تعد أمراً ضرورياً. إن الفكرة التي مؤداها أن كل المعارف تشكل اجتماعياً تلغي أي ادعاء بأن المعرفة الطبية متفوقة دائماً على المعرفة العادية.

وترتكز الصورة الأخرى للبنائية الاجتماعية على العمل الأصيل لـ (بيتر بيرجر) و(توماس ليمان) في كتابهما: البناء الاجتماعي للواقع (1967) الذي انطلق من التفاعلية الرمزية وتشديدها على دور الفاعل. وقد تأثر هذا المدخل أيضاً بتحليل إليوت فريديسون (1970) للمهنية الطبية. بحث فريديسون كيف احتكرت مهنة الطب القوة والسلطة في المسائل الطبية لتعزيز مصالحها الخاصة. ونظراً للاختلافات الجوهرية بين بيرجر وليمان من جهة وفوكو من جهة أخرى، فمن الواضح أن البنائية الاجتماعية تفتقد رؤية موحدة ومحددة. ووفقاً لما يطرحه (تيرنر 2004)، تقدم تلك الاختلافات في البنائية الاجتماعية تفسيرات متباينة للغاية للفاعل الاجتماعي، ولذا فإنها تتضمن مضامين مختلفة لفهم العلاقة بين المرضى والأطباء وأشكال المرض. إن الجهد البنائي الاجتماعي الأكثر تأثيراً لبيرجر ولوكمان هو الأكثر توجهاً للفاعل، وكلما اقترب من تحليل فوكو، كان للفاعل دور أقل.

النظرية النسوية

للنظرية النسوية في علم الاجتماع الطبي جذور (ما بعد بنائية) أيضاً، خاصة فيما يتعلق

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

بالتفسيرات البنائية للجسد الأثوثي وانضباطه من خلال المجتمع الذكوري، إن الافتراضات الاجتماعية والثقافية تعمل على التأثير في تصوراتنا حول الجسد، وتتضمن تلك التصورات استعمال الجسد الذكوري كمعيار في التدريب الطبي، والصاق السمات العاطفية والعضوية الأقل قبولاً اجتماعياً بالمرأة، والطريقة التي يجري بها تشكيل أمراض النساء اجتماعياً. وثمة نظرية نسوية أخرى متجذرة في نظرية الصراع أو التفاعلية الرمزية، وتهتم تلك النظرية بالمعاملة المتحيزة جنسياً من الأطباء الذكور للمرضى من النساء، والمكانة الاجتماعية المتدنية وغير العادلة للطبيبات في المؤسسات والترانبات المهنية الطبية. والحقيقة أنه لا يوجد منظور موحد بين مُنظرات النسوية سوى منظور التمركز حول المرأة الذي يهتم بمختلف جوانب صحة المرأة، ويسعى لوضع نهاية للتوجهات النوعية المناهضة للمرأة في نسق الصحة والمرض، وفي المجتمع بوجه عام.

ما بعد الحداثة

ثمة اختلاف معتبر حول مفهوم ما بعد الحداثة Postmodernism وطبيعته، بيد أن القضية العامة هي أن ما بعد الحداثة تمثل تفكيراً للحداثة ونظامها الاجتماعي ما بعد الصناعي الذي أفرز ظروفًا اجتماعية جديدة. وعموماً فقد تجاهل علماء الاجتماع ما بعد الحداثة حتى منتصف عام 1980، عندما قرر علماء اجتماعيون بريطانيون بدءاً أنها تستحق الاهتمام الجاد (بيرنيز 1995). لقد انبثقت ما بعد الحداثة من رحم ما بعد البنيوية كنفد أكثر شمولاً للنظرية السوسولوجية الحديثة والسرديات الكبرى، طارحة تعميمات شاملة حول المجتمع ككل، إنها ترفض فكري الاستمرارية والنظام وتدعو لمفاهيم جديدة تفسر اضطراب التغيير الاجتماعي في الحداثة المتأخرة (بيست وكيلر 1991). وبدلاً من ذلك تجادل النظرية بأنه لا توجد عقلانية واحدة متماسكة، وأضحى إطار الحياة الاجتماعية هشاً ومتبايناً ولا مركزياً (تيرنر 1990) إن الأهمية السوسولوجية لما بعد الحداثة تكمن في كشفها عن عدم استقرار المجتمع وضرورة صياغة نظرية تتوافق مع تفسير الوقائع الاجتماعية الجديدة.

علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

وعلى أي حال فثمة أعمال قليلة في علم الاجتماع الطبي قد تبنت - حتى الآن - صراحة موضوعات ما بعد الحداثة. تتضمن هذه الأعمال الاستثنائية القليلة تلك الخطابات ما بعد البنائية المجردة المتعلقة بالصحة وتعريف الجسد، (فوكس 1993) بجانب الأعمال المتعلقة بهشاشة المجتمع الحديث والسلطة الطبية التي تمارس ضبطاً قوياً على أجساد الأفراد (جلاسندر 1989)، ومسئولية الأشخاص المتزايدة نحو صحتهم، (كوكراهام وآخرون 1997) وتعزيز استعمال الأشكال البديلة للرعاية الصحية، وقد ربط كل من بيسكوسوليدو وروين (2000) بين ظروف ما بعد الحداثة وإلغاء الطابع المؤسسي للمرض العقلي في الولايات المتحدة.

وقد بلغت النظرية أوج شعبيتها في علم الاجتماع في بدايات التسعينيات، وبدا في ذلك الوقت أن لها مستقبلاً هاماً في علم الاجتماع الطبي ولكن ذلك لم يحدث. بل إن استعمال النظرية قد انخفض فجأة في أواخر التسعينيات، ولم يتحقق لها على الإطلاق موطئ قدم راسخ في علم الاجتماع الطبي. وذلك لأنها تضمنت عدداً من أوجه القصور، مثل فشلها في تفسير الظروف الاجتماعية بعد اكتمال القطيعة مع الحداثة، والافتقار إلى نظرية ملائمة للفعل، والتجريد الواسع والغموض، وغياب التصورات الواضحة وعدم القدرة على تفسير العلية الاجتماعية وانتفاء التأكيد الإمبريقي. ومصطلحاتها ورطانتها التي تبدو مألوفة وذات معنى لأنصارها فقط، على حين يعتبرها آخرون هراء. وفي حين أعلن عن موت النظرية في علم الاجتماع الطبي، فإنها ما تزال تتمتع بشعبية في بض الدوائر على الرغم من أن تأثيرها قد تراجع بشكل لافت في السنوات الأخيرة وأصبحت أقل أهمية. تتمثل فائدة ما بعد الحداثة في أن المجتمع الحديث قد تحول إلى شكل جديد يتسم بظروف اجتماعية تختلف عن تلك التي كانت سائدة في الماضي القريب، وتقدم النظرية - برغم تراثها المشتت - إطاراً تصورياً يفسر العديد من التغيرات.

بيير بورديو:

ركز بيير بورديو (1984) - باعتباره المفكر الرائد في فرنسا - على الكشف عن كيفية تأثر الممارسات الروتينية للأفراد بالبنية الخارجية لعلمهم الاجتماعي، وكيف أن تلك الممارسات بدورها

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

تعيد إنتاج تلك البنية. فمن خلال مفهومه المركزي (الهابيتوس) يربط (بورديو) الممارسات بالثقافة والبناء والقوة (سوارتز 1997). ويصف (بورديو 1990) الهابيتوس كمشروع عقلي أو إطار منظم للتصورات يحمل الفرد على أن يتبع خطأً معيناً في السلوك يختلف عما قد يختاره الآخرون. تلك التصورات يجري تطويرها وصياغتها والحفاظ عليها في الذاكرة، وفي الهابيتوس من خلال التنشئة الاجتماعية والتجربة، وفي واقع الظروف التطبيقية، ومع أن السلوك الذي يجري اختياره قد يتناقض مع التوقعات المعيارية والطرق المعتادة للفعل، فإن الخيارات السلوكية تتوافق بشكل نمطي مع معايير وتصرفات جماعة أو طبقة معينة أو المجتمع بأسره؛ ولذا فإن الأفراد يميلون للتصرف بطرق يمكن التنبؤ بها على الرغم من أن لديهم القدرة على الاختيار بشكل مغاير، ومن خلال هذا التصور الانتقائي يوفق الهابيتوس التطلعات والتوقعات مع الفئات المحتملة التي تفرض حدوداً على القيام بالفعل وصوره المحتملة.

ويبقى كتاب (التميز 1984) من بين كل أعمال بورديو هو الأكثر ملاءمة لعلماء الاجتماع الطبي، الذي يبين فيه بشكل منظم أنماط الاستهلاك الثقافي والمنافسة حول مفاهيم (الذوق) لدى الطبقات الاجتماعية الفرنسية. يتضمن الكتاب تحليلاً لعادات الطعام وممارسة الرياضة، ويصف كيف تشكل العادات الموجهة طبقياً هذه الجوانب من أساليب الحياة الصحية.

ويستلهم (كوكيرهام 1997، 1999، 2000، 2005، 2007) في نظريته حول أسلوب الحياة الصحي الإطار النظري لبورديو، وفي اعتبار أنماط الحياة الصحية السلبية كمحددات اجتماعية أولية في تراجع متوسط العمر المتوقع في روسيا. ويمثل الشباب الذكور أعضاء الطبقة العاملة المجموعة الأكثر بروزاً في تراجع طول العمر، إن ظروف حياة هؤلاء الرجال وأوضاعهم المتدنية والضعيفة نسبياً في البناء الاجتماعي أفرزت ممارسات غير صحية (كالتدخين والإفراط في تناول الخمر والاسترخاف بالنظام الغذائي ورفض ممارسة الرياضة) والتي أنتجت بدورها مشكلات صحية كأمراض القلب والحوادث، وهو ما أفضى في النهاية إلى قصر العمر. هذه السلوكيات هي معايير استقرت من خلال التفاعل الاجتماعي، شكلتها الفرص المتاحة لها، واستدمجت من خلال الهابيتوس. إن بنية الحياة اليومية تحدد الخيارات المرتبطة بالصحة بالدرجة التي تجعل

نمط الحياة يؤدي للموت المبكر .

ووفقاً لما يطرحه (ويليامز) 1995 فإن قيمة تحليل بورديو لفهم العلاقة بين الطبقة ونمط الحياة تكمن في وصفه للمتانة النسبية للأشكال المختلفة للسلوك المرتبطة بالصحة داخل طبقات اجتماعية معينة، ورصده السلس نسبياً للعلاقة بين الفاعل والبناء. ويستطرد (ويليامز): إن الأسلوب الذي عرض من خلاله بورديو براهينه في تحليل العلاقات بين الطبقة ورأس المال، والذوق والجسد¹ في سياق أساليب الحياة، كان مقنعاً وحاسماً. وعلى الرغم من النقد الذي تعرض له بورديو بسبب المبالغة في تأثير البنية على الفاعل، وتقديمه نموذجاً حتمياً للسلوك البشري (ميونخ 1993)، فإنه برغم ذلك وفر لعلماء الاجتماع الطبي إطاراً تصورياً لأساليب الحياة الصحية، وقدم لعلماء الاجتماع بوجه عام معالجة جيدة للعلاقة بين الفاعل والبناء. (كوكراهام 2005)

الواقعية النقدية:

الواقعية النقدية Critical Realism هي اتجاه نظري جديد نسبياً ظهر في بريطانيا، وارتكز على عمل الفيلسوف (روي باسكار) (1994, 1998) وعالمة الاجتماع (مارجريت آرشر) 1995، 1998.

ترى النظرية الواقعية النقدية أن البنائية الاجتماعية لم تأخذ في الاعتبار دور الفاعل، وقدمت رؤية مغرقة في الحتمية الاجتماعية over socialized view وبالغت في إبراز تأثير البناء على الأفراد. وفي حين اختار بعض المنظرين مثل بورديو وجيندز منهجاً سلساً في بيان العلاقة بين الفاعل والبناء، فإن إسهاميهما لم يكونا في الواقع متزامنين. ونتيجة لذلك تتعامل الواقعية النقدية - على العكس من ما بعد البنائية - مع إشكالية الفاعل والبناء كبعدين متميزين تماماً ولكنهما

¹ حول إسهام بورديو في دراسة الجسد، انظر: حسني إبراهيم عبد العظيم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو، المجلة العربية لعلم الاجتماع (إضافات) الصادرة عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 15، صيف 2011. (المترجم)

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

مترايطين، ينبغي أن يدرسا بشكل منفصل من أجل فهم إسهامهما الخاص في الممارسة الاجتماعية. إن ذلك (الفصل التحليلي) بين البناء والفاعل - على ما يقرر (ويليامز 1999) ليس من أجل التعاضدي عن ترابطهما - بل على العكس - من أجل الكشف عن ترابطهما المتبادل عبر الزمن، وهو ما قد يفضي إلى إعادة إنتاج ثابت أو وقوع تغير عبر ظهور قوى وسلطات جديدة.

تأخذ الواقعية النقدية موقفاً مؤداه أن النظم الاجتماعية هي أنساق مفتوحة للعمليات الديناميكية والتغير، وأن الأفراد كفاعلين لديهم القدرة النقدية، والمرونة والإبداع لتشكيل البناء، وهم بدورهم يتأثرون بالبناء. بيد أن العامل الأساسي في النظرية الواقعية النقدية هو قدرة الفرد على تحويل البناء وإنتاج مخرجات متنوعة. (أرشر 1995) إن البناء بطبيعته دائم نسبياً، على الرغم من أنه يمكن أن يتغير، والبنى العميقة لديها آليات توليدية توجد فيما وراء الملحوظ أو المشاهد تؤثر في السلوك. إن هدف الواقعية النقدية هو الربط بين الفعل والبناء بطريقة يمكن من خلالها الأخذ في الاعتبار بطريقة واقعية السمات المميزة لكليهما دون اختزال القضية في أحدهما. من بين الدراسات القليلة في علم الاجتماع الطبي التي وظفت الواقعية النقدية حتى الآن دراسة الجسد من ناحية الأمراض المزمنة والعجز، التي تركز على تأثير العلاقة المتبادلة بين العوامل البيولوجية والاجتماعية في تشكيل المخرجات الصحية، (ويليامز 1999) ومحاولة تطوير سوسولوجيا لعدم المساواة الصحية التي تتجاوز الدراسات الوبائية التقليدية. (سكامبلر 2002)

خاتمة:

إن فكرة أن علم الاجتماع الطبي ليس علماً نظرياً هي فكرة خاطئة. ولقد قدم الفصل الحالي عرضاً مختصراً لتاريخ وتنوع الرؤى في النظرية السوسولوجية التي جرت الاستفادة منها في هذا الميدان، وقدمت هذه الرؤى قضايا مؤثرة حول العلاقة بين المجتمع والصحة. فابتداءً من بارسونز والبنائية الوظيفية امتلك علم الاجتماع الطبي تراثاً نظرياً ثرياً امتد لقرابة ستين عاماً، دمج هذا التراث بين إسهامات العلماء الكلاسيكيين والمعاصرين. إن الجدل الدائر في علم الاجتماع العام

..... علم الاجتماع الطبي والنظرية السوسولوجية

حول بعض القضايا مثل التعارض بين التفاعليين الرمزيين وعلماء الصراع ضد البنائية الوظيفية، ومعضلة العلاقة بين الفعل والبناء أصبح موضوعاً للحوار النظري في علم الاجتماع الطبي أيضاً.

وخلال الشطر الأخير من القرن العشرين، تم التخلي على نطاق واسع عن النظريات البنائية كالبنائية الوظيفية لمصلحة النظريات ذات التوجه نحو الفاعل مثل التفاعلية الرمزية نظرية التسمية والجانب المهتم بالفاعل في البنائية الاجتماعية، ومع ذلك، فإن تطور التقنيات الإحصائية لقياس تأثير البناء - مثل النمذجة الخطية الهرمية - تنبئ بعودة نموذج نظري يعطي اعتبارات أكبر للبناء والمقاربات البنائية في النظرية (كوكراهام 2007). وعلى الرغم من أنه من المبكر تحديد الاتجاه النهائي للنظرية في علم الاجتماع الطبي في هذا القرن بدقة، فإن تلك الإجراءات الإحصائية المتطورة ينبغي أن توفر مقارنة أكثر شمولاً للبحث مع وجود نظرية توجه وتلائم هذه القدرة. إن الأساس النظري للعمل في هذا الميدان واسع بالفعل، وقدرته التفسيرية المحتملة في تمام. لقد أصبح علم الاجتماع الطبي نظاماً علمياً نظرياً a theoretical .subdiscipline

التحريج العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

تاريخ العلوم المعرفية¹

لـ جان – فرانسوا دورتييه

ترجمة: أ. د. محمد أحمد طجو

كلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود

المملكة العربية السعودية

يعود ما قبل تاريخ العلوم المعرفية إلى القرن الثامن عشر، وإلى مشروع وصف الفكر على شكل آلة منطقية. ولكن ميلادها الرسمي يرقى إلى خمسينيات القرن العشرين، على أثر اختراع الحاسوب (الكمبيوتر)، والتحكم الآلي، وولادة علوم الدماغ.

يندرج اختراع الحاسوب في إطار استمرارية مشروع ضخم لفهم الفكر البشري على شكل جبر عام، بدأ يتحقق في القرن التاسع عشر. صاغ هذا المشروع الذي تخيله لايبنتز² ("التفكير يعني الحساب") عالم المنطق جورج بول³ (1815-1864) الذي اخترع "الحساب الرمزي"، الذي عبر

¹ هذه ترجمة للصفحات 110-115 من كتاب *تاريخ العلوم وفلسفتها* *Histoire et philosophie des sciences*، الصادر في عام 2013.

² غوتفريد فيلهلم لايبنتز (أيضاً لايبنتس) (21 يونيو 1646 - 14 نوفمبر 1716) فيلسوف ألماني، وعالم طبيعة، وعالم رياضيات، ودبلوماسي، ومكتبي، ومحامي. يرتبط اسمه بالتعبير "دالة رياضية" K (1694) التي كان يصف بها كل كمية مُتعلّقة بمُنحنٍ، مثل ميل المنحني أو نقطة معينة على المنحني. ويعتبر مع نيوتن أحد مؤسسي علم التفاضل والتكامل، وبخاصة تطوير مفهوم التكامل وقاعدة الجداء، كما طور المفهوم الحديث لمبدأ الحفاظ على الطاقة. (المترجم).

³ جورج بول (2 نوفمبر 1815 - 8 ديسمبر 1864) عالم منطق بريطاني. يعود له الفضل في وضع الأسس النظرية للجبر البوليني، والذي يسمى أيضاً بالجبر المنطقي، وقد نشر هذا العالم نظرياته في منتصف القرن التاسع عشر لتصبح فيما بعد الأساس في تصميم الدارات المنطقية التي يتكون منها الحاسوب. قام بنشر كتابه "استقراء قوانين

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

عن عمليات منطقية مثل "أو"، "و"، "إذا ... عندئذ" بعمليات حسابية بسيطة تجرى على الرقمين صفر و 1.

إن الحاسوب بالمعنى الدقيق هو نتيجة التقاء العديد من الاكتشافات. وهناك ابتكاران فكريان حاسمان: في عام 1939، تصور عالم الرياضيات البريطاني آلان ماتيسون تورينغ (1912-1954)¹ جهازاً افتراضياً (آلة تورينغ) يعبر عن أي مسألة رياضية قابلة للحساب بشرياً على شكل سلسلة من العمليات البسيطة. وهكذا اخترع مبدأ الحساب الخوارزمي، الذي مثل أحد أسس المعلوماتية. من جانبه، جمع جون فون نُويمان (1903-1957)² بين الحساب التحليلي (الذي قامت به الآلات الحاسبة الإلكترونية العملاقة) ومبدأ الحساب الخوارزمي (الناتج عن آلة تورينغ) فأرسى أسس الحواسيب الحقيقية الأولى (التي عرفت باسم "هندسة فون نويمان"). وليس هناك، بالمعنى الدقيق للكلمة، حاسوب أول (مثلما لا يوجد هناك سيارة أولى أو طائرة أولى). وقد شهدنا

التفكير" في 1854 الذي وضع فيه وفي أعماله اللاحقة أسس الجبر المنطقي الذي يعد لبنة هامة في تصميم العمليات المنطقية للحاسوب الحديث. (المترجم).

¹ عالم رياضيات ومهندس بريطاني، عمل طيلة الحرب العالمية الثانية في الجاسوسية البريطانية مع اضطلاعه بمهمة وضع تصور آلات لفك الرسائل المشفرة التي يطلقها الأعداء. حاول بعد الحرب بناء ما يعرف بآلة تورينغ الحقيقية، تبعاً للنموذج الذي تصوره قبل الحرب فكان مشروعه خطوة حاسمة في بناء أول حاسب آلي. وآلة تورينغ هي آلة نظرية، أي رسيمة وظيفية وليس جهازاً مادياً. أما وظيفتها الافتراضية فكانت معدة بداية لإظهار بعض حدود المنطق. ومن هذه الزاوية اخترع تورينغ جهازاً نظرياً قادراً على حل المسائل الرياضية التي تعالج من ضمن اللوغاريتم. وهي عبارة عن جهاز يتكون من شريط لامتناه يتضمن عدداً غير محدود من الخانات تدرج عليها الرموز العددية. وتستطيع الآلة القيام ببعض العمليات البسيطة: قراءة خانة ومحو مضمونها في الوقت نفسه و/ أو طباعة رمز آخر، ثم التحول إلى الخانة اللاحقة أو السابقة. استطاع تورينغ بواسطة هذا الجهاز النظري إطلاق إحدى القواعد الأساسية في المعلوماتية إذ استطاع أن يبرهن أن بإمكان مثل هذه الآلة، في حال وجودها، أن تحل كل المسائل التي يمكن ترجمتها بشكل خوارزمي، أي ضمن سلسلة من التوجيهات (المترجم).

² جون فون نُويمان (28 ديسمبر 1903 - 8 فبراير 1957) هو رياضي أمريكي هنغاري المولد، قدم مساهمات واسعة وهامة في كثير من المجالات، ويعتبر من أهم علماء الرياضيات في التاريخ الحديث (المترجم).

في المدة 1945-1950 تحول الآلات الحاسبة العملاقة إلى حواسيب نتيجة الابتكارات المستمرة.

1945-1955: علم التحكم، والدماغ، والحاسوب

نُظمت من عام 1946 إلى عام 1953 مؤتمرات "ماسي" في نيويورك التي جمعت مجموعة من العلماء من اختصاصات مختلفة، بينهم عالمان في الرياضيات هما نوربيرت فينر (1894-1964) وجون فون نُؤيمان، وعالم فيزيولوجيا الجهاز العصبي وارن مكلوتش²، وأيضاً باحثان في العلوم الإنسانية مثل عالم الأنتروبولوجيا غريغوري بيتسون (1904-1980)³، وعالم الاجتماع بول لازاريفيلد (1901-1976)⁴، وعالم النفس كورت لوين (1890-1947)¹.

¹ نوربيرت فينر (26 نوفمبر 1897 – 18 مارس 1964)، عالم رياضيات أمريكي. ولد في أمريكا من أبوين يهوديين وكان والده أستاذاً للغات في جامعة هارفارد. بدأ فينر دراساته الجامعية للرياضيات في سنة 1909 في عمر لا يتجاوز 11 سنة فانتقل إلى هارفارد حيث درس علم الحيوان zoologie لكنه انتقل ثانية لكونرل ليدرس الفلسفة وعاد في نهاية المطاف لجامعة هارفارد حتى يكمل دراسته ببحث حول المنطق الرياضي ثم تحول ليدرس في إنجلترا وألمانيا. اشتغل فينر كمحاضر في جامعة هارفارد وفي شركة جنرال إلكتريك. اشتغل في الحرب العالمية لحساب الجيش وطور الآليات المضادة للطيران أو ما يسمى الدفاع الجوي (المترجم).

² وارن مكلوتش، من مواليد 16 نوفمبر 1898 في أورانج (نيو جيرسي). توفي في 24 سبتمبر 1969 في كامبريدج (ماساتشوستس). كان باحثاً في علم الأعصاب ومبادراً للاجتماعات التخصصات البيئية في ماسي التي جمعت بعضاً من أعظم العقول في ذلك الوقت بين عامي 1942 و 1953، والتي كانت أصل علم التحكم الآلي. أثبتت الخاصية التالية: عند توصيل خلية عصبية (أ) في الدماغ مباشرة إلى خلية عصبية (ب)، هناك دائماً اتصال، إما مباشر أو غير مباشر، من (ب) إلى (أ) أيضاً.

³ درس علم الحيوان، وتوجه إلى الأنتروبولوجيا بعد وفاة والده فسافر إلى غينيا الجديدة حيث التقى مارغريت ميد وتزوج منها في عام 1933، ليبدأ معاً استقصاء حول آلية التواصل بين الأشخاص، الأم والأبناء وسيرورة الحياة الاجتماعية في بالي. وقد نشرنا نتيجة الدراسة تحت عنوان La cérémonie du Naven (1936). وقد فتحت هذه الدراسة المجال للتفكير حول التفاعلات المبكرة بين الأم والأبناء ونتائج ذلك على تشكل الشخصية. اهتم بعلم التواصل، واكتشف عام 1942 علم التحكم الآلي والمقاربة النسقية... (المترجم).

⁴ هو عالم اجتماع أمريكي، من أصل نمساوي. معروف بوجه خاص لأهمية عمله حول آثار وسائل الإعلام على

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

كان التحكم الآلي أحد موضوعات المناقشة. وقد استحدث فينر هذا المصطلح في عام 1948، ورأى أن التحكم الآلي (من اليونانية kubernetes، قبطان) سوف يكون العلم الجديد لأنظمة التحكم الذاتي. عمل فينر لمصلحة الجيش الأمريكي على أجهزة القيادة الآلية للطائرة (زودت بآلية تغذية راجعة تسمح لها بالمحافظة على الطيران). وكان مقتنعاً بأن نظام التحكم الذاتي الآلي هو جهاز عام جداً يمكن أن نجده في أنظمة أخرى: الكائنات الحية، والأدمغة، والمجتمعات... وإن مجالات تطبيق التحكم الآلي يمكن أن تنتقل إذن من علم وظائف الأعضاء إلى الهندسة من خلال معرفة الدماغ.

1956: ولادة الذكاء الاصطناعي

نظم عالم الرياضيات جون مكارثي² في عام 1956 في دارتموث (كندا) حلقة البحث الأولى حول الذكاء الاصطناعي. وقد حضر الحلقة زميلاه مارفن منسكي³ وكلود شانون⁴، مؤسس

المجتمع واستعمال أساليب تحري جمع المعلومات، ولكن أيضاً لمساهمته في تطوير علم الاجتماع الانتخابي (المترجم).

¹ عالم نفس أمريكي ألماني المولد (المترجم).

² عالم أمريكي (4 سبتمبر 1927 – 23 أكتوبر 2011) في مجال الحاسوب حصل عام 1971 على جائزة تورنغ لمساهماته الكبيرة في علم الذكاء الاصطناعي حيث يعود له الفضل في اختيار لفظ الذكاء الاصطناعي وإطلاقه على هذا العلم. وله العديد من المساهمات والاختراعات الأخرى حيث أنه هو مخترع لغة ليسب LISP عام 1958، وهي إحدى لغات برمجة الحاسوب ذات التاريخ العريق، فقد تم وضع مواصفاتها عام 1958 وبذلك تحل بعد فورتران Fortran التي ابتكرت قبلها بسنة، كثنائي لغة عالية المستوى. وهو أيضاً مخترع أسلوب جمع القمامة (استعادة الموارد غير المستعملة) في عام 1959 (المترجم).

³ مارفن لي منسكي (ولد في 9 أغسطس 1927)، هو عالم معرفي أمريكي في مجال الذكاء الاصطناعي، عضو ومؤسس معمل الذكاء الاصطناعي بمعهد تكنولوجيا ماساتشوستس، وله العديد من الكتابات حول الفلسفة والذكاء الاصطناعي (المترجم).

⁴ عالم أمريكي في الرياضيات (30 أبريل 1916 – 24 فبراير 2001) يعتبر من مؤسسي نظرية المعلومات، وله مساهمات عديدة في علم التشفير والإلكترونيات، وقد بين أن استعمال التشفير الذي يعتمد على استعمال المفتاح

تاريخ العلوم المعرفية

نظرية المعلومات. وكان هناك أيضاً هيربرت سيمون¹ المختص في تنظيم القرار واتخاذ، وصديقه عالم الرياضيات آلان نويل². وقد حقق كلاهما مفاجأة بتقديم البرنامج الأول للذكاء الصناعي: المُنظّر المنطقي *Logic Theorist*. كان الغرض من هذا البرنامج إثبات نظريات رياضية. ويعمل مثل آلة منطقية قادرة على تسلسل مجموعة من القضايا وترابطها انطلاقاً من بعض المقدمات المنطقية (على نمط القياس "إذا كان (أ) يفترض (ب)" و"(ب) يفترض (ت) فإن (أ) يفترض (ت)").

ولد الذكاء الصناعي، وهدفه: نسخ ثم تجاوز الأنشطة البشرية التي تعتبر ذكية مثل: التفكير، واستعمال اللغة أو حل المشكلات. ولكن كيف السبيل للوصول إلى ذلك؟ اقترح هيربرت سيمون طريفاً عاماً: يمكن أن تحلل كل مشكلة يراد حلها إلى سلسلة من الأهداف المتوسطة، ويجري استكشاف مختلف الطرق بالنسبة لكل هدف منها حتى يتم الوصول إلى الحل.

صمم سيمون ونويل في عام 1957 برنامج حل مشكلات عاماً (GPS)³، وهو برنامج معلوماتي هدفه حل فئة من المشكلات من النمط نفسه. وظن أنه يستطيع انطلاقاً من النموذج الأول هذا ابتكار آلة لترجمة اللغات، وللعب الشطرنج، ولاتخاذ قرارات، الخ. ولم يخف طموحه:

مرة واحدة هو تشفير آمن كلياً. وقد كانت هذه المساهمة الأولية في نظرية المعلومات هي الخطوة الأولى في بحث طرق التشفير رياضياً. طور في كتابه المشهور جداً، الذي يبحث *النظرية الرياضية في الاتصال A Mathematical Theory of Communication*، أفكاراً تستعمل في أسس طرق تشغيل الحواسيب الحالية كما أنه ساهم في إنشاء العدد الثنائي (البت)، وكذلك علم التشفير الحديث (المترجم).

¹ يعرفه علماء الاقتصاد لحصوله على جائزة نوبل في الاقتصاد في عام 1978. ويعرفه علماء اجتماع تنظيم القرار بوصفه منظر العقلانية الجديدة. ويعرفه المختصون في العلوم المعرفية بوصفه أول من أرسى إلى جانب آلان نويل أول برنامج في الذكاء الاصطناعي. وثمة إشكالية واحدة تربط مجالات البحث المنفردة: محاولة فهم أحوال الاستدلال عند الكائن البشري في إطاره الاجتماعي.

² باحث في مجال علم الحاسوب وعلم النفس المعرفي في معهد راند للسياسات وجامعة كارنيجي ميلون، فاز مع هيربرت سيمون بجائزة تورينغ في عام 1975 (المترجم).

³ General Problem Solver (المترجم)

"سوف يكون حاسوباً رقمي في غضون عشر سنوات بطل العالم في الشطرنج". وهكذا، سوف يكون برنامج حل المشكلات العام نموذجاً جيداً لفهم الفكر الإنساني. ويؤكد سيمون ونويل تأكيداً حاسماً أن "معظم النظريات في علم النفس سوف تأخذ في غضون عشر سنوات شكل برامج معلوماتية".

1956: بدايات علم النفس المعرفي

سادت السلوكية¹ في بداية الخمسينيات في علم النفس الأمريكي، ولكن بعض الكتاب بدؤوا بالنأي بنفسهم عن هذا النموذج. ومن هؤلاء أستاذان من أساتذة جامعة هارفارد: جيروم برونر² وجورج ميلر³. نشر برونر في عام 1956 *دراسة في التفكير* بنتت في أمر المبادئ السلوكية. فبدلاً من الاهتمام فقط بسلوكيات الأفراد التي يمكن ملاحظتها، سعى برونر وزملاؤه لتسليط الضوء على الاستراتيجيات الذهنية للأفراد الذين يواجهون مهمة ما (تصنيف بطاقات على سبيل المثال). المقصود فهم مسار تفكيرهم وسلسلة العمليات الذهنية التي تؤدي إلى حل المشكلة. وأوضح ميلر

¹ مدرسة زعيمها جون ب. واتسون (1878-1958)، وهو من ابتكر الكلمة في مقالة له صدرت في عام 1913 في مجلة *علم النفس*، وكانت بعنوان: "علم النفس كما يراه السلوكي". يعتقد واتسون أن علم النفس لا يمكن أن يصبح علماً إلا إذا قام على الملاحظة الموضوعية للسلوكيات. من هنا كان القول إن علم النفس هو علم السلوكيات الخاضعة للمراقبة، وإن السلوكيات البشرية هي نتاج التكيفات. والتكيف هو شكل من أشكال التعلم حيث يتعلم الفاعل أن يربط سلوكاً (إجابة) Réponse بمثير Stimulus. ومن هنا عمم واتسون فكرة كون السلوكيات البشرية نتيجة تعلم مشروط (المترجم).

² عالم نفس أمريكي (1915)، ساهم في تطوير علم النفس المعرفي ونظرية التعليم المعرفية في مجال علم النفس التربوي والفلسفة التربوية. وتعتمد مبادئ برونر على التصنيف: أن تدرك يعني أن تصنف، أن تتصور يعني أن تصنف، أن تتعلم يعني أن تنشئ تصنيفات، أن تتخذ قراراً يعني أن تصنف" (المترجم).

³ كان جورج ميلر (3 فبراير 1920 – 22 يوليو 2012) واحداً من مؤسسي علم النفس المعرفي. وساهم أيضاً في ميلاد علم اللغة النفسي والعلوم المعرفية بوجه عام. كتب ميلر عدة كتب وقاد تطوير ووردنت (WordNet)، وهو عبارة عن قاعدة بيانات لربط الكلمات على الإنترنت تُستعمل في برامج الحاسوب (المترجم).

تاريخ العلوم المعرفية

في عام 1956 أيضاً في دراسة شهيرة حملت عنوان "الرقم 7 السحري" (الرقم 7 السحري" بإضافة أو طرح اثنين) أن الذاكرة الفورية أو القصيرة المدى محدودة: إنها لا تحفظ إلا بصعوبة قائمة من أكثر من سبعة عناصر. يستعمل العقل البشري للتغلب على هذا الضعف منهجاً يقوم على تجميع العناصر (كما هو الحال بالنسبة لرقم هاتف حيث يتم تجميع الأرقام العشرة في خمسة أرقام من عديدين). وأما في عام 1960 فقد أسس جيروم برونر وجورج ميلر مركز علم النفس المعرفي في جامعة هارفارد. وكان ذلك منهجاً جديداً في مقارنة التفكير، إذ فتح الصندوق الأسود لفهم أسرار التفكير في أثناء العمل. ويقوم المنهج على محاولة الكشف عن الاستراتيجيات الذهنية التي يستعملها أفراد في مواجهة مشكلة ما.

1956: نعوم تشومسكي والنحو التوليدي

إن العام 1956 هو العام الذي دافع فيه نعوم تشومسكي الذي كان عمره 28 عاماً آنذاك عن أطروحته البنية المنطقية والنظرية اللغوية. كان اللغوي الشاب، الذي حضر مؤتمر معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT، في طور صياغة نظرية لغوية جديدة: نظرية النحو التوليدي GG التي عرضت أول مرة في عام 1957 في كتاب *البنى النحوية*. وقد راهن تشومسكي على وجود استعداد بشري فطري لإنتاج اللغة، ولبناء جمل من خلال الجمع بين الكلمات وفق قواعد إنتاج عالمي. ويمكن رؤية الفائدة التي يمكن أن يجنيها الذكاء الاصطناعي الناشئ من هذا المشروع. إن مبدأ النحو التوليدي هذا "قريب" من مبدأ الذكاء الاصطناعي. فالمقصود في كلتا الحالتين العثور على "برامج" أساسية، تختزل إلى بعض قواعد الإنتاج، وتسمح بـ"توليد" جميع أنواع الإنتاج الذهني.

1975: جيرى فودور والنظرية "الرمزية" للفكر

الفيلسوف جيرى فودور (من مواليد 1935)¹ قريب من تشومسكي. فقد قدم في عام 1975 في

¹ فيلسوف أمريكي، وأحد أبرز المنظرين في العلوم المعرفية. قام بصياغة النظرية الحاسوبية للفكر التي تعرف

كتاب لغة الفكر نموذجاً للفكر يستوحي على نطاق واسع من التشابه مع عمل الحاسوب. فالفكر بالنسبة إلى الدماغ ما تمثله البرمجية (البرنامج المعلوماتي) software بالنسبة للعتاد hardware. وسوف يكون "النموذج الرمزي للفكر" هذا خلال بضع سنوات نموذجاً قياسياً للعلوم المعرفية.

1975-1985: مناقشة فلسفة الفكر

إن طموحات الذكاء الصناعي الرامية إلى "تمذجة الفكر"، وابتكار "آلات ذكية" لا يمكن إلا أن تلتفت اهتمام فلاسفة الفكر. نشر هوبيرت دريفوس¹ منذ عام 1972 كتاب *الذكاء الاصطناعي. الأساطير والحدود* (1984)، الذي انتقد فيه طموحات الذكاء الاصطناعي. ورأى أن الآلة تنفذ فقط قواعد مجردة، في حين أن الفكر البشري يقوم على مشاريع ومقاصد.

أثير الجدل من جديد بدءاً من الثمانينيات، وعرض الفيلسوف جون سيرل² بدوره مجموعة من الحجج للبرهنة على أن الآلة لا تفكر لأنها تقتصر إلى إمكان الوصول للمعنى. من جانبه، يرى المفكر دونيت المدافع الوثائق عن الذكاء الصناعي أن الآلات يمكن أن تواجه في نهاية المطاف تحدي المعنى، الذي ليس في الأساس سوى مشكلة تقنية من جملة مشكلات أخرى. وهناك العديد

بالنظرية - الحاسوبية - الرمزية، التي تعتبر النظرية النموذجية في الفلسفة المعرفية في المدة 1970-1980 (المترجم).

¹ هوبيرت دريفوس من مواليد 15 أكتوبر 1929 في تير هوت بولاية إنديانا، هو أستاذ الفلسفة الأمريكية التي تمارس في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. يهتم بوجه خاص بالظاهراتية، والوجودية وفلسفة علم النفس، وكذا بالأدب والذكاء الاصطناعي (المترجم).

² أمريكي معاصر، متخصص في فلسفة اللغة وفلسفة الذهن. ولد سيرل في دنفر بولاية كولورادو عام 1932، ودرس الفلسفة في أوكسفورد. وفي عام 1959 صار أستاذاً لفلسفة اللغة بجامعة بيركلي. أسهم في إثراء نظرية أفعال اللغة أو أفعال الكلام التي أسسها جون أوستن في كتابه المشهور *كيف تُفعل الأشياء بالكلمات*، *Quand dire, c'est faire*، حيث يعد كتاب سيرل *أفعال اللغة* (1969) أحد أهم المصادر في نظرية الخطاب المعاصرة (المترجم).

تاريخ العلوم المعرفية

من المناقشات الأخرى التي شغلت رجال الفلسفة. يركز أحد النقاشات على العلاقات بين الدماغ والفكر: "mind/body problem". ويعبر عن الاختلاف بين أنصار الوظيفة مثل فودور، وأنصار المادية مثل باتريسيا تشيرشلاند¹، الذين يدافعون عن مفهوم عصبي منطقي للفكر، وأنصار الانبثاق² (جون سيرل)، وأنصار ثنائية العقل والجسد (جون توماس ناجل)، الخ. وسوف يؤدي كل سؤال من الأسئلة الفلسفية الكبرى إلى تطورات عديدة.

1975-1995: ظهور كوكبة "العلوم المعرفية"

حدثت بدءاً من عام 1975 لقاءات بين باحثين في الذكاء الاصطناعي، وعلماء نفس، ولسانيين، وبعض الفلاسفة. وبدأ مصطلح "العلوم المعرفية" يتبلور باعتباره اختصاصاً جديداً. نظرياً، فرض "نموذج معرفي" نفسه حول نموذج رمزي قال به جيرري فودور³ و"المعالجة الرمزية للمعلومات". وأما على المستوى المؤسسي، فقد تأسست مؤسسة ألفريد سلون دعماً حاسماً، وهي مؤسسة أمريكية خاصة قررت استثمار 20 مليون دولار أمريكي في هذا المجال الواعد، وتمويل بحوث في سائر أرجاء البلاد. وقامت أيضاً بتمويل إنشاء مجلة العلوم المعرفية، التي صدر العدد

¹ فيلسوفة كندية أمريكية (ولدت 16 في يوليو 1943) عملت في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو منذ 1984، وتعمل حالياً أستاذة في قسم الفلسفة في جامعة كاليفورنيا، كما عملت في معهد سالك للدراسات البيولوجية منذ عام 1989، وتشارك في مختبر العلوم العصبية الحاسوبية في المعهد نفسه، وحصلت على جائزة ماك آرثر في 1991 (المترجم).

² استُعمل تعبير الانبثاق في البيولوجيا أولاً، وذلك للإشارة إلى ظهور خصائص جديدة ليست غير متوقعة بالضرورة، وهي تتولد عن تجمع عناصر وسط مجموعة معينة. تعتبر خاصية الانبثاق تطبيقاً لمبدأ "عن الكل أعلى من مجموع الأجزاء". وبذلك، إن قدرة الدماغ في إنتاج تصورات شكلية ليست قدرة الأعصاب الفردية. إنها خاصية منبثقة ناتجة عن التفاعل بين مليارات الخلايا (المترجم).

³ ولد في عام 1935، وهو فيلسوف أمريكي، وأحد أبرز المنظرين في العلوم المعرفية. قام بصياغة النظرية الحاسوبية للفكر. التي تعرف بالنظرية - الحاسوبية - الرمزية التي تعتبر النظرية النموذجية في الفلسفة المعرفية في المدة 1970-1980 (المترجم).

الأول منها في عام 1977، وإنشاء جمعية علمية في عام 1979. ويطلب من الجمعية، نشر أول تقرير عن وضع العلوم المعرفية، أُعدَّ في عام 1978. وقد ظهر فيه لأول مرة الإشارة إلى العلوم الستة الشهيرة: الفلسفة، والذكاء الصناعي، وعلم النفس، واللسانيات، والعلوم العصبية، والأنثروبولوجيا. ظهرت العلوم المعرفية في فرنسا بعد مرور نحو عشر سنوات. وأدرك المركز الوطني للبحث العلمي CNRS أهمية التخصص الجديد، فنظم البرامج الأولى المتعددة الاختصاصات.

تعددت في بداية الثمانينيات الكتب التعليمية، وهي مؤلفات تمهيدية، ومبسطة. ففي عام 1985 نشر عالم النفس هوارد غاردنر¹ أول تاريخ للثورة المعرفية، الذي ترجم بعنوان علم جديد للعقل (الترجمة الفرنسية، دار بايو، 1993). بعد ذلك بعامين، نشرت مجلة لو دييا *Le Débat* في فرنسا ملفاً خاصاً حول الموضوع بعنوان "علم جديد للعقل"، في حين جرى في العام نفسه تنظيم مؤتمر سيريزي. وقد نشرت مساهمات المؤتمر ومجلة لو دييا في الكتاب الذي حرره د. أندلر، والذي حمل عنوان *مدخل إلى العلوم المعرفية* (دار غاليمار، 1992).

تم في بداية التسعينيات إنشاء معهد ليون للعلوم المعرفية، الذي أشرف على إدارته مارك جانرو. وقد مثل المعهد بصفته أول مركز من نوعه في فرنسا اعترافاً مؤسسياً بالمجال المعرفي في فرنسا.

1985: الاتصالية، نموذج منافس

بدأ الذكاء الصناعي التقليدي في الثمانينيات يفقد نفحة الطاقة، ولم تعد النتائج ترقى إلى

¹ هو عالم نفس أمريكي ولد في 11 يوليو 1943 في سكرانتون، بنسلفانيا بأمريكا وهو أستاذ المعرفة والتعليم في جامعة هارفارد في كلية الدراسات العليا. عرف بنظريته حول نظرية الذكاء المتعدد. حصل على جائزة ماك آرثر في عام 1981، وعلى جائزة جامعة لوييفيل عام 1990، وعام 1995. قدم نظريته لأول مرة في عام 1983 في كتاب بعنوان *أطر العقل*، واستمر في تطويرها لما يزيد على 20 عاماً بعد ذلك. كان اهتمامه بالذكاء منذ بداياته مدفوعاً بعدد من العوامل التي ذكرها في كتاب لاحق له صدر في عام 1999. حصل في عام 2011 على جائزة أمير أستورياس للعلوم الاجتماعية (المترجم).

تاريخ العلوم المعرفية

مستوى التوقعات. ولا جرم أنه كانت هناك إنجازات - النظم الخبيرة، لعبة الشطرنج، مبحث الإنسان الآلي - ولكن مجالات أخرى لم تعد فاعلة: الترجمة الآلية، وتعرُّف الأشكال، والتعلم. وطرح السؤال: هل يقوم الذكاء الصناعي على أسس أخرى غير أسس النموذج الرمزي؟ حدث تحول باتجاه النموذج الاتصالي، الذي بدا منافساً خطيراً. وليست فكرة الاتصالية جديدة. كانت تختمر في علم التحكم الآلي. فقد تصورت الاتصالية العمليات المعرفية على أنها نتيجة ناشئة عن وحدات صغيرة متصلة فيما بينها وتتفاعل بعضها مع بعض، من دون قيادة مركزية. إنها شبكة يفترض أنها تتسخ عمل الدماغ (مع عصبوناته المتصلة بعضها ببعض) أو قرية النمل.

بدأت النماذج الاتصالية في بداية الثمانينيات واعدة، ولكنها لم تكن إلا في مراحلها الأولى.

1990-2000: تأثير العلوم العصبية العميق

أطلق على التسعينيات اسم "عقد الدماغ". وأدى ازدهار تقنيات تصوير الدماغ الجديدة - السكانر، والتصوير بالرنين المغناطيسي (MRI)، والتصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني (PET) - إلى تقدم كبير في دراسة نشاط الدماغ. ولم تكتف العلوم العصبية بمجرد رسم خريطة الدماغ فكان هناك كلام على "علوم أعصاب معرفية" للإشارة إلى الهدف النهائي والمنهج: فهم العمليات العقلية.

كان الذكاء الاصطناعي قبل 20 عاماً "علماً رائداً" للعلوم المعرفية، وأصبحت العلوم العصبية الآن العمود الفقري للعلوم المعرفية. وبلغت كلمة "عصبي" المبهمة مع بداية الألفية الثالثة أوجهاً. فبعد أن شهدنا ولادة "الفلسفة العصبية" عام 1990، بدأنا نسمع كلاماً على علم اللاهوت العصبي، والأخلاقيات العصبية، وعلم الاقتصاد العصبي¹، والتسويق العصبي بصفته اختصاصاً مساعداً.

¹ انظر: ساشا - بورجوا جيروند، كيف يبدي الدماغ مصالحي. علم الاقتصاد العصبي. ترجمة أ. د. محمد أحمد طجو، كتاب العربية، 175، 2014 (المترجم).

2000-2010: عصر العلوم المعرفية الجديد

رأينا أن العلوم المعرفية انتشرت على مراحل عدة منذ أربعين عاماً، وبالتتابع حول اختصاصات مضيئة ونماذج مهيمنة. فقد قامت المعلوماتية في المدة 1960-1970 بدور العلم الرائد (نموذج الدماغ- الحاسوب). وقد شكل النموذج الرمزي لمعالجة المعلومات آنذاك النموذج المرجعي. واندفعت العلوم العصبية للنجاح منذ الثمانينيات. وأصبحت واحداً من أركان العلوم العصبية الرئيسة. وتطورت نماذج الشبكات العصبونية (الاتصالية، الذكاء الموزع *distribuée*، العصبونات الصورية *formels*)¹. وظهر في بداية الألفية الثالثة تصور جديد. ولم يعد هناك نموذج مُهيمن حقاً وحقيقة.

عواطف ولدونة دماغية

كانت العلوم العصبية حتى ذلك الوقت تركز على دراسة ظواهر "معرفية" - الإدراك، والذاكرة، واللغة، والوعي، الخ. والواقع أن العواطف اندفعت نحو النجاح منذ بعض الوقت. وقد ساهمت منشورات أنطونيو داماسيو²، وجوزيف لودو¹ وكثيرون غيرها في نشر هذه الفكرة

¹ توجد حالياً العديد من النماذج التي تهدف إلى تحقيق عدد من وظائف المخ البشري تحت عنوان "الشبكات العصبونية" والتي تهدف في المقام الأول إلى تقليد بعض بنى المخ البشري الأساسية. تاريخياً، تعتبر أصول هذا العلم متشعبة جداً. ففي عام 1943، قام العالمان ماك كالوتش وبيتس بدراسة مجموعة من العصبونات الصورية المترابطة، وبرهنا قدرتها على حساب توابع منطقية معينة. وفي عام 1949، بين هيب أهمية الوصل العصبي في عملية التعلم. وفي عام 1958، وصّف روزنبلات النموذج العملياتي الأول للشبكات العصبونية: البيرسبترون Perceptron. وفي عام 1982، برهن هوبفيلد التطابق بين الشبكات العصبونية ونظم فيزيائية معينة، مما سمح بوضع تشكيلات غنية لهذه الشبكات. وحديثاً، في عام 1985، سمحت العديد من النماذج الرياضية الحديثة بتجاوز إمكانيات البيرسبترون المحدودة لتطلق أساسيات علم الشبكات العصبونية المذهل (المترجم).

² كان لقاء داماسيو أستاذ علم الأعصاب في جامعة أيوا مع المريض أليوت حاسماً. فبعد عملية جراحية في الدماغ راح هذا المريض يتصرف بغرابة، ولم يعد بوسعه القيام بأي عمل أو أن يدير أية مهمة في وقت محدد. وقع بعد ذلك في عمليات مالية مريبة حطمته... قدم داماسيو فرضية مذهلة: الانفعالات ضرورية في اتخاذ قرار مناسب.

الجديدة: الذكاء، والذاكرة، وكل ما يصنف عادة في مجال الوظائف الفكرية العليا، يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع العواطف والانفعالات، ولا يمكن أن تعمل قشرة الدماغ عملاً صحيحاً من دون استعمال المناطق الدماغية الجوفية المسؤولة عن العواطف. وولد لاشعور معرفي يجمع كل العمليات الذهنية التي تفلت من الشعور. ويبدو الآن اللقاء بين فرويد والعلوم العصبية ممكناً. حتى إن البعض أخذ يحلم بتحليل نفسي عصبي، يجمع بين المدرستين المتنافستين في علم النفس المعاصر.

نتج التغيير الكبير الآخر عن اكتشاف "اللدونة الدماغية"، وهذا يعني قدرة الدماغ على إعادة التشكل وفقاً لأنشطة الفرد. إذا كان الدماغ يتشكل جزئياً بالتجربة، فإن المعرفي يصبح خاضعاً جزئياً للبيئة الاجتماعية، والثقافة، والتفاعلات بين الفرد وبيئته الاجتماعية. وهكذا بني جسر جديد بين مقاربتين في العلوم المعرفية كانتا حتى ذلك الوقت متعارضتين. المقاربة التي تضيف صفة ذاتوية (حيث تتعلق القدرات الذهنية ببنية الدماغ)، والمقاربة "البنائية"² (حيث يعتبر الاجتماعي

فالعقل والمعارف لا تكفي لذلك. ولهذا فإن أليوت الذي حرم من الانفعالات منذ الجرح الدماغى راح عرضة للخداع الدائم. روى داماسيو قصة أليوت ووسع نظريته في كتاب خطأ ديكارت *L'erreur de Descartes*، ذلك أن الفيلسوف الفرنسي اعتبر الانفعالات والعواطف بمنزلة المعطل للقرارات العقلانية. وعرف الكتاب رواجاً وطبع في 20 بلداً وكان من جملة آثاره أن فتح العلوم العصبية على حقل الانفعالات. وفي كتابه *The Feeling what Happens* (1999) الذي ترجم إلى العربية بعنوان *الشعور بما يحدث. نور الجسد والعاطفة في صنع الوعي* (ترجمة رفيف كامل غدار، الدار العربية للعلوم، 2010)، تابع داماسيو أعماله وطورها مازجاً البحث التجريبي الغزير إلى بناء نظرية حقيقية في الانفعالات والوعي. ومجدداً توجه عكس الأفكار السائدة: غالباً ما كانت النظرة إلى الوعي بمنزلة الذروة، قمة التنظيم العقلي. أما هو فقد اعتبره أقرب إلى الانفعالات والجسد منه إلى العقل وهذا ما اعتبره "الوعي- النواة" وهو برأيه أساس الذات، وهو يعكس كل ما يجري في الأعضاء. ولذلك لا وجود له إلا إذا كان أتياً من عضو حي مع دماغ قادر على تمثيل الجسد (المترجم).

¹ هو طبيب نفساني، أستاذ العلوم في جامعة نيويورك، ومدير مركز العلوم العصبية للخوف والقلق. وتركز أبحاثه على العلاقة بين الذاكرة والعاطفة، وخاصة آليات الخوف (المترجم).

² نظرية تعد كل موضوع للفكر مبنياً (المترجم).

المحفز الرئيسي للأنشطة الذهنية). ورأت النور علوم عصبية اجتماعية، وكذا تحليل نفسي عصبي.

إن العلوم العصبية تتحول الآن تحولاً عميقاً بانفتاحها على العواطف والانفعالات من جهة وعلى البيئة من جهة أخرى.

مقاربات متنوعة جداً

تشمل العلوم المعرفية الآن مجالاً واسعاً جداً حيث تتعايش مقاربات متنوعة جداً. وقد تنوعت النماذج النظرية منذ بداية الألفية الثالثة¹: إنها نماذج "المعرفة المجسدة" incarnée (مصطلح استحدثه ف. فاريل)، و"المعرفة في الموقف أو في السياق" ² située التي تتمركز حول البيئة أو "علم النفس التطوري" التي اندفعت نحو النجاح منذ بدايات الألفية الثالثة. وقد تجددت البحوث أيضاً، من دراسة الشيخوخة المعرفية إلى مبحث الإنسان الآلي مروراً بدراسة الآليات الذهنية للاستعارة (لاكوف).

وصلت العلوم المعرفية في نهاية الأمر إلى مرحلة ظاهرية التناقض في تاريخها. لقد اجتاحت بطريقة أو بأخرى كل مجالات علم النفس، وتفوقت حتى على الحقول المرتبطة بها. ولكن حدث لها في الوقت نفسه ما يحدث لكل إمبراطورية مهيمنة. فقد تشتت بعد غزوها الفضاء المتاح، وفقدت حماسها الأولي الفخور. وهذا هو بطريقة ما ثمن النجاح.

¹ انظر: J.-F. Dortier (dir.), *Le Cerveau et la Pensée, le nouvel âge des sciences cognitives*, éd. Sciences humaines, 2011.

² يعتبر منظرو المعرفة في الموقف أو في السياق أن المعرفة ليست بفعل أو شيء أو اسم، كما أنها ليست كياناً يمكن تحصيله وتجميعه كما يدعي منظرو المعرفة بل هي عمل تبادلي بين الفرد وبيئته. لا يمكن فصل هذا التفاعل التبادلي عن سياقه أو عن ثقافته وتكوينه التاريخي. لذلك، ليست المعرفة الوصول إلى حقيقة معينة، بل هي موقف يظهر بسبب تفاعل الفرد مع البيئة في لحظة ما (المترجم).

بحوث في الحضارة العربية الإسلامية

دور الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

قراءة جديدة

إيفلين شفيق جبارة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق - سورية

تتناول الدراسة لمحةً تاريخيةً عن أثر الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية؛ حيث تطرقت إلى الآتي: حركة الوراقاة، ونشأتها، وتطورها، والوراقون في الحضارة الإسلامية، وتاريخ حركة الترجمة، وتطورها.

وقد أشارت النتائج إلى الآتي: ريادة حركة الترجمة والوراقاة، وأثرها في تحقيق التطور العلمي في الحضارة العربية الإسلامية بإطلاع المسلمين على علوم شتى، كانوا في حاجة إليها، مثل: الرياضيات، والطب.

المقدمة:

إن من أعظم ما عُني به الإنسان الكتابة والتوثيق؛ فقد تركت الأمم والحضارات السابقة مخطوطات لحفظ ذاكرتها وحفظ تراثها العظيم؛ لنقله إلى الأجيال القادمة.

من هنا، تعدّ حركة الوراقاة جزءاً مهماً من دراسة التاريخ الفكري للحضارة الإنسانية؛ لأنّ تاريخها يبدأ مع بداية هذه الحضارة، ويسير معها. ولا بدّ من أن نشير إلى أنّ حياة العلماء والمفكرين، عبر التاريخ، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحركة الوراقاة.

إن حركة الترجمة كانت ملازمةً لتاريخ الإنسان، وإن اختلاف اللغات أسهم إسهاماً كبيراً في تطوّر الحضارة الإنسانية؛ إذ جعل ظاهرة الترجمة وسيلة أساسية لتحقيق متطلبات التواصل

الاجتماعي والتقدم العلمي.

هذا ما حدا الباحثة أن نتناول في هذه الدراسة الوراقة، وأثرها في تطوّر الحضارة العربيّة الإسلاميّة وتقدّمها، وأثر التّرجمة في إغناء هذه الحضارة.

أهمية الدّراسة:

تتبع أهمية الدّراسة من كونها تتناول حركة الوراقة، ومراحلها، وأثرها في تطوّر الحضارة العربيّة، كما تتبع أهميتها من كونها تتناول أهمية التّرجمة في تطوّر الحضارة العربيّة الإسلاميّة في تحقيق التّقدم العلميّ، إضافةً إلى أهميتها في إطلاع المسلمين على مختلف العلوم، خاصّة تلك التي كانوا في حاجة إليها، مثل: الرّياضيات، والطّب، وكلّها أدت إلى إغناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

أهداف الدّراسة:

تهدف الدّراسة إلى تعرّف الآتي:

1. نشأة حركة الوراقة، وتطوّرها.
2. مراحل انتقال الورق إلى الحضارة الإسلاميّة.
3. نشأة حركة التّرجمة، وتطوّرها ومراحلها.
4. أثر حركة الوراقة في إغناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة.
5. أثر التّرجمة في تقدّم الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

مشكلة الدّراسة:

لابد من أن نعترف أن حركة الوراقة وسيلة اتّصال ثقافيّة، ونقطة تحوّل اجتماعيّة، لكنها لم تحظ بالدراسة والاهتمام اللازمين قبل الباحثين. كما لم تلق التّرجمة اهتماما كبيرا" من حيث دورها في إغناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتقدّم الأمم وإسهامها في ظهور الاكتشافات والابتكارات.

..... دور الوراقّة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

ولذلك جاءت هذه الدراسة لتتبع تاريخ حركة الوراقّة، والتطوّر التاريخي لحركة الترجمة، والآثار المترتبة على تطوّرهما.

فروض الدراسة:

- تفترض الدراسة أنّ تطوّر الحضارة الإسلاميّة وتقدّمها، مرّجعه إلى أسباب عدّة، منها:
- إنّ حركة الوراقّة أسهمت في تقدّم الحضارة الإسلاميّة، وإغنائها بعلوم واختراعات كثيرة.
- إنّ حركة الترجمة أدّت إلى تطوّر علمي كبير في الحضارة الإسلاميّة.
- إنّ حركة الترجمة أتاحت للعلماء إبداع الابتكارات.
- اتّساع النّفاعة الإسلاميّة إثر مدخلات ثقافات الأمم الأخرى.
- تطوّر الحضارة الإسلاميّة تطوراً راقياً من خلال تفاعل الفكر القديم.

الوراقّة وأثرها في إغناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة:

تعدّ حركة الوراقّة اكتشافاً جوهرياً ولاسيما في سياق الحركة النّفافيّة، والعلميّة، وازدهارها، وبوجه خاص للكتاب، وانتشاره، ونشر المؤلّفات، وقد وصلت إلى أرجاء القسم الشّرقيّ من الإمبراطوريّة، منذ عصر الرّشيد والمأمون، وصولاً إلى أوربا.

نشأة الورق في الحضارة العربيّة:

إنّ بناء المعرفة وزيادة قدرة الإنسان على فهم العالم المحيط به لم يكن مصادفة؛ إذ احتاج ذلك منذ النّشأة الأولى إلى عمل دؤوب؛ لكشف الحقائق العلميّة، والعوامل المؤثرة فيها.

إنّ للعلم تاريخاً طويلاً، بدأ ببدء تفكير الإنسان، وعمله، وأسهم فيه البشر جميعاً، كلّ منهم بنصيب. فتاريخ العلم هو تاريخ الحضارة الإنسانيّة الذي يسجّل حركتها، ويتّبع تطوّراتها، ويعرض مراحل نموّها، وازدهارها، وضعفها، وانبعاثها من جديد، وتاريخ الورق وتطوّره شاهد على العصور والحضارات كلّها، فهو الطّريق الموصل إلى نتائج العلوم وجهود العلماء.

التعريب..... العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

ومن المعروف أنّ نشأة صناعة الورق واستعماله للكتابة يعتبر حدثاً مهماً في تاريخ الحضارة الإنسانية؛ إذ استطاع الإنسان بوساطته نشر العلم، والمعرفة على نطاق واسع، ببسرٍ ما كان من قبل، فتوافرت المعلومات عن مختلف جوانب الحياة في الأماكن كلّها.¹

بدأت الكتابة قبل اختراع الورق، وكان هذا في سهول بلاد الرافدين، حيث عُثِرَ على الطين في هذه المنطقة، واستُخدِمَ مادةً للكتابة، وشكّلت علامات على هيئة إسفين من هذا الطين. وعُرفَ هذا النمط من الكتابة باسم المسمارية. وفي نحو عام 3000 قبل الميلاد، اكتشف البردي في مصر، وهو نباتات مائية كانت تنمو بالقرب من النهر.²

ويرجع الفضل في اختراع مادة الورق إلى الصينيين الذين أنتجوه في القرن الأول الميلاديّ مستخدمين سيقان نبات الخيزران، والخرق البالية، وشباك الصيّد في صناعته.³

وكانت صناعة الورق تبدأ بغسل المواد السابقة جيداً ثم طحنها في مطاحن خاصّة حتّى تتحوّل إلى عجينة طرية ثمّ يُضاف إليها الماء حتّى تصبح شبيهة بوسائل الصابون، وتجري عليها عمليات تصفية ثمّ تؤخذ منها الألياف المتناسكة بعناية؛ لتنتشر فوق ألواح مسطّحة ثمّ تُجفّف بحرارة الشّمس. بعد ذلك، تُصقّل صحائف الورق بخليط من النّشا والدّقيق لتصبح جاهزة للاستعمال.⁴

أشار الثّعالبّي، في كتابه "لطائف المعارف" إلى أنّ العرب تعلّموا صناعة الورق من الأسرى الصّينيين؛ حيث يروى أنّ الأسرى الصّينيين؛ الذين وقعوا في قبضة القائد العربيّ زياد بن صالح، قد عملوا على إدخال صناعة الورق إلى سمرقند عام 751 ميلادية.

¹ عليان، رحي: صناعة الورق في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة رسالة المكتبة، (مج 16، ع 1)، 1981، ص 34.

² CannyIdeas, Padmanabha Shenoy, A Study on History of Paper and possible Paper Free World Volume 6, Issue 1, 2016, International Journal of Management

³ Richard W, Bulliet, Paper before Print: The History and Impact of Paper in the, Islamic World, Johns Hopkins University: V 44, No 1, January 2003, pp. 160.

⁴ FSTC Limited, The Beginning of the Paper Industr.

وبين أيضاً الثعالبي، أن ورق سمرقند كان من النوع الجيد، وأن صناعة الورق قد حلّت محل ورق البردي، وأن الصناعة أخذت تنتشر على نطاق واسع، فأصبح الورق مادة للتصدير بعد أن تمتع بشهرة عالمية.¹

انتقال الورق إلى الحضارة الإسلامية

نقل المسلمون صناعة الورق من الصين سنة 134 هـ عندما فتحوا سمرقند في أثناء الحملة التي بعث بها زياد بن صالح وذلك في أواسط القرن الثاني للهجرة، وظلوا فيها مدةً من الزمن.² وقد حاول الصينيون تحرير أنفسهم لكنّ العرب المسلمين تمكّنوا من دحر تمردهم، وأسر عددٍ منهم ممّن كانوا يعرفون صناعة الورق؛ وقد علّموا العرب المسلمين صناعتها.³

لكنّ هذه الصناعة لم ترتق إلى المستوى المنشود ولم تصل إلى حالة التطور الحقيقي إلا في عهد هارون الرشيد (178 هـ)؛ حيث أسّس الفضل بن يحيى البرمكي أول مصنع للورق في بغداد، ومنها انتقل إلى بقية أنحاء العالم. وقد أمر الرشيد ألا يكتب إلا على الورق (الكاغد). تبعاً لهذا الاهتمام تحسّنت الصناعة كثيراً فقد أنتجت المصانع نوعاً ممتازاً من الورق.⁴

ولقد هيأ العرب بإنشائهم مصانع الورق الظروف الملائمة لتعميم استعماله؛ فأصدر الجعفر ابن يحيى البرمكي، وزير هارون الرشيد، أمراً بجمع الدواوين الحكومية باستعمال الورق بدلاً من القراطيس البرديّة والرّقوق.

ومع انتهاء القرن العاشر الميلادي، كان الورق قد انتشر في العالم الإسلامي كله، وحلّ محلّ القراطيس البرديّة والرّقوق.

أمّا أقدم المخطوطات العربيّة المكتوبة، التي لا تزال محفوظة حتّى الآن فهي مخطوط "غريب

¹ الثعالبي. أبو منصور: لطائف المعارف، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1867.

² كرهمان. ادولف: الكتابة العربية وادواتها، فيينا: (د، ن)، 1967، ص 86.

³ عبيد. هبة: صناعة الورق والطباعة، عمان: دار البازوري، 2014، ص 15.

⁴ مظهر. جلال: حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي، القاهرة: مكتبة الخانجي (د، ت)، ص >383

الحديث" الذي ألفه أبو عبيد؛ القاسم بن سلام الهروي في القرن التاسع الميلادي وهي محفوظة في مكتبة جامعة ليدن.¹

لقد أدى هذا الأمر إلى ثورة في الإنتاج الفكري والعلمي في جميع أصناف العلوم. زد على ذلك، أن انتشار الورق ساعد بقدر كبير على ظهور طائفة من الوراقين كان لهم أثرٌ أساسي، لا يمكن تجاهله، في نشر المعرفة والثقافة الإسلامية، لقد كانت دكاكينهم مراكز ثقافية ومنتديات، وملتقى للأدباء والمفكرين.²

ولا شك في أن لاختراع الورق دوراً كبيراً في صناعة الكتب، وقد أشار إلى هذا رشيد الجميلي.³ كما أن هذه الصناعة وعدته ضرورية لاكتساب المعارف، والتقدم الثقافي. فالنشاط الفكري، الذي لا غنى عنه لبلوغ الحقيقة، في حاجة ماسة إلى سبيل يحفظ المعرفة على مرّ الزمن.⁴

ثم انتقلت صناعة الورق إلى بلاد فارس، وسورية، وشمال إفريقيا وإسبانيا أخيراً في القرن العاشر حتى وصلت إلى فرنسا، وصقلية، وإيطاليا ثم إلى الغرب كلّه.⁵

وبعد مدة تبين أن العرب عملوا على تطوير صناعة الورق عبر مسيرة طويلة استمرت نحو سبعة قرون تقريباً؛ منذ آخر تطوير للأحرف الأبجدية، ورأينا أن الأسلوب الذي اتبعه العرب في صناعة الورق استمر حتى يومنا وهذا يدل على فضل العرب على الحضارة الإنسانية.

¹ مغنية. أحمد: تاريخ العرب القديم، لبنان: دار الصفاة، 1994.

² عواد. كوركيس: الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ع 23، ص 8.

³ الجميلي. رشيد: الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، منشورات جامعة ليبيا، 1982، ص 195-196.

⁴ ريسلر. جاك: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة 1960، ص 185.

⁵ Cotter, Holland. SHELF LIFE; The Story of Islam's Gift of Paper to the West, (DEC, 29, 2001

بداية حركة الوراقاة:

أما الوراقون، فهم جنود مجهولون في الحضارة العربية الإسلامية؛ فقد أغفل المؤرخون أخبارهم، ولم يهتموا بهم. أخبارهم نادرة في بطون الكتب، ومبعثرة، ولم يُعَرمَ الاهتمام الواضح سوى اثنين كانا وراقين، هما: ابن النديم، وياقوت الحموي؛ فقد تعرّض ابن النديم، في كتابه الفهرست، لسيرة عدد من الوراقين.¹

لقد كان الوراقون، آنذاك، هم الناشرّون للكتب الذين يقومون بنسخها، وتجليدها، وتصحيحها، وبيعها، وعرضها في الواجهات والأتجار بها.

وقد اشتغل بالوراقاة علماء أجلاء، كالجاحظ؛ وأبي حيّان التّوحيدّي؛ الذي يعدّ نموذجاً رائعاً للعلماء الوراقين في عصره. ثمّ أصبحت الوراقاة مهنة راقية لكثير من الأدباء، والمفكرين، والعلماء، وانتشرت دكاكين الوراقين في طول البلاد وعرضها. وأصبح للمؤلفين المشهورين وراقون يختصّون بهم. وأصبحت دكاكينهم أماكن ثقافية يرتادها الأدباء، وتُعقد فيها المناظرات، وتدور المناقشات.²

وقد لخصّ ابن خلدون أعمال الوراقين، وواجباتهم التي كانت كثيرة ومتنوعة؛ بقوله: "... فكثرَت النّاليف العلميّة، والدّواوين، وحرص النّاس على تناقلها في الآفاق والأمصاار... وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ، والنّصحيح، والتّجليد، وسائر الأمور الكتبيّة والدّواوين."³ وأدّى الوراقون دوراً رئيسياً في تطوير مقتنيات المكتبة العربية الإسلامية من الكتب خلال عمليّة النّسخ بوصفها أهمّ طرائق الحصول على الكتب في تلك الحقبة.

¹ الفهرست، ابن النديم، ص 337.

² حمادة. محمد ماهر: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرنا، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982، ص 73-72.

³ ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، (د، ت)، ص 368-367.

فقد كان لدى أغلب المكتبات العربية الإسلامية ورّاقون يتناوبون النّسخ؛ ففي مكتبة بني عامر في طرابلس الشّام كان هناك مئة وثمانون ورّاقاً يتناوبون العمل فيها، ليلَ نهارٍ. كما ألحق بأغلب المكتبات العربيّة الإسلاميّة غرفة أو غرف أعدت لجلوس النّساخ وممارسة أعمالهم. كما زُوّدت تلك الغرف بمستلزمات النّسخ من أثاث، وتجهيزات، ومحابر، وأقلام، وورق.¹

تطوّر حركة الوراقة:

يمكن عدّ العصر العباسيّ العصرَ الذهبيّ لحركة الورّاقين؛ لكثرة عددهم، وانتشار حوانيتهم، وأسواقهم. فقد كَثُرَ العلماء، والمصنّفون، والشّعراء.

وازدهرت حركة التّأليف والترجمة؛ لسهولة الحصول على الصّحف، بعد أن انتقلت صناعة الورق من سمرقند إلى بغداد، زمن الرّشيد، وما رافقها من التّدني في أثمان القراطيس من البرديّ، وما نجم عنها من نشوء "صناعة الوراقة" واتّساعها، بما توقّر لها من المواد والمؤن. والوراقة - حسب ابن خلدون - هي: "عملية الانتساخ، والنّصحیح، والنّجليد، وسائر الأمور الكتيبة والدّواوين".²

مع انتشار مجالس الإملاء، ونموّ حرفة الوراقة، وإقبال النّاس على العلوم عمّ النّقل والنّسخ إثر ذلك، وكثرت دكاكين الورّاقين كثرة بالغة؛ ووصلت في بغداد وحدها، في القرن الثّالث الهجريّ، إلى أكثر من مئة حانوت للوراقة، كان أصحابها ينسخون الكتب، ويصحّحونها، ويجلّدونها، ويبيعونها للنّاس فتننتشر في جميع الأقطار. ذكر اليعقوبيّ ت 278هـ أنّ في عصره أكثر من مئة ورّاق في بغداد، بينهم علماء عظام. ولم تكن هذه الحوانيت مجرد أمكنة للنّسخ والنّجليد بل كانت ملاذاً لطلّاب العلم؛ يطالعون فيها الكتب، كما كانت مجالس للشّعراء، والعلماء،

¹ مرجع سابق، حمادة، محمد ماهر، ص 175.

² مرجع سابق، بن خلدون، ص 334-335.

وملتقى للطبقات المثقفة.¹

وقد وصفت حوانيت الوراقين، بأنها "من أبرز الأماكن التي أرسدت دعائم الحركة الثقافية؛ فقد كانت مقصد طلاب العلم، والمعرفة. كانت هذه الحوانيت منبعاً غزيراً للثقافة، ومجالاً واسعاً للمناظرات الأدبية وللحوار العلمي. يؤمها المثقفون والأدباء، ويتخذونها منتدى لهم، وملتقى لاجتماعاتهم، ومكاناً لعرض أبحاثهم، وإقامة مناظراتهم ثم تحولت هذه الحوانيت لمقصد لكل من يبغى علماً أو يهوى أدباً حتى إنهم ليدركوا أن الجاحظ كان يبيت فيها للبحث والنظر".² وأشار ابن النديم إلى: أنها كانت مركزاً للنشاط العقلي، ومستودعاً لما أنتجته الثقافة الإسلامية في مختلف صنوف المعرفة، ومصدراً من مصادر انتشارها.³

روى ابن الأنباري "أن المأمون أمر الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، وما سُمع من العرب، فأمر أن تُفرد له حجرة من حجر الدار، ووكل بها جوارٍ وخدمٌ؛ للقيام بما يحتاج إليه، وصيّر له الوراقين، وألزمه الأمانة والمنفقين، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف الحدود. وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، فبعد أن فرغ من ذلك، خرج إلى الناس".⁴

لقد رأينا صناعة الوراقاة تنتشر في الأمصار الإسلامية، شرقاً وغرباً، وذكرت المصادر أن القاضي أبا مطرف الأندلسي؛ الذي جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل عصره في الأندلس، كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً.⁵

¹ ياقوت الحموي. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993، ج 4، ص 278.

² العمري. أحمد جمال: حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية، كتاب البلدان، تحقيق دي غوية، ليدن، إبريل، 1892م، ص 16.

³ مرجع سابق، ابن النديم، 199.

⁴ ابن الأنباري. عبد الرحمن بن محمد الأنباري أبو البركات كمال الدين: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم بيروت: دار الفكر العربي؛ 1998:127.

⁵ أحمد أمين. ظهر الإسلام" بيروت: دار الكتاب العربي، ط 10، 1969، ص 221-222.

ولم تكن المكتبات وحدها متاحة للقراء، والكتّاب، وطلّاب العلم، بل كانت دكاكين الورّاقين، هي الأخرى تفتح أبوابها لهم. حيث حدّث أبو هفان، قال: لم أر قطّ ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ؛ فإنّه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته، كائناً ما كان، حتّى إنّه كان يكتري دكاكين الورّاقين، ويبيت فيها للنظر".¹

لقد كانت سوق الورّاقين مقصد كلّ راغب في نفائس الكتب، ونوادير الأخبار. حتى إنّ محمد النّوبختي يتهم أبا الفرج الأصفهاني؛ صاحب الأغاني، بأنّه أكذب النّاس؛ إذ "كان يدخل سوق الورّاقين، وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري كثيراً من الصّحف ويحملها إلى بيته ثمّ تكون كلّ رواياته منها".²

وكان المتنبّي يُكثّر من زيارة سوق الورّاقين؛ لمطالعة أفضل ما فيها من المؤلّفات. وفي "تاريخ بغداد" رواية طريفة عن نكاه المتنبّي، وشدّة حفظه، رواها ورّاق، كان يجلس إليه، قائلاً: "ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان "المتنبّي"؛ كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي، فيه نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ينظر فيه طويلاً، فقال الرّجل: يا هذا! أريد بيعه، وقد قطعنتي عن ذلك؛ فإن كنت تريد حفظه من هذه المدّة، فبعيد. فقال: إن كنت حفظته، فما لي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب. قال الورّاق: فأخذت الدّفتر من يده، فأقبل يتلوّه إلى آخره ثمّ استلبه، فجعله في كمّه، وقام. فعلق به صاحبه، وطالبه بالثّمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل، قد وهبته لي، فمنعناه منه. وقلنا له: أنت شرّطت على نفسك هذا للغلام، فاتركه عليه".³

وإنّ الفوائد التي تُجتنى من ارتياد سوق الورّاق، دفعت المهلّب إلى أن يقول لبنيه: يا بنيّ لا

¹ مرجع سابق. ياقوت الحموي، ج 6، ص 56.

² الخطيب البغدادي. أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، بيروت:

دار الكتب العلميّة، 1996م، ج 11، ص 399.

³ مرجع سابق، الخطيب البغدادي، ج 4، ص 103.

..... دور الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

يقعدنّ أحدَ منكم في السّوق، فإن كنتم لأبدَ فاعلين، فالى زراد أو سراج أو وراق.¹

لقد استفادت أوروبا من صناعة الورق، كما أشار إلى ذلك الإدريسيّ سنة 115؛ فعندما عرف الأوربيون الورق عن طريق العرب، أطلقوا عليه اسم (الصّحائف الدّمشقيّة)؛ لأنّ دمشق كانت سوقاً رئيساً لتجارة الورق في ذلك العصر، وكانت في صقلية وإسبانيا أول المصانع التي أقامها العرب لصناعة الورق، وهذا ما أشار إليه إبراهيم زعرور، في كتابه المؤتمرات الحضارية العربية الإسلامية: إذ قال من صقلية انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا، ومن إسبانيا إلى غرب أوروبا. ويدل على ذلك المصطلحات العربيّة المتعلّقة بالورق، وصناعاته، التي ما زال بعضها مستخدماً بلفظه العربيّ في اللّغات الأوربيّة.

ولم يكتف الغرب بهذا بل نقلوا عن العرب صناعة الخزف التي انتشرت في إسبانيا، وما زالت المتاحف الأوربيّة تحوي كثيراً من الأواني الخزفيّة التي صنعت تقليداً لأواني عرب الأندلس. يُستدل على هذا التقليد ممّا عليها من كتابات عربيّة محرّفة.²

وخلاصة القول: إنّ حركة الوراقين في الحضارة العربيّة الإسلاميّة مرّت بثلاث مراحل رئيسة، هي:

- المرحلة الأولى: تشمل العصر الراشدي، والأمويّ. وهي مرحلة الانطلاقة للحركة. فيها تديون القرآن الكريم وبعض الكتب، ولاسيما في الموضوعات الدّينية.
- المرحلة الثّانية: هي مرحلة النّطور والازدهار. تشمل المدة ما بين القرن الثّاني وبداية القرن السّابع للهجرة. وتعدّ العصر الذّهبيّ للحضارة العربيّة الإسلاميّة ولاسيما لحركة الوراقين؛ إذ انتشرت صناعة الورق وازدهرت حركة التّأليف، والتّدوين، والترجمة. وأسست المدارس، وامتألت الدّيار الإسلاميّة بالعلماء.

¹ ابن قتيبة. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1925، ص 129.

² زيد محمد الرماني، الحضارة الإسلامية والمنقول الثقافي.

- **المرحلة الثالثة:** بدأت مع القرن السابع للهجرة؛ عندما تعرّضت الحضارة العربيّة الإسلاميّة نتيجة عوامل داخلية وخارجية عدّة، للجمود والدّخول في عصور الظلّمة. إذ يمكن القول: إنّ حركة الوراقين قد توقّفت بل انتهت عندما دخلت الطباعة إلى البلاد العربيّة والإسلاميّة.

بدا لنا، ممّا سبق، الدور المهم لحركة الوراثة في تقدّم الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتطوّرها؛ إذ كانت مستودعاً لما أنتجته الثقافة الإسلاميّة في مختلف صنوف المعرفة، ومصدراً من مصادر انتشارها، وأسهمت في إنتاج المخطوط العربيّ، ونشره، وتسويقه داخل البلاد الإسلاميّة وخارجها. لعلّ أبرز نتائج هذه الحركة، ظهور المكتبات بأنواعها المختلفة، وانتشارها في الحضارة العربيّة الإسلاميّة التي يمكن حصرها في الأنواع الآتية: مكتبات المساجد والجماع، والمكتبات الخاصّة، ومكتبات الخلفاء، والمكتبات الأكاديميّة، والمكتبات العامّة.

دور التّرجمة في إغناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة:

شغلت التّرجمة فكر كثير من الباحثين والدّارسين؛ لما لها من مكانة؛ لأنّها احتكاك بالثقافات المختلفة. هذا المفهوم للتّرجمة أدركه العرب والمسلمون في عصورهم المختلفة. وسعى له المسلمون الأوائل؛ لتحقيق ما عند الأمم الأخرى من علوم، ومعارف بغية تحقيق حضارة إسلاميّة قائمة على أسس علميّة وفكريّة.

كانت التّرجمة ملازمة لتاريخ الإنسان؛ لأنّ تعدّد الشّعوب، واختلاف اللّغات نتيجة المناخ، والبيئة، والغذاء، والتّناسل، أسهم في تطوّر الحضارة الإنسانيّة، وجعلّ ظاهرة التّرجمة الأداة الوحيدة لسدّ حاجة التّواصل بين البشر في أنواع التّبادل كافّة.

ولقد عرف الإنسان المتحضّر فضل التّرجمة منذ زمان بعيد؛ فهي جسر تعبر عليه ثقافة أيّ أمة إلى غيرها من الأمم الأخرى، وتشبه الترجمة عكاز التّقدّم والنّهضة في كلّ بلد تخلف عن ركب الحضارة لسبب أو لآخر، وهي رمز حضارة العصر وطابعها الذي تمثّله كلّ أمة ناهضة؛ فقد ازداد هذا التّواصل ازدياداً كبيراً، خاصّة في العصر الحاضر، بعد التّرجمات الحديثة العلميّة،

..... دور الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

والسياسية، والصناعية، والأدبية التي تنطلق الآن قوية وعارمة مع صدور الجرائد والمجلات والقصص الرائجة المترجمة.¹

عرف العرب الترجمة قديماً؛ إلى هذا أشار الدكتور عبد السلام كفاقي، في كتابه "في الأدب المقارن" فقال "إنّ العرب كانوا يرتحلون للتجارة، صيفاً وشتاءً، فينأثرون بجيرانهم في مختلف نواحي الحياة. فعرفوا بلاد الفرس، وانتقلت إليهم ألوان من ثقافتهم، وانتقلت بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، وقد ظهرت في شعر كبار الشعراء؛ كان الأعشى من أشهر من استخدم في شعره كلمات فارسية، كذلك عرف البعض جيرانهم البيزنطيين".

والمعروف أن العرب احتكوا منذ جاهليتهم بالشعوب الثلاثة المحيطة بهم؛ الروم في الشمال، والفرس في الشرق، والأحباش في الجنوب. ويصعب حقيقة قيام مثل هذه الصلات الأدبية، والاقتصادية دون الترجمة على أنها كانت في مراحلها البدائية، آنذاك، وفي زمن الدولة الأموية تُرجمت الدواوين.²

تطوّر حركة الترجمة

هناك دوافع أساسية دفعت حركة الترجمة إلى الظهور في العصر الأموي، منها: اهتمام الخلفاء بترجمة كتب الطب، والتنجيم. وظهور الفرق الإسلامية، ومذاهبها، وكان لهذا السبب أثر كبير في توسع الثقافة في البلاد وإقبال أهل الدّمة على الدّخول في الدين الإسلامي..

ومع توسع الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات التي قام بها العرب، ظهرت الحاجة ماسةً إلى علوم لم تكن موجودة، مثل: العلوم الرياضية والطب وغير ذلك من العلوم. وبدا اهتمام الخلفاء بالنقل والترجمة، فعقدوا المجالس والمناظرات. واتّصل العرب بأمم مختلفة واطّلعوا على ثقافات

¹ العيس. سالم: الترجمة في خدمة الثقافة الجماهيرية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب؛ 1999م، ص 13.

² أبو الوبي. ممدوح: في تاريخ الترجمة العربية، مجلة الموقف الادبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ع 360 نيسان

وعلوم جديدة.

بدأت حركة التّرجمة في العصر الأمويّ، ونشطت في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد حين جعلوا اللّغة العربيّة هي اللّغة الرّسمية في دواوين الدّولة ومراسلاتها. فأصبحت شائعة في دار السّلام، وحدها؛ لأنّها لغة الفاتح، ولغة الدّين.¹

ومن بين هذه الأخبار أنّ خالد بن يزيد قد صرف اهتمامه إلى ترجمة الكتب الطّبيّة، وعلم النّجوم، والكيمياء معتمداً على بعض العلماء اليونانيين الذين كانوا في مصر.²

ويذكر ابن النديم أنّ " خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان. فقد كان فاضلاً في نفسه، وله همّة ومحبة للعلوم. خطر بباله الصّناعة، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة ممّن كان ينزل مدينة مصر وقد تصفّح بالعربيّة، وأمرهم بنقل الكتب في الصّناعة من اللّسان اليونانيّ، والقبطيّ إلى العربيّ. هذا أوّل نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة ثمّ نُقِلَ الدّيوان وكان باللّغة الفارسيّة...".³

يتبيّن من هذا أنّ حركة التّرجمة لم تتجاوز كتب الصّناعة؛ حمل خالداً على ذلك دوافع نفسيّة، ورغبات شخصية. وقد نقل ابن النديم أنّه "قيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصّناعة! فقال خالد: ما أطلب بذاك إلّا أنّ أغني أصحابي وإخواني، وإني طمعت في الخلافة فاخترلت دوني؛ فلم أجد منها عوضاً إلّا أن أبلغ آخر هذه الصّناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب السّلطان رغبةً أو رهبةً".⁴ وربما يكون السّبب في ذلك أنّ خالداً رأى جدّه معاوية قد اتّخذ من ابن أتال النصرانيّ طبيباً؛ فأراد أن يتصلّ مثله برجال الطّب، والفلسفة والكيمياء...⁵

¹ بدر الدين. عبد الرحمن، مجلة التراث العربي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، مج 25، ع 98، (حزيران، 2005)، ص 246.

² مرجع سابق، ابن النديم، ص 419.

³ مرجع سابق، ص 338.

⁴ مرجع سابق، ص 497.

⁵ الصعيدي. عبد المتعال: الوسيط في تاريخ الفلسفة، مصر: مكتبة الجامعة الأزهرية، (د، ت)، ص 9.

..... دور الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

وأما عمر بن عبد العزيز، فقد تُرجمَ في عهده كتب الطب، وقد تناولتْ التَّرجمة في العصر الأمويّ، جانبيين هما:

- ترجمة العلوم الطَّبَّيَّة، مثل: الطب، والكيمياء دون أن تتجاوزها إلى العلوم العقلية، مثل: المنطق، وما وراء الطَّبَّيَّة؛ لاحتجتهم إلى هذه العلوم مع عدم معارضتها للإسلام في الجملة.
- حركة تعريب الدَّواوين.¹

نُنبه هنا إلى أنّ الاهتمام في هذه المرحلة لم يكن اهتماماً بالفلسفة على أنّها علمٌ، وبما نُقلَ عن الأطباء وغيرهم. فذلك معمول به بوصفه صناعة من الصناعات. وهذا لا يطعن في قولنا: إنّ العلم الشائع في هذا العصر هو العلم الشرعيّ الدينيّ.²

أما المترجمون في القرن الأوّل من خلافة العباسيين فقد ترجموا من الإغريقيّة إلى السريانيّة، ومنها إلى العربيّة، ومن المعروف أنّ التَّرجمة من اللّغات المختلفة قد مرّت بمرحلتين، هما:

- **المرحلة الأولى:** تشمل المدة الحاكمة من قبل الخلفاء الراشدين الأربعة؛ حيث تبدأ مع بداية العصر الأمويّ باهتمام الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بالتَّرجمة اهتماماً كبيراً، فكان أوّل من يوليها ذلك. وتنتهي في أوّل خلافة المأمون، ولقد كان المترجمون يتلقون المعرفة، وينقلونها من الآخرين دون تدخّل علميّ كبير أو تطوير من جانبهم. وقد ترجموا من الاغريقيّة، والهنديّة، والفارسيّة إلى السريانيّة ثمّ منها إلى العربيّة.

- **المرحلة الثّانية:** وتسمّى بالمرحلة الإنتاجية؛ حيث بدأ العلماء العرب في النّقد وإبداء آرائهم؛ لتطوير أفكار الآخرين مبتكرين أفكاراً جديدة مبنية على خلفيّة علميّة. لذلك، أصبحت منتجة وخلاقة للحقول الحضاريّة، والمعارف العلميّة، ممّا صير مهمّة المترجمين مهمّة حاسمةً جداً.³

¹ الحسيني. فاضل: أثر حركة الترجمة في رفد الحضارة العربية الإسلامية، مجلة تاريخ العرب والعالم، (مج 19، ع 180)، 1999م، ص 49.

² أ. س، رابويرت: مبادئ الفلسفة، ترجمة أحمد أمين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1969، ص 142.

³ Abdo Rababah, Hussein, The Translation Movement in the Arab World, International Journal of Language and Linguistics, Volume 3, Issue 3, May 2015, Pages: 122-131.

تبدأ هذه المرحلة بالخليفة المأمون، وتستمرّ حتّى القرن الثالث الهجريّ. لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ التّرجمة وصلت في المرحلة الأولى إلى مستوٍ عالٍ، في عهد أبي جعفر المنصور؛ الذي دعا العلماء المتخصّصين في الرياضيات، والطّب، والفلسفة من أنحاء العالم جميعها إلى ترجمة الكتب في فروع المعرفة كافّة، بدلاً المال بسخاء حتّى تكوّنت لديه مكتبة عربيّة حافلة بعدد كبير من الكتب.

وتتلخّص أهم أسباب نشاط الترجمة عند العرب، بما يلي:

1. اهتمام الحكّام والخلفاء، وتشجيعهم نقلَ المعارف والعلوم من اللّغات السّائدة آنذاك؛ ولاسيما الفارسيّة واليونانيّة.
2. اتّساع الإمبراطورية الإسلاميّة وهذا ما أتاح للشّعوب الإسلاميّة الاطّلاع على كتب كثيرة، وترجمتها.
3. عقد المجالس الأدبيّة، والندوات النّقافيّة في المساجد ودور العلم وبيوت الخلفاء أنفسهم والأمرء.
4. أدّى توسّع المناقشات إلى حبّ الاطّلاع والبحث عن مزيد من المعارف والعلوم في المخطوطات والتّأليف الأجنبيّة.¹

كانت سياسة الدّولة العباسيّة تختلف عن سياسة الدّولة الأمويّة؛ التي تميّزت بالعصبيّة القبليّة، فكان خلفاؤها ووزراؤها من العرب، أمّا الدّولة العباسيّة، فقامت على أكتاف الفرس من أهل خراسان ذوي النّقافات القديمة.

زُد على هذا أنّ كثيراً من خلفاء بني العباس نشأتم غير عربيّة، وهذا ما أكسبهم مرونة في الانفتاح على غيرهم؛ لذا أخذ خلفاء بني العباس يطلبون العلم بأنواعه جميعها، ويكلّفون النّقل والمترجمين نقلَ العلوم الحكميّة؛ الطّب، والهندسة، والفلك، مغدقين عليهم الأموال.²

¹ الجواهري. خيال: تاريخ المكتبات في البلدان العربيّة، دمشق: وزارة الثقافة، 1992، ص 87.

² نعيم. محمد السيد: في الفلسفة الإسلاميّة، القاهرة: الطباعة المحمدية، 1954م، ص 124.

لعلّ أحد أهمّ الأسباب التي جعلت الترجمة تحظى بهذه المكانة، في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية، إتاحتها الإنتاج الأدبيّ من نصوص علميّة، وأدبيّة وغيرها، لمن لا يستطيع القراءة بلغته الأصليّة؛ فأياً كانت لغة النّص سيظلّ دائماً عدد قرائه في لغته الأصليّة أقلّ عدداً من القراء المتاحين على نطاق واسع.¹

سعى الخليفة العبّاسيّ الأوّل أبو العبّاس السّفاح لتوطيد أركان الأمة لكن ذلك لم يحلّ دون أن يعير العلم جزءاً من اهتماماته المتشابكة؛ فخالط العلماء والأدباء..

ويؤكد المسعودي في "مروج الذهب": "إنّما العجب ممّن يترك أن يزداد علماً، فيختار أن يزداد جهلاً. ولمّا سُئل عن معناه، أجاب: هو الذي يمتنع عن حضور حلقات العلم، ومسامرة العلماء ويختار اللّهُو".²

ولقد عُني أبو جعفر المنصور؛ ثاني خلفاء بني العبّاس، بنشر هذه العلوم الفلسفية، بعضها؛ "... فبعث أبو جعفر إلى ملك الرّوم؛ يبعث إليه بكتب النّعاليم مترجمةً. فبعث إليه بعض كتب الطّبيعيّات. قرأها المسلمون واطّلعوا على ما فيها...".³

أمّا المنطق، فأوّل من اشتهر بترجمته عبد الله بن المقفع كاتب أبي جعفر المنصور، يقول ابن النّديم: "وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطّب إلى اللّغة الفارسيّة، فنقل ذلك إلى العربيّة عبد الله بن المقفع وغيره".⁴

يُعتقد أنّ الخليفة المنصور قد سبق غيره من خلفاء بني العبّاس في تبني فكرة تأسيس دار

¹ دوليل. جان: تاريخ الترجمة، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة: جامعة عين شمس، 2003، ص 22.

² المسعودي. أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر 957م، ج 3، ص 278.

³ حاجي خليفة. مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تعليق محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجديدة، 1941، ج 1، ص 679.

⁴ مرجع سابق، ابن النديم، ص 337.

خاصة بدراسة الكتب الأجنبية وترجمتها؛ وتشير بعض المصادر التاريخية المتوفرة إلى أن أبا جعفر المنصور قد خرج من عاصمته بغداد قادماً بلاد الروم بقصد الاطلاع على ما تحويه من كنوز علمية.¹

وقد اكتفى بانتقاء الكتب المتعلقة بالطب، والفلسفة، وعلوم النجوم من أجل ترجمتها إلى العربية. هذا ما دفع إلى الاعتقاد بأن المنصور أول من سعى لإحياء تراث الأمم الغابرة.² وقد واصل هارون الرشيد؛ الذي تولى الخلافة عام 170 هـ مسيرة أبي جعفر المنصور، الذي أثر فيه حبه للعلوم والاطلاع على أمهات الكتب.

يُذكر في هذا الشأن أنه قصد وولده؛ الأمين والمأمون، الديار المصرية، وزار مكتباتها.³ واتخذ قراره بتأسيس بيت الحكمة الذي عين فيه العلماء فغدا قبلةً لطالبي العلوم والمعرفة.⁴ وقد أخذت حركة الترجمة في عهد هارون الرشيد بالازدياد مع ازدياد المؤلفات؛ يرجع ذلك إلى ظهور الورق بكميات كبيرة جداً.⁵ هذا التطور دفع بالخليفة هارون الرشيد إلى مراسلة الروم ودعوتهم إلى فتح خزائنهم في عمورية وأنقرة.⁶

¹ شمس الدين الذهبي، محمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، تحقيق محمد العرقسوسي وآخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، (ج 7، 1374م)، ص 83.

² مرجع سابق، حاجي خليفة، ص 34.

³ السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، مصر: إدارة الطباعة المنبرية، 1932م، ص 188.

⁴ ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992 م، ص 9.

⁵ الفلقشندي. أحمد بن علي بن أحمد الفزاري: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس، لبنان: دار الفكر، 1987، ج 2، ص 515.

⁶ ابن جلجل. أبو سليمان بن حسان الأندلسي: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص 65.

..... دور الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

جاء من بعده عصر يحيى بن خالد البرمكي الذي زاد من الاهتمام بترجمة الكتب، فقد بعث إلى ملك الروم بالهدايا الكثيرة وطلب منه كتب اليونان التي قد بنى عليها النصارى ولم يخرجوها إلى شعوبهم، فوافق ملك الروم على ذلك وبعث بها إليه، فلما وصلت جمع عليها كل زنديق وفيلسوف.¹

بلغت حركة الترجمة أوجها الذهبي في عهد الخليفة المأمون؛ حيث انفتح في هذا العصر الباب للترجمة على مصراعيه. فقد عمل ما لم يعمله سابقوه؛ إذ ترجم الفلسفة الإلهية؛ فلسفة أرسطو وغيره، وشجع على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية في مختلف اللغات في الفلسفة، والطب، والطبيعية، والفلك، والرياضة...

ولم يدخر المأمون وسعاً في ذلك فقد وثق علاقاته بملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا الثمينة، وسألهم صلته بما حضرهم من كتب أفلاطون، وأرسطو وكان من شروط عقد الصلح بينه وبين الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكتبات الأستانة وازدهرت مكتبة بيت الحكمة التي أنشأها الرشيد وطورها المأمون.²

ولم يكن التشجيع على النقل في هذا العصر مقصوراً على الدولة بل كان لبعض الأفراد من أهل اليسار مشاركات قوية احتذوا فيها حذو المأمون، من هؤلاء بنو موسى.³

لم يقف نشاط حركة الترجمة في العصر العباسي على عهد هارون الرشيد وابنه المأمون بل امتد إلى عهد الخليفة المتوكل الذي أغدق أموالاً طائلة على المترجمين الذين انصبّت اهتماماتهم على ترجمة المخطوطات اليونانية في مختلف فروع المعرفة حتى أوشكوا ألا يبقون على كتاب دون ترجمة. وأبرز ما في الترجمة في هذا العصر هو انتقال الأمر من الخلفاء إلى أيدي الناس

¹ السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: صون المنطق والكلام، تحقيق: علي سامي النشار،

القاهرة: مكتبة السعادة، 1998، ص 7.

² مرجع سابق، ابن خلدون، ص 480.

³ مرجع سابق، أ. س، رابويرت، ص 145.

خارج السلطنة.¹

يُظهِرُ نشاط حركة التَّرْجِمة وما صاحبها من تطوّر علميّ شغفَ الخلفاء العباسيين، ورغبتهم في مواكبة النَّشاط الفكريّ والوقوف على ما وصلت إليه الحضارات الأخرى في هذا المجال.

يمكن القول: إنّ نشاط حركة التَّرْجِمة في العصر العباسيّ كان له آثاره؛ فإضافة إلى خلق روح الحوار والتّفاعل الحضاريّ خلقت نهضة علمية كبيرة، لها شأنٌ عظيم في ازدهار العلوم والآداب في بغداد؛ إذ صار العلماء يترجمون رغبة في الاطّلاع، وتغذية العقل، والتأليف، والكتابة، كما أظهرت خيرة العلماء في حقول ومجالات شتى.

كل هذا أدى إلى انتشار الكتب العلميّة في الدّولة العباسيّة، واستقطاب العلماء من مختلف أنحاء أوربا، كما أدت إلى انتشار علوم الفلك، والرياضيات، والعلوم الهندسيّة، وعلم الجبر، وتشجيع الرّحلات العلميّة والجغرافيّة حتّى غدت بغداد محطّ أنظار المثقّفين، بفضل بيت حكمتها ومراكزها العلميّة المتطوّرة.²

ومن أهم هذه النتائج انتعاش المكتبة العربيّة، وتطوّر الحضارة الإسلاميّة، ونبوغ نوابغ في الفكر والعلوم، وازدهار المكتبات العامّة والخاصّة في الدّولة الإسلاميّة، وهذا مادفع الناس إلى قراءة الكتب النّقافية والعلميّة، فأدى إلى التّطوّر العلميّ.

نتائج الدّراسة:

1. يمكننا إيجاز أثر حركة الوراقّة والتّرْجِمة في إغناء الحضارة الإسلاميّة على النّحو الآتي:
1. تطوّر النّقافة الإسلاميّة في مناحي تفكيرها بمدخلات ثقافات الأمم الأخرى.
2. اطّلاع العرب المسلمين على علوم شتى، كانوا في حاجة إليها، مثل: الرياضيات، والطّب.
3. أسهمت صناعة الورق في بداية ثورة النّقنيات بإنتاج المخطوط العربيّ، وتسويقه في البلاد

¹ مرجع سابق، النديم، المصدر السابق، ص339

² مرجع سابق، ابن النديم، ص371،

..... دور الوراقفة والفرفمة فف إغناء الففارة العربفة الففلامفة

- الإفلامفة فاطبة بل فف الغرب كلّه.
4. أسهمت صناعة الورق فف ظهور المكفباف وانفشارها بأنواعها المففلفة فف الففارة العربفة الففلامفة.
5. ارتقاء الففارة العربفة الففلامفة بفنون المعرفة المففلفة.
6. أسهمت حركة الفرفمة فف ازدهار المكفباف العامة، والفصاف فف الففارة الففلامفة.
7. نقل الغرب عن العرب صناعة الفرف التي انفشرت فف إسبانيا، وأوربا.
8. إغناء اللغة العربفة بالمصطلحات العلمفة والفعبفر الففسفة.
9. أفر حركة الفرفمة والورافة فف الففارة العلمفة للففارة الففلامفة.
10. ففارة الففارة الففلامفة ففارة راقفاً من خلال الففارة مع الفكر الففام.
11. ظهور عبقرفا علمفة ففارة الففارة الففلامفة.
12. فوفر حركة الفرفمة مافة ففارة أفا ففارة العلماء العفرن؛ الوسفط، والفدث، اسفكمال ما ففامه للفام من اففراعات وابفكاراف وإبداعات.
13. نشوء ففارة ذات طابع أصفل ففامز بالففمومة، وبفناصر مفايرة للففارات السابفة واللاحقة جعلفها ففامز بالفبقرفة، والففمول، والفعمق، والأصالة. بل فف أرقى مسفوى ففارف عرفه الفافرف.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثيري، عبد الرحمن بن محمد الأثيري أبو البركات كمال الدين: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الفكر العربي: 1998.
2. ابن النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب: **الفهرست**. تحقيق: رضا المازندراني. بيروت: دار الكتب العلمية: 1996.
3. ابن جلجل، أبو سليمان بن حسان الأندلسي: **طبقات الأبطال والحكام**. تحقيق فواد السيد، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، 1955.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت).
5. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: **المعارف**. تحقيق: ثروت عكاشة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.
6. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: **عيون الأخبار**. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1925.
7. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**. تعليق محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجديدة، 1941.
8. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1996.
9. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائلين بأمر الأمة**. مصر: إدارة الطباعة المنيرية، 1932.
10. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: **صون المنطق والكلام**. تحقيق: علي سامي النشار، القاهرة: مكتبة السعادة، 1998.
11. شمس الدين الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**. تحقيق: محمد العرقسوسي وآخرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ج 7، 1374.
12. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. شرح وتعليق: محمد حسين شمس، لبنان: دار الفكر، 1987.
13. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **مروج الذهب**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، 1957م.
14. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: **معجم الأدباء**. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993.

..... دور الوراقاة والترجمة في إغناء الحضارة العربية الإسلامية

15. أبو لؤي، ممدوح: في تاريخ الترجمة العربية. مجلة الموقف الأدبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ع 360 نيسان، 2001.
16. أمين، أحمد: ظهر الإسلام. بيروت: دار الكتاب العربي، ط 10، 1969.
17. بدر الدين، عبد الرحمن. مجلة التراث العربي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، مج 25، ع 98 جمادى الأولى، (حزيران، 2005)، ص 246.
18. الثعالبي، أبو منصور: لطائف المعارف. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1867.
19. الجميلي، رشيد: الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية. منشورات جامعة قار يونس، ليبيا، 1982.
20. الجواهري، خيال: تاريخ المكتبات في البلدان العربية. دمشق: وزارة الثقافة، 1992.
21. الحسيني، فاضل: أثر حركة الترجمة في رقد الحضارة العربية الإسلامية. مجلة تاريخ العرب والعالم، مج 19، ع 1999، 180.
22. حمادة، محمد ماهر: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصانرها. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982.
23. دوليل، جان: تاريخ الترجمة. ترجمة: كاميليا صبحي. القاهرة: جامعة عين شمس، 2003.
24. ريسلر، جاك: الحضارة العربية. ترجمة: غنيم عيدون. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1960.
25. زيد محمد الزماني. الحضارة الإسلامية والمنقول الثقافي: <http://www.al-jazirah.com/2012/20120129/tj7.htm>
26. عليان، رحي: صناعة الورق في الحضارة العربية الإسلامية. مجلة رسالة المكتبة، مج 16، ع 1، 1981.
27. العمري، أحمد جمال: حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية، كتاب البلدان. تحقيق: دي غوية، ليدن، إبريل، 1892.
28. كرهمان، ادولف: الكتابة العربية وأدواتها. فيينا: (د.ن) 1967.
29. مظهر، جلال: حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي. القاهرة: مكتبة الخانجي (د.ت).
30. العيسى سالم: الترجمة في خدمة الثقافة الجماهيرية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1999.
31. الصعدي، عبد المتعال: الوسيط في تاريخ الفلسفة. مصر: مكتبة الجامعة الأزهرية، (د.ت).
32. عبيد، هبة: صناعة الورق والطباعة. عمان: دار البازوري، 2014.
33. عواد، كوركيس: الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ع 23.
34. أس. رابويرت: مبادئ الفلسفة. ترجمة: أحمد أمين. بيروت: دار الكتاب العربي، 1969.
35. مرجبا، محمد عبد الرحمن: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. بيروت: دار عويدات، 2000.

36. مغنية، أحمد: تاريخ العرب القديم. لبنان: دار الصّفوة، 1994.
37. نعيم، محمد السّيد: في الفلسفة الإسلاميّة. القاهرة: الطّباعة المحمّديّة، 1954م.
38. Abdo Rababah, Hussein. The Translation Movement in the Arab World: From the Pre-Islamic Era Until the end of Umayyad Dynasty (Before 610-750 A. D.) International Journal of Language and Linguistics. Volume 3, Issue 3, May 2015, Pages: 122-131 Retrieved at 4/1/2018.Database on: <http://article.sciencepublishinggroup.com/html/10.11648.j.ijll.20150303.13.html>
39. Cotter, Holland. SHELF LIFE; The Story of Islam's Gift of Paper to the West.DEC. 29, 2001 Retrieved at 1/1/2018.Database on: <http://www.nytimes.com/2001/12/29/books/shelf-life-the-story-of-islam-s-gift-of-paper-to-the-west.html>
40. FSTC Limited. The Beginning of the Paper Industry._Retrieved at 8/12/2017.Database on: <http://www.muslimheritage.com/node/1828>
41. Richard W. Bulliet. Paper before Print: The History and Impact of Paper in the. Islamic World. Johns Hopkins University: Vol 44, No 1, January 2003, pp. 160.
42. CannyIdeas.Padmanabha Shenoy.A Study on History of Paper and possible Paper Free World. International Journal of Management, Volume 6, Issue 1.2016

من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية

العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين والمماليك في مصر والشام

د. يعرب نبهان

باحث أكاديمي - سورية

على الرغم من المعاناة الشديدة التي عاشها المجتمع العربي بمصر والشام في عصر السيطرة الأيوبية والمملوكية، فإن العلوم بجميع أنواعها ومستوياتها بقيت محافظة على وثيرة معينة لم تتعد الحد الأدنى طوال هذه الفترة المظلمة. ولا بد أن ذلك يعود إلى وعي عربي كبير، تجسد في اهتمام العرب بالعلوم قدر المستطاع، بعد أن فشلوا في مسألة طرد الأيوبيين والمماليك من مواقع الحكم والقيادة، التي تمسكوا بها بقوة بحجة واهية، تجلت بالحرص على استمرار الدين الإسلامي قوياً ومعافى، وقد دلت الأحداث والوقائع أن تمسكهم بالسلطة وقيادة الدولة، لم يكن في حال من الأحوال إلا بُغية تحقيق طموحاتهم في السيطرة والاستئثار بخيرات البلاد، التي نهبت نهباً فظيماً قلّ نظيره في تاريخ العالم.

وإذا كانت قد غابت شمس العرب على صعيد الحكم في هذه الفترة، فإنها أشرقت إلى حدٍ ما على صعيد العلم والحضارة والفكر والثقافة، وكأن الأمر كان قد حُطّط له بعناية، فخصص العلم للعرب وخصصت السياسة والقيادة للغرباء من أيوبيين ومماليك، الذين حرصوا على الدوام على مسألة إبعاد العرب عن المراكز السياسية والقيادية، لأنهم كانوا يعرفون تماماً أنهم غرباء ومغتصبون للحق العربي في الحكم والقيادة، كما كانوا يعرفون مدى التذمر العربي من حكمهم وبخاصة في صفوف أهل الوعي من العرب.

ازدهرت في هذا العصر العلوم النظرية على حساب العلوم التطبيقية من طب وصيدلة

وهندسة وفلك وزراعة وطبيعة وما يتصل بذلك. برغم هذا الازدهار للعلوم النظرية، فإنها لم تكن جيدة من حيث نوعها وقيمتها الفكرية، فقد جاءت على هيئة تجميعية من مصادر سابقة، وغابت منها روح النقد والإبداع والتجديد، فكانت تعبيراً صادقاً عن ذلك العنصر الذي اتسم بالهزيمة على صعيد الابتكار والجدة والحضارة والإنسانية، فقد كان من أشد عصور العرب ظلاماً في العصور الوسطى، ولم يتفوق عليه في ميدان الهزيمة الحضارية سوى العصر العثماني الذي جاء على أنقاضه ودام أربعة قرون متتالية. وسندرس هذه العلوم دراسة مختصرة تحت عنوانين منفصلين، هما العلوم النظرية والعلوم التطبيقية.

1. العلوم النظرية:

يقصد بهذه العلوم على وجه الدقة، العلوم اللغوية والعلوم الدينية والعلوم الاجتماعية. وقد نالت من اهتمام الناس أضعافاً مضاعفة مما نالت العلوم التطبيقية، التي بدونها لا يحدث التقدم والتطور في أي مجتمع من المجتمعات البشرية على الإطلاق، ذلك لأنها هي التي تنتقل بالإنسان من مرحلة التسليم إلى الطبيعة بقسوتها وظلمها وكوارثها إلى مرحلة تطويع هذه الطبيعة لمصلحة الإنسان وتحسين معيشته على الدوام. على حين لا تشغل العلوم النظرية هذه الأهمية في تاريخ الإنسانية، على أهميتها في مجالات التهذيب والتربية والتحفيز للانطلاق باتجاه المواقف الإيجابية والضرورية للإنسان في حياته العامة. وهذه العلوم هي كالتالي:

العلوم اللغوية

وهي علوم اللغة العربية بكافة تفرعاتها وأغراضها واختصاصاتها، كالنحو والصرف، والأدب من شعر ونثر، والبلاغة، وكذلك الشروح العامة والخاصة لمعضلات هذه الموضوعات. وقد نالت هذه الموضوعات اهتمام مجموعة كبيرة من المعتنين بالشؤون الثقافية والمعرفية، ومن شدة اهتمام بعضهم برزت شخصيات عديدة، نالت شهرة عريضة في دنيا العصور الوسطى المتأخرة، ساعد على ذلك وجود العديد من المدارس في مصر والشام، التي بنيت لتكون مراكز للتعليم المتعمق في عدد من الاختصاصات على غرار ما يجري في بعض كليات الجامعة اليوم. وقد بدأت هذه

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

المدارس تظهر منذ ظهور السيطرة الأيوبية، وتطورت على صعيد الكم والكيف والاختصاص في عصر السيطرة المملوكية. وتركزت هذه المدارس بوجه خاص بمدينة القاهرة ودمشق وحلب والإسكندرية والقدس. وجاء نظام استحداث المدارس في هذه المدن تقليداً لما حدث من قبل في بغداد، التي عرفت نظام المدارس قبل أية مدينة مشرقية أخرى وكذلك مغربية، فقد أنشئت المدرسة النظامية في مرحلة السيطرة السلجوقية في هذه المدينة¹.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المدارس في بداية إنشائها، كانت من أجل تدريس العلوم الدينية في مختلف أشكالها وأنواعها، وهو أمر كان الحكام يروجون من ورائه نيل الثواب عند الله في الآخرة، لكن ذلك تطور مع الأيام فأصبحت تدرس مختلف العلوم النظرية وأحياناً التطبيقية. فقد ابتدأت بتدريس العلوم الدينية على المذاهب الأربعة. وكان القائمون على المدرسة يحرصون على تعيين أشهر العلماء في ميدان علومهم، حرصاً منهم على سمعة المدرسة ومستقبلها بوجه عام. وكان لكل عالم معتمد في أية مدرسة من المدارس معاون يسمى المعيد، كانت مهمته الرئيسة مساعدة الطلبة في إفهام الطلبة ما يغيب فهمهم عنه في المسألة التي كان المدرس يشرحها لهم في المدرسة².

وكانت جميع المدارس تزود بالمصادر المختلفة، التي يعتمد عليها الأساتذة والتلامذة على حد سواء، وكانت هذه المصادر توضع في مكاتب خاصة لها مرتبون مختصون على غرار ما يجري في المكاتب الحالية، باستثناء النقائات التي دخلت أخيراً على هذه المكاتب. وعُرف هؤلاء بأسماء مختلفة مثل الخازن والأمين والناسخ والمناول والمجلد وما إلى ذلك.

من جهة أخرى فقد كان المهتمون بإنشاء المدارس، يبحثون قبل إنشاء مدارسهم عن إيجاد مصدر مالي للإنفاق على مدارسهم أساتذة وطلاباً وقائمين بالخدمة العامة، وكثيراً ما تجسد هذا المصدر في المرحلة المملوكية والأيوبية في الأوقاف، التي كانت على هيئة حوانيت وأراضي

¹ حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص 222 وما بعدها.

² المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ص 374. السيوطي، حسن المحاضرة ج 2 ص 157.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

زراعية أو حمامات أو مؤسسات تجارية، فكل ما كانت تنتجه هذه الأوقاف يرسل إلى المدرسة المخصص لها، وكانت إنتاجات الأوقاف غير ثابتة بسبب خضوعها للتقلبات العامة في الزراعة أو في التجارة، فكانت تنقص في بعض الأحيان وتزيد في بعض الأحيان الأخرى، وهذا ما انعكس على حياة العاملين في المدرسة وكذلك المتعلمين، الذين كانوا يخضعون لنظام يشبه إلى حدٍ بعيد النظام الذي تخضع له المدارس الداخلية في عصرنا¹.

ففي ميدان الأدب في هذا العصر، يمكن أن نقول إنه تجسد بشكل حقيقي في قصائد شعرية كثيرة، قالها عدد لا بأس به من الشعراء، وكذلك في كتابات نثرية متفرقة. فمن شعراء هذا العصر يمكن أن نذكر الشاعر صاحب شرف الدين الأنصاري المتوفى سنة 662هـ/1264م، الذي تميز بعدد من ضروب الشعر، كالمدح الذي شمل إضافة إلى بعض الشخصيات السياسية، بعض المعارك المظفرة، والغزل والنسيب، والزهدي الذي لم يكن كثيراً في شعره² والشاعر التلعفري محمد بن يوسف الشيباني المتوفى سنة 675هـ/1277م. وقد تركز شعره على الوصف والطبيعة والخمريات التي عرفت بالخمريات التلعفرية. والشاعر البوصيري محمد بن سعيد الصنهاجي المغربي المتوفى سنة 697هـ/1296م، وهو من المغاربة نزلاء مصر في القرن السابع الهجري، وقد اشتهر بالوصف والمدائح النبوية، وبخاصة قصيدته الباردة التي رفعت من شأنه كثيراً³. والشاعر عفيف الدين التلمساني المتوفى بدمشق سنة 690هـ/1291م، وقد اهتم بشعر التصوف في المقام الأول، على الرغم من اهتمامه بوصف الطبيعة. وكان في شعره التصوفي هذا يظهر ذلك المبدأ الذي حفظه عن أستاذه ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، ذلك لأن التلمساني عدَّ في نظر الكثيرين من القدماء والمحدثين من أخلص التلاميذ، الذين تلمذوا عند ابن عربي، وكان بمثابة قناة إعلامية لمذهبه في وحدة الوجود⁴. والشاعر الشاب الظريف المتوفى بدمشق

¹ ابن جبير: الرحلة طبعة بيروت ص 27.

² الكتبي: فوات الوفيات، ج 1 ص 365.

³ الكتبي: فوات الوفيات، ج 2، ص 256 وما بعدها.

⁴ انظر عن ذلك كتابنا: الأندلسيون في بلاد الشام طبعة دار طلاس دمشق 1989.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

سنة 688هـ/1289م، وهو ابن العفيف التلمساني السابق الذكر، ولقبه بالظريف لجماله ورشاقته ووسامته ومرونته في التصرف مع الناس وخفة روحه وكثرة مزاحه وابتعاده عن مواطن التعقيد والغضب وما إلى ذلك من أمور مشابهة. وقد تأثر بأبيه كثيراً من حيث ثقافته وعلمه، لكنه أكثر من الشعر في ميدان المدح والغزل والخمريات وما إلى ذلك¹. والشاعر صفي الدين الحلبي المتوفى سنة 750هـ/1349م، الذي اهتم بشعر المدائح والإخوانيات، والمدائح النبوية، والفخر والحماسة، والمراثي والتعازي، والنسيب والغزل والتشبيب، والخمريات، وهذا ما جعله من كبار شعراء العصر المملوكي. والشاعر ابن نباتة المصري الذي لقب بأمرير شعراء المشرق المتوفى سنة 768هـ/1366م، وقد اقتصر في شعره على موضوعات المدح ولاسيما المدائح النبوية ومدائح الحكام من أيوبيين ومماليك، ومدائح لأصدقائه وإخوانه من قضاة وعلماء كبار مما جعل النقاد يسمونها بالمدائح الإخوانية، كما اهتم بشعر الرثاء ولاسيما رثاء أولاده الذين رثاهم بمرارة، هذا إضافة إلى رثاء أصدقائه وبعض جيرانه، وله شعر في الغزل والوصف وبعض الخمريات الغنائية وبعض الموشحات².

إلى جانب ما أنتجه هؤلاء الشعراء من شعر متعدد الأغراض، فقد اشتهرت في هذا العصر موسوعات عديدة، ضمت العديد من الموضوعات التي كتبت على هيئة نثرية أدبية بصورة لم تظهر في أي من العصور السابقة. نذكر من هذه الموسوعات على سبيل المثال، موسوعة ابن منظور (لسان العرب)، وهي موسوعة لغوية ضخمة جمع فيها بين ضروب أدبية متعددة، وبلغت مواد هذه الموسوعة ثمانين ألف مادة³. وموسوعة نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري، التي ضمت العديد من العلوم النظرية والتطبيقية، صاغها بأسلوب أدبي جميل يمتاز بسهولته وقربه من فهم القارئ⁴. وموسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل

¹ انظر عنه كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام.

² الموسوعة الإسلامية ج 1، ص 288 وما بعدها.

³ مقدمة لسان العرب ج 1، ص 8 وما بعدها.

⁴ السيوطي، حسن المحاضرة ج 1 ص 556. الأعلام للزركلي ج 1 ص 158.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

الله العمري، وقد تميزت هذه الموسوعة بالشمول والاتساع، فقد احتوت على معظم العلوم الإنسانية¹. وموسوعة صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأحمد بن علي القلقشندي، وهي من أكبر موسوعات العصر المملوكي، ومن أكثرها أصالة في ميدان الأدب².

وبالجملة فقد حافظت هذه الموسوعات على جزء كبير من تراث العرب، الذي تهدد بقدر كبير في العصرين المملوكي والعثماني، ولا يستبعد أن يكون الأمر مقصوداً من قبل أصحاب هذه الموسوعات، انطلاقاً من وفائهم لعروبيتهم وإخلاصهم لأمتهم في وقت أبعد العرب عن الحكم وعن صنع القرار السياسي.

أما الفرع الآخر من علوم اللغة العربية فهو النحو، الذي حظي باهتمام بالغ في هذا العصر من قبل الكثيرين، وكانت شهرة بعضهم تعود إليه في المقام الأول. ولشدة هذا الاهتمام فقد توصل بعضهم إلى ابتكار طرق ومؤلفات، هدفت إلى تسهيل فهمه وحفظه من قبل الطلبة والمهتمين. وهنا لا يمكن أن نستعرض كل علماء النحو في هذه المرحلة لكثرتهم وغزارة مؤلفاتهم، وهذا الأمر الذي يجعلنا نقتصر على أشهرهم حتى اليوم. من هؤلاء المشاهير النحوي يحيى بن عبد المعطي الزواوي المشهور بابن معطي المتوفى بالقاهرة سنة 1233/هـ628م. وهو من المبدعين في هذا العلم، وقد تجلّى إبداعه في مؤلفه (الألفية) التي تُعد الأولى من نوعها في ميدان النحو. لذلك نرى أنها انتشرت في المشرق العربي، وأقبل المدرسون على اعتمادها في التدريس، كما شرحها كثيرون خلال هذا العصر³.

أما النحوي الشهير في هذه المرحلة فهو محمد بن عبدالله جمال الدين المعروف بابن مالك النحوي المتوفى بدمشق سنة 1274/هـ672م، الذي عمت شهرته الشرق والغرب، وبرز كمؤلف

¹ ابن فضل الله العمري: مالك الأبصار، ج 1، ص 31.

² كرايشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج 1، ص 420.

³ اليافعي المكي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج 4، ط 2، بيروت 1970 ص 66. ابن خلكان وفيات الأعيان: ج 6،

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

بارع في ميدان النحو، وكأستاذ لا يجارى، وكرئيس لمشيخة النحو في واحدة من أكبر مدارس دمشق في العصور الوسطى، وهي المدرسة العادلية، فقد ألف الكثير من الكتب النحوية، من أحسنها كتاب (الخلاصة) الذي يُعرف أيضاً بالألفية، ويحتوي على خلاصة منتقاة يبين فيها المقاصد والأهداف من علم النحو. وله كتب أخرى مثل الكافية الشافية، ولامية الأفعال، والمقدمة الأسدية، وعدة اللافظ وعمدة الحافظ، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد إلى غير ذلك¹. وعُدَّ ابن مالك أحد أكبر النحويين، الذين كادوا ينازعون سيبويه شهرته، فقدم من خلال مصنفاته التي ذكرنا بعضها خدمة جليلة خالدة لعلم النحو، كما عُدَّ من جهة ثانية صاحب مدرسة نحوية كبيرة، كانت ذات أهمية عظيمة في هذه المرحلة. فقد قام كثيرون بشرح مؤلفاته بعد وفاته، وكأنها وضعت حداً للإبداع والتجديد، فلم يتمكن النحويون أن يتجاوزوا هذا الحد. ومن الذين شرحوا مؤلفات ابن مالك النحوي، نذكر على سبيل المثال الشهاب الشاغوري، الذي قام بشرح كتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد)، لكنه لم يتمه فأكمله فيما بعد صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، وشرحه العلامة أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، والعلامة جمال الدين عبدالله بن يوسف النحوي في عدة مجلدات وسماه (التحصيل والتفصيل لكتاب التذليل والتكميل)².

وقام بشرح كتابه (الكافية الشافية) عدد من العلماء منهم، محمد بن علي النقاش المصري، وإعداد ذيلٍ عليه محمود بن محمد الحموي بخمسائة بيت سماها (وسيلة الإصابة). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على المستوى الرفيع والمتقدم، الذي بلغه ابن مالك النحوي، وربما لم تعرف بلاد الشام نحويًا خلال العصور الوسطى في مستوى ابن مالك على كافة المستويات.

وفي مدينة القاهرة اشتهر نحوي آخر، ربما يتساوى إلى حدٍ ما مع النحوي الفذ ابن مالك النحوي في ناحية واحدة هي المعرفة الواسعة بعلم النحو، وكذلك الخدمات التي قدمها في هذا

¹ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 3، ص 359. دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 1 ص 273.

² حاجي خليفة: كشف الظنون مجلد 1، ص 40 وما بعدها.

المضمار، وهو محمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الغرناطي القاهري المتوفى سنة 745هـ/1345م. لقد ترك أبو حيان إراثاً نحوياً بالغ الأهمية، لكنه لم يصل إلى درجة ابن مالك ولاسيما في ميدان الابتكار¹. وتتجلى مكانة أثير الدين أبي حيان من خلال قصيدة قالها الصفدي في رثائه منها:

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق واستعبرا
والنحو قد سار الردى نحوه والصرف للتصريف قد غيرا²

2. العلوم الاجتماعية

وتضم هذه العلوم العديد من الفروع المستقلة، مثل التاريخ والجغرافية والفلسفة وعلم الاجتماع. وكان التركيز على التاريخ بوجهٍ خاص على حساب الفلسفة والجغرافيا، التي كانت من العلوم المتأخرة في هذا العصر.

أ. التاريخ

كان التاريخ من الموضوعات التي استقطبت اهتمام عدد كبير من العلماء الكبار في العصر الأيوبي والمملوكي موضوع هذا البحث. ولا يوجد تفسير لذلك سوى أن التاريخ في العصور الوسطى، كان يلقي عناية فائقة من الحكام فشجعوا المؤلفين وأثثوا على جهودهم في هذا الميدان، ذلك لأن الحكام كانوا يحبون دوماً أن يكتب التاريخ في حياتهم، ليحوزوا مكانةً مقبولة في صفحاته. ولابد هنا من أن نقتصر على أهم المؤلفين في هذا المجال، ذلك لأن الحديث عن الجميع من الأمور المستحيلة هنا بسبب كثرتهم وكثرة مؤلفاتهم. ويمكن أن ندرسهم من خلال منهجية مؤلفاتهم ونبدأ بأصحاب التراجم، الذين كتبوا مؤلفاتهم لتكون تراجم مختلفة للعلماء والسياسيين والأدباء ورجال الدين إلى غير ذلك. فأهم من كتب في هذا المجال في هذه الحقبة،

¹ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 5، ص 267 وما بعدها.

² الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان القاهرة 1911 ص 281.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

هو علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة 647هـ/1249م، الذي ألف كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، فضمنه تراجم الأطباء والفلاسفة من العرب وغير العرب منذ أقدم العصور حتى زمانه، وهو مرتب على حروف المعجم، ويُعد من الكتب الفريدة في هذا الموضوع¹. وكتب أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان كتاباً سماه (وفيات الأعيان)، وهو من كتب التراجم الكبيرة المرتبة على حروف المعجم، وقد ركز فيه ابن خلكان على ترجمة المشاهير من الحكام والوزراء والعلماء العرب في المشرق والمغرب² وذيل عليه الصقاعي في كتاب سماه (تالي وفيات الأعيان) استدرك فيه ما أغفله ابن خلكان إضافة إلى تراجم المرحلة حتى سنة 725هـ. ثم كتب صلاح بن أبيك الصفدي كتابه الكبير الوافي بالوفيات، الذي يُعد من كتب التراجم الهامة، ضمنه كثيراً من تراجم الأعيان والعلماء والإداريين البارزين وكذلك الحكام. وجعله على حروف المعجم ولكنه بدأ بحرف الميم تيمناً وتبركاً باسم الرسول الكريم (ص) وهو من الكتب الضخمة في ميدان التراجم³. وقام محمد بن شاکر الكتبي بتأليف كتاب (قوات الوفيات) جعله ذليلاً على كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان، ذلك لأن ابن خلكان كان قد أخل في تراجم فضلاء زمانه على حد قول ابن شاکر الكتبي، الذي عمل على استدرাকهم في هذا الكتاب⁴. وكتب ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852هـ/1448م كتاباً هاماً سماه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، وهو أهم كتاب تراجم كتب عن رجال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ثم كتب السخاوي موسوعة في التراجم تحت عنوان (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) وهو على غرار الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، وهو من أوسع كتب التراجم، التي تناولت رجال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، صنفه السخاوي على طريقة حروف المعجم بادئاً من سنة 801 حتى سنة 900هـ، ويتميز عن غيره من كتب التراجم بنزعتة النقدية اللاذعة في كثير من الأوقات، إلى درجة ينذر

¹ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة مصر 1326هـ، ص 1.

² ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ت إحسان عباس، طبعة بيروت 1971، ص 1.

³ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 1، الصفحات الأولى.

⁴ الكتبي: قوات الوفيات، ج 1، ص 2.

أن أحداً نجا من نقده من الذين ترجم لهم.

وفي ميدان كتب الطبقات يمكن أن نذكر منها كتاب (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668هـ/1270، وهو أكمل مؤلف عن الأطباء في العصور الوسطى، أرخ لهم منذ ما قبل الإسلام حتى قبل وفاته بقليل، ويتبع هذا الكتاب التسلسل الزمني، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه ذكر شخصيات طبية معاصرة له، اجتمع ببعضهم وقام ببعض التجارب العلمية معهم بمدينة دمشق وبخاصة مع الطبيب الأندلسي ابن البيطار¹. وكتب القفطي للنحاة كتاباً هاماً سماه (إنباء الرواة على أنباه النحاة) بدأ فيه بترجمة النحويين وعلماء اللغة العربية من عصر أبي الأسود الدؤلي حتى عصره، وشمل علماء المشرق والمغرب ومعظم المناطق التي تعنى بالعربية². وفي النحو أيضاً كتب ابن قاضي شهبة المتوفى سنة 851هـ/1447م كتاباً سماه (طبقات النحويين)، وكتب السيوطي كتاباً آخر هو (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة). وفي طبقات القراء كتب محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833هـ/1430م كتاباً هو (غاية النهاية في طبقات القراء) ضمنه تراجم كل الذين لهم معرفة بعلم القرآن وتجويده، ولهذا يمكن اعتباره أهم كتاب في العصور الوسطى عن القراء.

أما في مجال التاريخ العام فقد كان الأمر أوسع من حيث الكم والكيف، ويعود ذلك إلى أن هذا النوع من التاريخ يهتم بكتابة تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة حتى عصر المؤلف. ومن أهم الذين كتبوا في هذا النوع ابن الأثير الجزري المتوفى سنة 630هـ/1233م، الذي ألف كتاب (الكامل في التاريخ) بدأ فيه من الخليقة والطوفان حتى سنة 628هـ/1231م، وهو مرتب على النظام الحولي، يجمع الأحداث الحادثة في مكان واحد، حتى لا يجعلها مضطربة، ويؤرخ للحوادث الصغيرة والوفيات في آخر كل سنة، ولا وجود للسند عنده. وإن ما يزيد من أهمية هذا الكتاب، أنه يؤرخ للمغرب كما يؤرخ للمشرق.

¹ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ج 2، ط 1، المطبعة البهية 1882 ص 2.

² القفطي: إنباء الرواة على أنباه النحاة، ج 1، ص 2.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

وكتب سبط بن الجوزي يوسف بن قزاغلي المتوفى سنة 654هـ/1256م، كتاباً سماه (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) انتهى فيه إلى سنة وفاته، وقد استعرض فيه الأحداث الهامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويفرد في نهاية كل سنة فصلاً خاصاً بالوفيات.

وكتب أيضاً أبو الفداء المؤيد عماد الدين اسماعيل المتوفى سنة 732هـ/1332م كتاباً سماه (المختصر في أخبار البشر) بدأ فيه من آدم وانتهى قبل وفاته بعدة سنوات. وهو من المصادر الهامة لدراسة عصر المماليك. وقد ذيل عليه زين الدين عمر بن الورد في كتاب دعاه (تتمة المختصر في أخبار البشر) ووصل فيه إلى سنة 745هـ/1345م، وقد اتبع فيه أسلوب أبي الفداء نفسه.

ومن هذه الكتب كتاب (العبر في خبر من غير) للحافظ الذهبي المتوفى سنة 748هـ/1343م. ويمتاز هذا الكتاب عن نظرائه بالاختصار الشديد، فهو يركز على الحوادث الكبرى ووفيات المشاهير، ويمكن اعتبار هذا الكتاب خلاصة للتاريخ العربي الإسلامي حتى سنة 700هـ/1301م حيث ينتهي. وكتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) لعبد الله بن أسعد اليافعي اليميني المكي المتوفى سنة 768هـ/1367م. وتغلب عليه صفة كتب التراجم على الرغم من أنه من كتب التاريخ العام، ذلك لأنه يركز على تراجم الناس، وقد انتهى فيه صاحبه في سنة 694هـ/1295م.

كذلك كتب إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير الدمشقي المتوفى سنة 774هـ/1373م كتاباً هاماً في هذا الاختصاص، وهو (البداية والنهاية) بدأ فيه منذ آدم حتى سنة 767هـ/1372م. وقد ركز فيه على الأحداث الهامة وذكر الشخصيات البارزة المتوفاة في نهاية كل سنة. وهو من المصادر الهامة لعصر المماليك باعتباره من الكتب، التي احتوت جزءاً هاماً من تاريخهم عاصره مؤلفه.

بقي أن نتحدث عن أهم الكتب التي وضعت في هذا العصر على طريقة الموضوعات أو باسم البلدان، وهي كثيرة جداً، وهذا ما يوجب علينا أن نهتم بأبرزها وأهمها. وهي كتاب (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي المتوفى سنة 555هـ/1160م. وفيه يؤرخ لدمشق من سنة 448 -

555هـ. وكتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) للعماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة 597هـ/1201م. وهو كتاب هام في ميدان الحروب الفرنجية في الشرق العربي، ذلك لأن الأصفهاني كان ملازماً لصلاح الدين الأيوبي، ومعظم حوادثه التي ذكرت كان الأصفهاني شاهداً عليها. وكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة المتوفى سنة 665هـ/1266م، وهو كتاب بمجمله تاريخ سياسي جمع فيه أبو شامة عصاراة كتب سابقة. وقد ذيل عليه في كتاب آخر سماه الذيل على الروضتين، هو كتاب ذو قيمة كبيرة للغاية من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهو مرتب على نظام السنين، ومعظم حوادثه كان أبو شامة شاهد عيان عليها ومن هنا أهمية الكتاب. وكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل المتوفى سنة 694هـ/1298م. وهو كتاب سياسي محض، تناول فيه ابن واصل عرض الأحداث التي جرت لأولاد صلاح الدين الأيوبي وأحفاده. وهو ذو قيمة عالية بالنسبة لدراسة هذه الحقبة من الناحية السياسية وغيرها، لأن ابن واصل كان أحد المقربين من الأيوبيين. إلى غير ذلك من كتب أخرى.

ب. الجغرافيا

لم تأخذ الجغرافية في هذا العصر مساراً مميزاً، يمكن أن نقارنه بالعصور السابقة، التي كانت فيها الجغرافية علماً مستقلاً، تميز بعمقه وتخصصه وتركيزه على موضوعات هامة، كالنواحي الاقتصادية والبشرية والطبيعية والعلمية. وإذا كان شيء من هذا قد حدث في هذه الحقبة، فإنه جاء مختلطاً مع موضوعات أخرى لا تمت إلى علم الجغرافية بصلة، وقام بكتابه علماء كانوا بمعظمهم غير مختصين أو على الأقل غير مهتمين بالجغرافية. لكنهم فعلوا ذلك من أجل أن تأتي مؤلفاتهم على هيئة موسوعات كبيرة، ضمت مواد علمية مختلفة منها الجغرافية. نذكر من هؤلاء في هذا العصر مجموعة حرصوا على تدوين مادة ضخمة من المعلومات الجغرافية الهامة ضمن كتبهم المتنوعة المواد، كما فعل ابن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى سنة 749هـ/1349م، حينما ضمن كتابه المعروف (التعريف بالمصطلح الشريف) بعض المعلومات

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

الجغرافية، مع أنه كتاب في آداب الدواوين. من ذلك الكلام على الطرق المسلوكة بين البلدان. ويدل كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) على الاطلاع الواسع الذي كان يتمتع به، وعلى براعته في التصنيف وعلى حسن أسلوبه. فعلى الرغم من صفته التاريخية، فإنه عالج فيه الجغرافية العامة، واهتم بوجه خاص بالجغرافية الاقتصادية في المشرق والمغرب وأوروبا.

وكذلك كان المقرئ في كتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)، على الرغم من أن هذا الكتاب هو تاريخي في الغالب، فإن للجانب الجغرافي فيه قيمة ظاهرة، والكتاب قاصر على مصر وعلى القاهرة خاصة، ولكنه يتناول طرفاً في أحوال جيران مصر، كالحبشة واليمن إضافة إلى ذكره أقسام الأرض.

وكان لبعض العلماء في هذا العصر اهتمامهم البارز في علم الملاحة البحرية، نذكر منهم شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي المتوفى سنة 895هـ/1489م، صاحب كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد). وهو كتاب في قسمين، الأول نظري في نشأة الملاحة والبوصلة وفي الأمور، التي يجب على المعلم (الريان أو قائد السفينة) أن يعرفه، وفي منازل القمر والجهات التي تهب منها الرياح، وصلة هذه الجهات بالبوصلة وتقسيماتها، وبطوع عدد من الكواكب والنجوم وبغيابها، وقسم عملي يتناول وصف الشواطئ والجزر وما عليها من العلامات، التي تساعد الربانة على الاهتداء في الملاحة وعلى الاقتراب بالسفن من مراسيها¹.

وفي هذا العصر اشتهر أمر الرحلة من المغرب والأندلس إلى المشرق وبالعكس. وقد كان الأندلسيون والمغاربة رواد هذا الميدان بصورة عامة. فقد وصل بعضهم إلى أماكن نائية في الشرق والغرب، وسجلوا كثيراً من المعلومات عن البلدان التي قصدوها بالزيارة، كانت عظيمة الأهمية في العصور التي خلت وما زالت حتى اليوم.

كان أبو حامد الغرناطي أول الذين زاروا المشرق العربي مدة قصيرة، زار خلالها الإسكندرية والقاهرة ودمشق والموصل في سنة 512هـ/1119م، واهتم بوصف فيضان النيل والأهرامات. ثم

¹ أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح، طبعة القاهرة 1966، ص 46 وما بعدها.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

انتقل بعد ذلك إلى خوارزم ثم إلى جنوب الاتحاد السوفيتي السابق والمجر، وألف كتابه المشهور (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) عن مشاهداته في هذه البلاد، فذكر أشياء من الجغرافية الوصفية والبشرية، وأشار إلى أشياء لها صلة بطبقات الأرض وعلم الحياة، فقد تكلم عن صفة البحار وعجائب حيواناتها وما في جزائرها من النفط وغيره، كما تضمن صفات الحفائر والقبور وما تضمنته من العظام إلى غير ذلك. ويمكن أن نطلق على إنتاجه العلمي هذا (الأدب الجغرافي) الذي يُعد من أقدم من ألف فيه، حيث لم يكن معروفاً في المشرق، فهو الذي أرسى قواعد هذا الفن في المشرق وربما في الأندلس¹.

جاء بعد أبي حامد الغرناطي الرحالة ابن جبير محمد بن أحمد الكناي، الذي قام برحلته إلى المشرق على أثر شيوع خبر تحرير القدس الشريف. وقد انطلق من غرناطة في سنة 585هـ/1190م، فزار الشام والعراق ومصر والحجاز، وسجل كل شيء عن مشاهداته في هذه البلاد، ولاسيما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والمنشآت العلمية والعمرائية، وفي بعض الأحيان كان يتحدث عن الأوضاع السياسية إلى غير ذلك. ويمكن ان نقول عن هذه الرحلة الموفقة، أنها موسوعة عن المشرق العربي شملت جميع نواحي الحياة، وجاءت فائدتها جمّة في الماضي والحاضر².

تلا ابن جبير الرحالة المغربي العبدري صاحب الرحلة المغربية، التي تمحورت بوجه خاص على الحياة العلمية بفسطين ومصر والحجاز. وتبعه بوقت قصير الرحالة أبو عبدالله محمد بن عمر السبتي المعروف بابن رشيد، الذي دون رحلته المسماة (ملء العيبة) في ست مجلدات، ويشبه العبدري من حيث اهتمامه بالأمور العلمية³. وعاصره جغرافي مغربي آخر، هو القاسم بن يوسف التحبيبي السبتي، الذي صنف الرحلة المشرقية، التي اقتصر فيها على مصر والحجاز،

¹ حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، طبعة مدريد 1967، ص 310.

² رحلة ابن جبير، ص 13 وما بعدها.

³ المقري: نفح الطيب، ج 2، ص 273، وما بعدها.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

ويشبه أسلوبه إلى حد بعيد أسلوب ابن جبير، ذلك لأن اهتمامات الاثنين هي واحدة تقريباً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن رحلة ابن جبير هي أكثر شمولية واتساعاً¹.

لكن الرحالة الأكثر شهرة، من حيث اتساع الرقعة العالمية التي زارها، هو ابن بطوطة الطنجي المغربي، الذي بقي أكثر من ربع قرن من الزمن يتجول في دول آسيا وإفريقيا خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ورحلته هي أوسع رحلات الأندلسيين والمغاربة، من حيث المعلومات التي اشتملت عليها.

بعد ابن بطوطة وصل إلى المشرق العربي رحالة مغربي آخر، هو علم الدين خالد ابن عيسى البلوي صاحب الرحلة المسماة (تاج المشرق في تحلية علماء المغرب والمشرق) وقد زار مصر والحجاز، وجمع بين أسلوب ابن جبير وأسلوب العبدري. ذلك لأن اهتماماته كانت في ميدان المسائل العلمية والاجتماعية والاقتصادية، ويمكن أن نقول بصدد هذه الرحلة، أنها من الرحلات ذات الطابع الموسوعي، وجاءت أهميتها من خلال المعلومات القيمة، التي احتوتها عن مناطق مصر والحجاز².

وبالجملة فقد كانت أعمال الرحلة من المغرب والأندلس باتجاه المشرق العربي في هذه الحقبة، من الأمور النشيطة جداً، وهذا الأمر تمخض عن كم هائل من المعلومات التي دونها أصحاب هذه الرحلات في مختلف الميادين، وشكلت من ناحية أخرى مصادر هامة لعدد من المؤلفين في الجغرافية والتاريخ والعلوم الأخرى، وما زالت فائدتها قائمة حتى اليوم.

في مقابل ذلك حدثت رحلات عكسية من المشرق إلى المغرب والأندلس والمناطق المجاورة لهما، لكن هذه الرحلات لم تكن كالتالي تحدثنا عنها من حيث هدفها وإنتاجها العلمي العام. فمن حيث هدفها كان في معظم الأحيان سياسياً بعكس ما كان عند الرحالة المغاربة والأندلسيين، الذين قاموا جميعاً برحلاتهم دون توجيه من سلطة معينة، على حين كان الرحالة المشاركة

¹ السبتي: مستفاد الرحلة والاعتراپ، تحقيق عبد الحفيظ منصور تونس وليبيا 1975، ص 7.

² البلوي: تاريخ المغرب في تحلية علماء المغرب والمشرق، تحقيق الحسن السانح، ص 144، وما بعدها.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

موجهين من قبل حكاهم للقيام بمهام دبلوماسية معينة، ومع ذلك فقد رصدوا مظاهر ومساائل تتضوي تحت لواء علم الجغرافية. نذكر من هؤلاء جمال الدين ابن واصل المتوفى سنة 697هـ/1298م، الذي أرسله السلطان الظاهر بيبرس إلى صقلية في سفارة دبلوماسية، وعلى الرغم من ذلك فإن ابن واصل اهتم بأشياء هامة في جزيرة صقلية، ولاسيما فيما يتعلق بتأثر أهل صقلية آنذاك بالحضارة العربية الإسلامية. فقد ذكر أن الصقليين يعملون بأساليب الإدارة العربية الإسلامية، من خلال اعتمادهم على العناصر العربية في تنظيم شؤون البلاد، ومنها وظائف البلاط الملكي. وقد ذكر أن الصقليين كانوا بصورة عامة لا يتقنون إلا بالعرب، وكان بعض ملوكهم لا يتزوجون إلا العربيات لشهرتهن بالعفة والفضيلة، وكانوا من جهة أخرى يحسنون التكلم بالعربية، وبلغ من تسامح الملك (روجار) أنه كان يضرب نقوده بكل لغات رعاياه، ومنها اللغة العربية¹.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي زار عبد الباسط ابن خليل الظاهري العديد من المدن المغربية، مثل طرابلس وتونس وتلمسان ووهران، ومن وهران انتقل إلى الأندلس إلى غرناطة، وكان بوجه زيارة قرطبة عاصمة العرب بإسبانية، لكنه لم يتمكن من تنفيذ هذه الزيارة لأسباب صحية. وفي كتابه (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) يولي مدينة غرناطة بعض اهتمامه، فقد ذكرته هذه المدينة بكل شيء بمدينة دمشق، التي كان يعرفها جيداً، وكثيراً ما يقارن في هذا الكتاب بين المدينتين، ذلك لأنهما متشابهتان من حيث الإقليم والمناخ² فكانت غرناطة تسمى دمشق الأندلس.

مهما كان واقع الحال فإن هذه الرحلات عبّرت عن شيء في غاية الأهمية، هو أن الأرض العربية في المغرب والمشرق، كانت مفتوحة أمام الجميع ولهم كامل الحرية في الانتقال من مكان

¹ الحسن السائح: مجلة البنية، العدد 3. وزارة الدولة للشؤون الإسلامية 1962، ص 38. موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين. طبعة بيروت.

² كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، ص 204.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

إلى آخر وفي كل الأوقات، دون أن يصطدموا بأية عقبة تحول دون ذلك، مع أن التجانس السياسي على صعيد الحكام لم يكن على ما يرام.

ج . الفلسفة وعلم الاجتماع والتصوف

بالنسبة للفلسفة التي كانت في العصور الوسطى تُعد مفاتيح كل العلوم التطبيقية، لم تجد أدنى اهتمام في مدة حكم الأيوبيين والمماليك موضوع هذا البحث، ذلك لأن هذه المدة اختلفت عن الأوقات السابقة، في أن سيطرة رجال الدين كانت محكمة فيها، فقد تمكنوا من إقناع الحكام بخطورة الفلسفة على الدين، وأول من تبنى هذه الفكرة من الحكام هو نور الدين محمود زنكي، وتبعه صلاح الدين الأيوبي الذي قام بتنفيذ عملية قتل الفيلسوف السهروردي صاحب كتاب (حكمة الإشراق). وكثيراً ما حلّ رجال الدين محل الحكام في عملية محاربة الفلسفة، مثال ذلك الشيخ تقي الدين بن الصلاح، الذي كان لا يمكن أحداً بمدينة دمشق من قراءة المنطق والفلسفة، ويؤيده في ذلك الحكام¹.

ولم يتغير الأمر في مدة حكم المماليك، وبقي أمر الفلسفة متعثراً وكذلك من الأمور الممنوعة على اعتبارها مكن خطر في نظر الجميع. وكان لمحاربة الفلاسفة وعلماء الكلام في هذه المرحلة أثر بالغ الخطر على حركة الإبداع بوجه عام. فحينما كان الاشتداد في إرهاب رجال هذا العلم في قمة نشاطه، كان الجميع يشنون في التهافت على اجترار العلوم الدينية والإقبال عليها إقبالاً لا نظير له².

وفي مجال علم الاجتماع فإنه علم جديد على الإنسانية، لم يظهر إلا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أسهم في ظهوره وترسيخ أسسه العامة، العالم العربي عبد الرحمن ابن خلدون المغربي المولد والنشأة والمصري الوفاة. كان ابن خلدون قد عمل في الإدارة المغربية والأندلسية ردهاً من الزمن قبل مجيئه إلى مصر، فعمل عند بني مرين بفاس، وعند بني عبد

¹ النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 20 وما بعدها.

² كرد علي: خطط الشام، ج 4، طبعة دمشق 1926، ص 55.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

الواد بتلمسان، ثم عند بني الأحمر بغرناطة. ولما سئم التطواف والمناصب وخاف عاقبة السياسة أثر الاعتزال في قلعة تقع إلى الشرق من مدينة تلمسان بالجزائر، وبقي فيها أربع سنوات يكتب تاريخه المشهور بالعبر .

وفي سنة 784هـ/1321م سار ابن خلدون من تونس إلى الحج، فلما وصل إلى مصر عرض عليه القضاء على المذهب المالكي، فقبله فتأخر ذهابه إلى الحج حتى سنة 789هـ/1387م. ولما غزا تيمورلنك دمشق ذهب السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى دمشق ليفاوض تيمورلنك، واصطحب معه نفرًا من العلماء من بينهم ابن خلدون. ثم سمع الناصر فرج بمؤامرة عليه بمصر، فاضطر للعودة، فحمل ابن خلدون مسؤولية الأمور، وذهب سرًا على رأس وفد مفاوض والتقى بتيمورلنك، وألقى بين يديه خطبة نفيسة فأكرمه تيمور عليها وأعادته إلى مصر. وقد توفي بالقاهرة سنة 808هـ/1406م¹.

امتاز ابن خلدون بسعة اطلاعه على كتابات الأقدمين وعلى أحوال البشر، وكان قادرًا على استعراض الآراء ونقدها، مع حرية في التفكير وإنصاف لأصحاب الآراء المخالفة لرأيه. ثم إنه مفكر متزن لا يميل مع الهوى، بل تراه يقيد استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الاجتماع الإنساني.

أما في حياته الشخصية فإن ابن خلدون، يعتقد أن العقل قاصر عن إدراك الحقائق الغيبية، ولذلك نراه في حياته الشخصية والعملية يعول على الشرع وحده. وأما في حياته العقلية وفي تأليفه خاصة، فإنه معتزلي التفكير يعتمد العقل والأقيسة المنطقية، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. أما بالنسبة لعلم الاجتماع فقد كان يسميه العمران، لذلك فهو عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع على أسسه الحديثة لم يسبقه إلى ذلك أحد. ثم إن علماء الاجتماع الذين جاؤوا بعده من الغربيين أنفسهم، كانوا دومًا مقصرين عنه في بعض النظريات الاجتماعية أو غافلين تمام الغفلة

¹ ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً وكذلك كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص 297 وما بعدها.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

عن عدد من قوانين العمران التي استخرجها. ولما أطل القرن التاسع عشر، واستبحر علم الاجتماع في القارة الأوربية وأمريكا، أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة الأحكام الشاملة وُبعد النظر الثاقب في ما بسطه ابن خلدون في مقدمته المشهورة¹.

لقد أراد ابن خلدون في آرائه في العمران، أن تُطبق على المجتمع العربي الإسلامي، ومع ذلك فإن قوانينه في هذا الشأن تنطبق أيضاً على غير العالم العربي الإسلامي، ولا تزال القوانين تُصدق قليلاً أو كثيراً على بيئات عديدة في أزمة عديدة مختلفة، وعلى هذا لا يكون ابن خلدون أول عالم اجتماعي في العرب فحسب، ولا هو من أكابر علماء الاجتماع فقط، بل هو أول علماء الاجتماع بإطلاق وأعظمهم إدراكاً للحقائق العمرانية الأولى في تاريخ الفكر الإنساني برمته² والعمران عند ابن خلدون هو الاجتماع الإنساني القائم على صلة البشر بالأرض المعمورة أي البيئة الطبيعية، ثم على صلة بعض البشر ببعض في المكان الواحد أو في الأمكنة المتفرقة أي البيئة الاجتماعية. ويجتمع البشر حتى يتعاونوا فيتعلموا على مصاعب البيئة الطبيعية في المقام الأول، ثم لتوفير الراحة والترف باستنباط الصناعات ووسائل التتعيم واستخراج القوانين وترتيب المعاملات والتمتع بالملاذ والشهوات، حينما تنقلب البداوة إلى حضارة مستقرة³.

يشير ابن خلدون إلى ناحية هامة جداً، تتجلى في أثر الإقليم والتربة في سكان المناطق المختلفة. فبعض أقاليم الأرض أكثر موافقة للسكنى من بعضها الآخر. والبلاد المعتدلة أكثر عمراناً من البلاد المفرطة في الحر أو البرد. وإذا أفرط الحر في البلاد اسود جلد أهلها، وغلبت عليهم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص موصوفين بالحمق. أما سكان البلاد الباردة، فيغلب عليهم الإطراق إلى حد الحزن ثم التفكير في العواقب. ثم إن الأقوات تختلف باختلاف الأقاليم وتترك أثرها في الناس، فإن الإفراط في الخصب والنعيم والأطعمة الغليظة،

¹ ساطع الحصري: مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر 1953، ص 110 وما بعدها.

² المرجع السابق، ص 13، وما بعدها.

³ ابن خلدون: المقدمة، ص 41 وما بعدها.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

يورث قلة المناعة في الجسم، ويورث البلادة، والغفلة وقبح الأشكال، كما أن الجوع المفرط ينهك الجسم والعقل، غير أن أهل البلاد المجدية أقدر على احتمال المجاعات¹.

وقال ابن خلدون، بأن للعرمان الحضري خصائص مميزة، كالأستقرار أي النزول في بلد كبير نزولاً دائماً، والعمل في وجوه المعاش الحضريّة من تجارة وصناعة وزراعة، وكالتوسع في المآكل والملبس والمسكن، فأول ما يقوم به المتحضر، يوسع على أهله ونفسه وأتباعه في المآكل ثم الملابس ثم المساكن، والترف الذي يعني إلى الإخلاق إلى الراحة والإغراق في النعيم وما إلى ذلك².

وعن الدولة ونشوتها وعمرها واستمرارها، ذكر عدة ملاحظات جديرة بالتقدير والاحترام، من ذلك قوله أن للدولة نطاق من الأرض لا تتعداه، وإذا كان أهل عصبيتها أكثر عدداً كانت هي أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً. وقال إن الدين وحده لا ينشئ دولة، بل لابد للدين نفسه من عصبية حتى ينتشر ويستقر.

والدولة في رأي ابن خلدون تمر بأربعة أجيال، مدى كل جيل ثلاثون سنة، فيصبح عمر الدولة مئة وعشرين سنة قد تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً. ففي الجيل الأول يكون جانب أهل الدولة مرهوباً والناس له طائعين، وأما في الجيل الثاني فإن الملك يتحول بالتurf من البداوة إلى الحضارة، لكن أهل الدولة يظلون يتذكرون شيئاً من مجدهم الأول، فيحاولون التشبه بأهل الجيل الأول ويدافعون عن دولتهم. وفي الجيل الثالث ينغمس أهل الدولة في الترف وينسون عهد البداوة، وتذهب عصبيتهم جملة ويعجزون عن المدافعة، ولا يبقى لهم إلا مظاهر القوة من الشارة وركوب الخيل بلا فروسية ولا شجاعة، عندئذ يحتاج صاحب الدولة إلى أن يستظهر بغيره. أما في الجيل الرابع فتنهار الدولة نهائياً³.

¹ ابن خلدون: المقدمة، ص 82 وما بعدها.

² ابن خلدون: المقدمة، ص 172.

³ ابن خلدون: المقدمة، ص 175 وما بعدها.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

ويقول ابن خلدون عن التعليم، أنه ضرورة مطلقة للمجتمع والحياة، والعلوم عنده صنفان، صنف يهتدي إليه الإنسان بفكره كالعلوم الرياضية والطبيعية والعقلية، وصنف مستند إلى الواضع الشرعي كعلوم الدين.

ويرى من جهة أخرى، أن التعليم صناعة خاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين، لا حملهم على حفظ فروع العلم، وهو يضع للتعليم منهجين يجب أن يطبقا في وقت واحد، فنهج التوسع ومنهج التدرج. يبدأ تعليم الصغير بالتدرج به من الأسهل إلى الأقل سهولة، وهكذا إلى آخر المطاف.

ويشدد على عدم اتباع الشدة في عملية التعليم، وبخاصة تعليم الصغار، لأن الشدة مضرة بهم، لأنها تحول دون اكتساب الملكة. وكذلك يرى أن التعلم لا يحصل كله بالاستعداد والجد، وإن هناك جزءاً طبيعياً يكتسب بالفطرة، إذا ترك الإنسان فسحة للعقل كي يستريح.

وله رأيه في الكثير من الموضوعات الأخرى، كالفلسفة والتاريخ والكيمياء وعلم النجوم وغيرها، وهي مسائل تستوجب وقفة مطولة في غير هذا المقام، ذلك لأننا حرصنا في غاية الحرص أن نلتزم في حدود العنوان الذي وضعناه في البداية وهو علم الاجتماع، الذي كان ابن خلدون مبتكره وواضع دعائمه الأولى، كما اعترف بذلك الباحثون الأوربيون وغيرهم من بقية علماء المعمورة، وقد طُور هذا العلم في المرحلة اللاحقة، حتى غدا من العلوم المتقدمة والضرورية لتنظيم أي مجتمع من المجتمعات.

أما بخصوص التصوف في هذه الحقبة، فقد كان على نوعين، تمثل النوع الأول بمجموعة من المتصوفين، الذين اعتادوا حياة معينة في الرباطات والزوايا والخانقاهات، التي خصصت لهم بوجه عام، وقد تميز نشاطهم في العبادة والورع والدعوة إلى تمثل السلف الصالح في الحياة الدنيا، كالبساطة في العيش والورع وقهر النفس. وتمثل النوع الثاني بعدد من المتصوفين، الذين اختلفوا عن السابقين اختلافاً جذرياً في كل شيء، لذلك يمكن أن نسمي هذا النوع بالتصوف الفلسفي. لذلك فلم يحظ هؤلاء المتصوفون بما حظي عليه أتباع النوع الأول من احترام وقبول

شعبي كبير، على الرغم من جهل أفراده في كل المجالات، ومع أنهم شكلوا تياراً مغايراً تماماً لتعاليم الدين الإسلامي، ذلك لأن الإسلام يرفض التواكل والكسل والتعاس والدعة، ويحض على العمل ويقده¹.

وقد نال أتباع هذا النوع من المتصوفة عناية فائقة من المماليك وقد تجسد ذلك على أرض الواقع ببناء الكثير من أماكن الرباط والزوايا وما شابه ذلك في مصر والشام، وهي أماكن كان يعيش فيها المتصوفون وتصرف عليهم الدولة في كل الوجوه. وكان المماليك يهدفون من وراء ذلك إقناع العرب بوجه خاص، بأنهم حريصون على حماية الشعائر الدينية وما يتصل بها من أشياء وأمور، وقد وصل الأمر ببعض السلاطين المماليك أنه كان يُجلس إلى يساره بعض هؤلاء المتصوفة، وذلك في المناسبات الكبيرة كعيد الفطر وعيد الأضحى أو المولد النبوي².

تركز وجود هؤلاء المتصوفة بوجه خاص بالقاهرة والقدس الشريف ودمشق والحجاز، واشتهر بعضهم عند الناس بأعمال خارقة تشبه السحر والشعوذة.

وبالجملة فإن متصوفة هذا النوع، لم يقدموا للمجتمع في مصر والشام في هذه الحقبة أية مبادرة إيجابية يمكن أن نتوقف عندها، ومع ذلك فقد قوبلوا على الدوام بمزيد من الاحترام والتقدير.

أما النوع الثاني من المتصوفة، فقد كان أصحابه أصحاب نظريات وطرق صوفية عُرفت واشتهرت في العصور الوسطى، وما زالت حتى يومنا هذا. وأثار بعض هذه النظريات جدلاً كبيراً، لم يتوقف حتى الآن، وبخاصة نظرية ابن عربي في وحدة الوجود، التي أثارته عليه نقمة الكثيرين في مصر والشام، على حين قوبل آخرون بالرضا والتقدير والقبول.

ومذهب ابن عربي في وحدة الوجود، مبني على أساس أنه لا وجود إلا وجود الله، وما ذلك التعدد المرئي في المخلوقات في العالم إلا ضرب من الوهم في حقيقته، تقر فيه العقول البشرية التي عجزت

¹ آسين بالاثيوس: ابن عربي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، طبعة القاهرة 1965، ص 70.

² ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 12، ص 73.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

عن امتلاك القدرة على تمثيل هذه الحقيقة، التي هي وحدة الوجود. ويشرح ابن عربي مذهبه هذا بشيء من التفصيل في كتابيه (الفتوحات المكية) و(نصوص الحكم) ففي الجزء الثاني من الكتاب الأول، يلجأ إلى الإشارة إلى مذهبه باختصار حينما يقول: «سبحان من خلق الأشياء وهو عينها». ويؤمن ابن عربي بالفيض الذي يقصد، أن الله سبحانه وتعالى أبرز الأشياء من وجود علمي إلى وجود عيني، ويفسر وجود المخلوقات بالتجلي الإلهي الدائم الذي لم يزل ولا يزال، وظهور الحق في كل آن فيما لا يحصى عدده من الصور¹. وهذا التعدد في الصور والأشياء، لا يعدو كونه وهمياً لا حقيقة له، يقول: «ثم السر الذي فوق هذا في هذه المسألة، أن الممكنات على أصلها من العدم وليس وجود الحق بصور ما هي من الممكنات في أنفسها وأعيانها»². إذن وجود الممكنات في رأي ابن عربي هو عين وجود الله، وما ذلك التعدد إلا وليد الحواس والعقل الإنساني القاصر، الذي يقف عاجزاً عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء، التي إذا نظر إليها من حيث ذاتها قيل هي الحق، وإذا نظر إليها من حيث صفاتها، قيل هي الخلق³.

وقد أدى به القول بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان، فهو لا يفرق بين سماويها وغير سماويها، إذ إن الجميع يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات، فالغاية من عبادة العبد لربه في رأيه، هي التحقق من وحدته الذاتية معه، والباطل من العبادة، أن يقصر العبد ربه على مجلس واحد دون غيره ويسميه إلهاً⁴.

وقد أثارت مؤلفات ابن عربي، وبخاصة التي يتحدث فيها عن مذهبه في وحدة الوجود جدلاً كبيراً، فأيده قسم وعارضه قسم آخر. ومهما يكن من أمر فإن ابن عربي كان أهم شخصية في العصور الوسطى في مجال التصوف الفلسفي، من حيث تأثير إنتاجه الفكري والثقافي الذي كان

¹ ابن عربي: فصوص الحكم، ج 1، طبعة بيروت بلاتا ص 28. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج 1، طبعة أولى القاهرة 1938، ص 188 وما بعدها.

² ابن عربي: فصوص الحكم، ج 1، ص 96.

³ ابن عربي: فصوص الحكم ج 1، ص 24.

⁴ دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية مجلد 1، ص 233.

جديداً ومبتكراً في زمانه¹ فكان بذلك صاحب أول مذهب فكري جديد ومبتكر، انفرد به وتميز عن كل علماء عصره. فمنذ أن توفي لم تمض مدة زمنية إلا وكانت له فيها سيرة وذكرٌ وحديثٌ عن أفكاره ومذهبه السابق الذكر. كما اعتنق مذهبه العديدون من علماء العصور الوسطى وشعرائهم ومفكرهم، وهذا الأمر لم يحدث لأحد من قبله أو بعده².

من الذين اشتهروا بعد ابن عربي في مجال التصوف، يمكن أن نذكر علي بن عبدالله الشاذلي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة 656هـ/1258م. ويعد صاحب الطريقة الشاذلية، التي تختلف عن طريقة ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، الذي يبحث في ماهية وجود الله وتحديد هذا الوجود بصورة ثابتة ونهائية، تختلف عنها بأنها تجسد خمسة ثوابت رئيسية، هي ممارسة المحبة بين الناس، والسعي وراء المعرفة والعلم، والعمل.

3. تطور العمران وهندسة البناء في عصر الأيوبيين والمماليك

اختلف هذا العصر عن كل العصور السابقة تماماً في مجال المنجزات العمرانية على كل صعيد. مثال ذلك أن كل الدول التي سادت في الحقب السابقة، عملت على بناء مدينة أو أكثر باستثناء الأيوبيين والمماليك، الذين لم يلتفتوا لمثل هذه الأمور على الإطلاق. ففي العصر الراشدي أمر الخليفة عمر بن الخطاب ببناء مدينتين في العراق، هما البصرة والكوفة لإقامة الجند ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى أن أصبحت هذه المدن لسكنى المدنيين من مختلف الأصناف. وفي العصر الأموي بنيت ثلاث مدن، هي القيروان بالمغرب الأدنى (تونس الحالية) لتكون قاعدة انطلاق للقوى العربية الفاتحة لبقية أجزاء المغرب الكبير، وتطورت فيما بعد لتصبح عاصمة لكل الدول التي تعاقبت على حكم المغرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ومدينة واسط بالعراق بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في منطقة متوسطة بين البصرة والكوفة، لتكون قاعدة لإقامة والي العراق في العصر الأموي، ومدينة الرملة إلى الغرب من القدس الشريف بمئة

¹ ابن عربي: فصوص الحكم، ج 1، ص 25.

² آسين بالاثيوس: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 273 وما بعدها.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

وخمسين كيلومتراً على البحر المتوسط بفلسطين، بناها الخليفة سليمان بن عبد الملك حينما كان ولياً للعهد لتكون مكاناً لإقامته، وهو الذي أحب الإقامة بفلسطين لأسباب خاصة لا نعرفها على وجه الحقيقة.

أما في العصر العباسي فقد بنيت مدينة بغداد، لتكون العاصمة الجديدة للدولة العباسية بدلاً من دمشق، بنيت على نهر دجلة في عصر الخليفة أبي جعفر المنصور، ثم بنيت مدينة سامراء في عصر المعتصم لتكون عاصمة جديدة للدولة العباسية، أراد من بنائها تخليص أهل بغداد من تصرفات واعتداءات الترك، الذين كانوا يمثلون معظم قوة الجيش آنذاك، ثم بنيت مدينة المتوكلية إلى غير ذلك.

وفي الأندلس بنى الأمويون في عصر الإمارة والخلافة العديد من المدن، مثل مجريط (مريد الحالية) ومرسية على أنقاض تُدمير، وطمنكة، ومدينة الزهراء التي بناها الناصر لدين الله في أثناء خلافته بالأندلس إلى الشمال الغربي من قرطبة، والزاهرة التي بناها الحاجب محمد بن أبي عامر في شرق قرطبة، ومدينة المرية التي بنيت على البحر المتوسط في جنوب الأندلس لتصبح أهم مرفأ أندلسي في العصور الوسطى إلى غير ذلك من حصون وقصور تطور بعضها إلى مدن.

وفي المغرب قامت الدول المنفصلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ببناء عدد من المدن الجديدة لتكون بمثابة عواصم تميزها عن الدول الأخرى المجاورة، فبنى الأغالبة عدة مدن بالمغرب الأدنى مثل رقادة إلى جنوب القيروان وغيرها، وبنى الخوارج الإباضيون مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر) في عمالة وهران اليوم، وبنى الخوارج الصفريون مدينة سجلماسة (تافيلالت اليوم) بجنوب المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم). وحينما سيطر الفاطميون على المغرب الكبير، بنوا عاصمة لهم في شرق تونس هي المهديّة على البحر المتوسط.

وفي عصر المرابطين الذين حكموا المغرب الكبير والأندلس مدة قرن تقريباً، بنوا عاصمة لهم

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

هي مدينة مراكش، وكذلك فعل الموحدون الذين خلفوهم في الحكم حتى سنة 668هـ/1270م، فبنوا مدينة الرباط الحالية لتكون عاصمة لدولتهم، وكانت تسمى في عصرهم رباط الفتح.

كذلك فقد خلا العصر الأيوبي والمملوكي موضوع هذا البحث من بناء القصور الملكية، التي عُرِف بناؤها في العديد من المناطق العربية في الشرق والغرب، مثل القصور الأموية في بلاد الشام، والقصور الأموية بالأندلس، وقصور حكام الطوائف الذين جاؤا بعدهم في حكم الأندلس أيضاً، ثم القصور التي بناها العباسيون في بغداد وغيرها، وقصور بعض حكام الدول المنفصلة في المغرب الكبير ومصر بوجه خاص.

وهكذا فقد انحصر اهتمام الحكام والناس بعامة في هذا العصر ببناء المدارس ودور التعليم، ثم ببناء المساجد، ثم ببناء القلاع العسكرية الجديدة وتطوير القلاع التي كانت قد بنيت في العصور السابقة. ففي المجال الأول وهو بناء المدارس، فإن من الممكن القول إن الاهتمام فيه بدأ منذ عصر نور الدين محمود زنكي، ثم استمر في عصر الأيوبيين، وتطور من حيث الكم والكيف في عصر المماليك. وكان السبب في إقامة هذه المدارس منذ البداية، هو تدريس العلوم الدينية من قراءات وفقه وتفسير وحديث وترويجها بين الناس، من أجل الحفاظ على هذه العلوم من هجوم مضاد هو هجوم العلوم العقلية التي هزمت في هذا العصر شر هزيمة، ومع مرور الأيام سمح ببعض الكراسي لمدرسي علوم اللغة العربية وعلوم الطب. وسنقتصر في هذا الميدان على ذكر المدارس الكبيرة والشهيرة مراعين في ذلك التسلسل الزمني قدر الإمكان. ففي مدينة القاهرة بنيت عشرات المدارس وكذلك بالإسكندرية، نذكر منها على سبيل المثال المدرسة الفاضلية نسبة إلى عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل في عصر الأيوبيين، ومدرسة الكامل الأيوبي التي اشتهرت بدار الحديث الكاملة، التي بناها في منطقة ما بين القصرين بالقاهرة سنة 622هـ/1226م لتدريس الحديث النبوي الشريف، والمدرسة الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب، التي بنيت بالقاهرة سنة 639هـ/1242م في منطقة بين القصرين، والمدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس، التي بناها بالقاهرة في منطقة بين القصرين، والمدرسة المنصورية نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون في منطقة بين

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

القصرين، وقد خصصت للتدريس على جميع المذاهب الإسلامية المعروفة إضافة إلى قبة خاصة لتدريس الحديث عرفت في العصور الوسطى بالقبة المنصورية، ومثلها كانت المدرسة الشيخونية التي بناها الأمير المملوكي شيخون، هذا بالإضافة إلى خانقاه لإقامة الصوفية والزهاد، ومدرسة السلطان حسن بالقلعة، التي قيل عنها إنها كانت من أضخم وأوسع مدارس مدينة القاهرة¹.

أما في بلاد الشام فقد بنيت مدارس مماثلة وبخاصة في مدينة دمشق، التي كانت تماثل القاهرة في هذا المجال الهام، فمن أهم مدارس دمشق مدرسة دار الحديث النورية نسبة إلى بانيها نور الدين محمود زنكي، وهي أول دار حديث بنيت في مصر والشام، ثم المدرسة الظاهرية إلى الشمال الغربي من المسجد الأموي وهي من بناء السلطان الظاهر بيبرس، وكانت وما زالت من أهم مكتبات دمشق، وكانت إلى عهد قريب تسمى بالمكتبة الوطنية، حيث نقلت معظم محتوياتها إلى مكتبة الأسد بساحة الأمويين، والمدرسة العادلية التي تعرف بالعادلية الكبرى، وهي من مدارس الشافعية بدمشق، تقع إلى الشمال من المسجد الأموي بدمشق تجاه المدرسة الظاهرية يفصل بينهما الطريق، أول من أنشأها نور الدين زنكي، وتوفي ولم يتمها ثم بنى بعضها الملك العادل الأيوبي، وتوفي ولم تتم، فأكملها ولده معظم سنة 619هـ/1223م². وكانت إلى عهد قريب مقراً لمجمع اللغة العربية، والمدرسة الناصرية البرانية والتي تعرف أحياناً بالرباط الناصري، كانت إحدى مدارس الشافعية بدمشق بسفح قاسيون في محلة الفواخير، أنشأها صلاح الدين بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر عزيز الدين غازي بن صلاح الدين الأيوبي³. ثم المدرسة الجقمقية بالقرب من المسجد الأموي إلى الشمال الشرقي قليلاً، وهي الآن مقر الخط العربي وهي من أحسن مدارس دمشق في العصور الوسطى، هذا إضافة إلى الشامية البرانية في أول حي ساروجة من جهة الجنوب الشرقي، وقد رمت أخيراً وأصبحت من أهم معالم منطقة حي ساروجا

¹ انظر عن هذه المدارس: علي مبارك، الخطط التوفيقية ج 6، ص 12 و 14، ج 1، ص 15.

² الدارس في تاريخ المدارس للنعمي دمشقي، ج 1، ص 348 و 359.

³ النعمي دمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 115.

بدمشق، أضف إلى ذلك عدداً جماً من المدارس المتفرقة هنا وهناك. وكانت هذه المدارس سواء بالقاهرة أو دمشق أو أي منطقة أخرى بمثابة كليات جامعية بكل ما تعنيه هذه العبارة.

أما بخصوص المساجد التي بنيت في هذا العصر، فهي من الكثرة والتعدد في مصر والشام، بحيث يستحيل الحديث عنها في هذا المكان، وسنذكر فقط تلك المساجد التي بناها رجال الحكم، ذلك لأنها تميزت بالضخامة والانتساع والفخامة والإتقان، فقد غلب على هذه المساجد شكل المربع الكبير، وكل مسجد كان يحتوي على صحن كبير تحيط به أربعة إيوانات كان أكبرها إيوان القبلة. وفي عصر المماليك المتأخر وهو العصر الذي يسمى عادة بعصر المماليك الجراكسة، أصبح بناء المسجد يميل إلى عدم الضخامة والانتساع إلى درجة اختفى عندها ذلك الصحن الواسع المكشوف، الذي كان من أهم ما يميز الجامع في عصر المماليك البحرية. ومن أهم المساجد مسجد الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم من سنة 699 إلى سنة 741هـ بالقاهرة، وقد استغرق بناؤه ثلاث سنوات بدأت سنة 741 وانتهت في سنة 743هـ، وقد تميز هذا المسجد باتساعه وضخامته وزخارفه وروعته الفنية، إلى درجة وصفوه بأنه تحفة فنية غالية الثمن. كما شهدت دمشق مسجداً من هذا الطراز ولكن على نسخة أصغر من حيث الحجم، وهو مسجد تنكز الذي كان من أهم ولاية ونواب بلاد الشام عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد أعطاه لقب أمير أمراء الشام وكبيرهم، ويقع هذا المسجد إلى الغرب من قلعة دمشق ببضعة مئات من الأمتار. وفي سياق هذه المساجد يمكن ذكر مسجد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، الذي جاء هو الآخر تحفة رائعة من حيث تصميمه الرائع وقبته العظيمة وزخارفه الجميلة الدقيقة¹.

وبرغم روعة هذه المساجد واتساعها، فإنها لم تصل إلى روعة وعظمة تلك المساجد التي شيدت في الحقب السابقة، كالمسجد الأموي بدمشق على سبيل المثال، ذلك لأن الفنانين المعماريين في هذا العصر على ما يبدو لم يكونوا في مستوى أولئك الذين أبدعوا في هندستهم للمساجد السابقة الذكر، وبخاصة في ميدان المآذن والقباب من حيث الانتساع والضخامة والارتفاع.

¹ زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص 73.

..... من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية: العلوم والهندسة في عصر الأيوبيين

بقي أن ننوه بالمنجزات الأيوبية والمملوكية في مجال بناء القلاع وترميمها، وفي ذلك نقول إن معظم القلاع، التي استعملها الأيوبيون والمماليك في هذه الحقبة، كانت قد بنيت في أوقات سابقة باستثناء بعضها بني في أغلب الظن من أجل تنفيذ مهمة عسكرية بحتة، ويعود ذلك إلى أمرين هامين، الأول أهمية القلاع في هذا العصر في ميدان التركيز عليها لأن تكون قاعدة دائمة للحكام والسلاطين، سواء كان ذلك في عاصمة الدولة أو في مختلف النيابات العامة بمصر والشام، أما الثاني فيتجسد في أهمية القلاع على الصعيد العسكري، وبخاصة في أثناء الحروب الفرنجية في بلاد الشام ولمدة مئتي سنة، من نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ذلك لأن الفرنجة حرصوا على احتلال القلاع واتخذوها مواقع استقرار لهم في مناطق استراتيجية في بلاد الشام، ولاسيما في المناطق الساحلية التي ركزوا على احتلالها في سورية وفلسطين والأردن ولبنان.

ففي حماه بوسط سورية بنى الملك ناصر الدين محمد بن مظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب قلعة، قيل أنها تضاهي قلعة مدينة حلب، وما زالت بعض آثارها قائمة حتى الآن. وفي حمص بنى الملك المجاهد صاحب حمص قلعة في سنة 627هـ/1230م. وفي الرحبة الميادين اليوم إلى جنوبها على ضفة الفرات اليمنى بنى أسد الدين شيركوه خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قلعة مهمة، وقد شغلت دوراً مهماً في أحداث تلك المنطقة. وفي وسط مدينة سلمية بمحافظة حماه، بنى الملك مظفر تقي الدين أبو الفتوح محمد بن الملك المنصور في سنة 620هـ/1223م قلعة، وقد درست برمتها ولم يبق منها سوى بعض أسوارها الخارجية. لكن القلعة الأهم كانت قلعة شميميس خارج مدينة سلمية على قمة جبل يعرف باسمها، وقد بناها السلطان المجاهد صاحب حمص في سنة 627هـ/1230م، وما زالت هذه القلعة حتى اليوم في حالة جيدة. وفي معرة النعمان بالقرب من حلب السورية، بنى سيف الدين علي بن أبي علي قلعة في هذه البلدة في سنة 631هـ/1233م. كما قام صلاح الدين الأيوبي بالسيطرة على القلعة التي تسمى باسمه اليوم في شرق مدينة اللاذقية بنحو 35 كم، ثم أمر بترميمها وتجديدها وإطلاق اسمه عليها، وتُعد من أهم القلاع في المنطقة الساحلية ببلاد الشام،

وهي بحالة ممتازة، وتستقطب مجموعة كبيرة من السياح الأوروبيين وغيرهم.

يضاف إلى كل ذلك أن المسؤولين في هذه المرحلة، حرصوا على أن تكون القلاع بحالة ممتازة، ذلك لأنهم كانوا يميلون إلى الاستقرار فيها سواء كان ذلك في حالة الحرب أو السلم، لأنها على ما يبدو كانت أمينة أكثر من غيرها من المواقع العمرانية المنقرقة، بسبب أنها أُحيطت بحراسة مشددة، ولا أدل على ذلك من قلعة الجبل بالقاهرة، التي بقيت طوال عصر المماليك مقر إقامة السلاطين، الذين عملوا على توسيعها وتقسيمها بشكل يستوعب جميع مساعدي السلطان ومعاونيه، من نواب وإداريين ووزراء وخدم وحرس، إضافة إلى الحريم وبقية الحشم وبذلك يمكن أن نقول، أن القلاع الرئيسة وبخاصة في المدن الكبرى بمصر والشام، كالقاهرة ودمشق وحلب، كانت عبارة عن مدن صغيرة فيها كل ما تحتويه المدن الكبرى من أنشطة وممارسات عامة.

وكان مما أثار اهتمام حكام هذه الحقبة في ميدان العمارة، هو التركيز على إقامة بعض القصور، التي اختلفت من حيث مهمتها العامة، فبعضها بل معظمها أُقيم من أجل التمتع والنزهة، وبعضها أُقيم ليكون بمثابة مقر للحاكم يمارس فيه كل وسائل الحكم من إدارة وتوجيه أمور الدولة أو النيابة. فمن النوع الأول يمكن أن نذكر قصر الأمير بشتاك الذي بناه خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، الذي زال معظمه باستثناء القاعة الكبرى وما حولها من غرف وكذلك بابه، وتمتاز هذه القاعة بزخارفها وتزييناتها البديعة، ثم قصر الأمير قوصون بالقرب من المدرسة المعروفة بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة، الذي بني أيضاً في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وقصر الأمير طاز بالقاهرة بشارع السيوفية، ولم يبق من هذين القصرين سوى قاعاتهما الكبيرة. ومن النوع الثاني نذكر القصر الأبلق بدمشق.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير (علي بن محمد الشيباني) الكامل في التاريخ طبعة دار صادر بيروت 1965.
- الإدريسي (محمد بن محمد) صفة المغرب وأرض مصر والأندلس (جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) مطبعة بريل ليدن 1964.
- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم الخزرجي) عيون الأبناء في طبقات الأطباء الطبعة الأولى، المطبعة البهية 1882 والطبعة الثانية بيروت 1982.
- ابن أبي حجلة (شهاب الدين أحمد) سكردان السلطان، الطبعة الثانية 1957.
- ابن أبي الصلت (أمية) الرسالة المصرية الطبعة الثانية مصر 1972.
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفه النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار طبعة دار صادر بيروت 1964.
- ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة تحقيق جمال الدين الشيال وفيهم شلتوت وجمال محمد محرز وإبراهيم طرخان طبعة القاهرة 1972.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور بعد الوافي تحقيق أحمد نجاتي طبعة دار الكتب القاهرة 1956.
- ابن جبير (محمد بن أحمد) رحلة ابن جبير دار صادر بيروت 1959.
- ابن الجزري (محمد بن محمد) غاية النهاية في طبقة القراء طبعة السعادة القاهرة 1932 و 1933.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة طبعة حيدر آباد الدكف 1348 هـ، 1349 هـ/1350 هـ.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد الأربلي) وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس طبعة دار صادر بيروت 1970 - 1971.
- ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر والمبتدأ والخبر طبعة بيروت بدون تاريخ.
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تحقيق محمد بن تايوب الطنجي طبعة القاهرة 1951.
- ابن دحية . المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق مصطفى عوض الكريم الطبعة الأولى جامعة الخرطوم 1954.
- الذهبي (محمد بن أحمد) العبر في خبر من غير تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة الكويت 1963 و 1966.
- ابن رافع السلامي (محمد) كتاب الوفيات تحقيق عبد الجبار زكار طبعة دمشق 1986.
- سبط ابن الجوزي (يوسف بن قز أوغلي) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان طبعة حيدر آباد الركن 1951 و 1952.
- السبكي (عبد الوهاب) طبقات الشافعية، الطبعة الثانية بيروت بدون تاريخ.

التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع طبعة القاهرة، مكتبة القدسي 1353 هـ ومكتبة المتنى 1354 هـ.
- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب تحقيق شوقي ضيف المكتب التجاري القاهرة 1964.
- الصفدي (صلاح بن أبيك) الوافي بالوفيات طبعات مختلفة لأجزاء الكتاب المتعددة.
- الطرطوشي (محمد بن الوليد) سراج الملوك طبعة الإسكندرية 1289 هـ.
- القفطي (علي بن يوسف) أخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة القاهرة 1326 هـ.
- القلقشندي (أحمد بن علي) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء طبعة وزارة الثقافة بمصر 1963.
- ابن كثير (إسماعيل بن عمر) البداية والنهاية طبعة بيروت 1966.
- الكتبي (محمد بن شاکر) فوات الوفيات تحقيق محي الدين عبد الحميد طبعة القاهرة 1951.
- كرد علي (محمد) خطط الشام طبعة دمشق 1926 و 1928.
- المقرئزي (أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور طبعة القاهرة 1964 و 1970.
- النعيمي دمشقي (عبد القادر) الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني طبعة دمشق 1948.
- النويري (أحمد بن عبد الوهاب) نهاية الأرب في فنون الأدب طبعة القاهرة 1923.

مراجع أجنبية

- Iram lapidus - middle eastern cities university of California. press. 1969.
- George. E. Kirt. A short history of the middle east from rise of Islam to modern times Ed-London unthout date.

الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

أ. تيسير عبد الله الناعس
كلية الشريعة - جامعة دمشق
سورية

1. مقدمة

تأتي أهمية البحث من كونه يتناول دراسة الصناعة كأحد وجوه المكاسب في أهم المصادر الموسوعية التي رصدت الحياة الاجتماعية في عصر النهضة من الحضارة العربية الإسلامية، حيث استوعبت "رسائل إخوان الصفا" الأفكار الاقتصادية الصناعية التي كانت سائدة في المجتمع بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين، فقدّمت صورة متكاملة عن الصناعات والصنّاع، وأثرهم في الحياة الاقتصادية، فأعطت نموذجاً متقدماً عن علم الاجتماع الصناعي العربي الإسلامي في العصور الوسطى.

2. التعريف برسائل إخوان الصفا

كتم إخوان الصفا أسماءهم، وأسروا عددهم، وامتنعوا عن البوح بأسرار جماعتهم، ولم يصل من آثارهم إلا الرسائل، فكثرت النظريات التي تحاول فك لغز إخوان الصفا، ولا تزال حتى الآن مثاراً للجدل والتخمين¹.

أما الرسائل فتقسم إلى نوعين:

الأول: رسائل موجّهة لتنقيف العامة ونشرها بين عامة الناس، وعددها إحدى وخمسون رسالة.

¹ محمد عبد الحميد الحمد، صابئة حران وإخوان الصفا، دار الأهالي، ط 1، دمشق 1998م، ص 145.

وقد تطلّب ذلك أن تُكتب بلغة سهلة مستمدة من حياة الناس اليومية.

والثاني: رسالة واحدة يختص تداولها بين المنتسبين لهذه الحركة، وتسمى الرسالة الجامعة.

تتاولت نصوص الرسائل جميع فروع المعرفة، فظهرت كموسوعة معارف جمعت المعطيات العلمية والفلسفية والدينية الذائعة في عصر أصحابها¹.

وهي من أهم وثائق التراث العربي الإسلامي، بما تمثل من النقاء تيارات متعددة وأفكار مختلفة اشتركت في بنائها، لتظهر هذه الأفكار في النهاية كدائرة معارف ذات هدف واضح وتخطيط محكم².

أخذت الرسائل مادتها العلمية من المصادر الآتية³:

- الكتب المصنفة على أسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعات.
- والكتب السماوية المنزلة على الأنبياء مثل التوراة والإنجيل والقرآن.
- والكتب الطبيعية، وهي صور أشكال الموجودات بما عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج، وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات، وأصناف المصنوعات.
- الكتب الإلهية التي لا يمسه إلا المطهرون الملائكة، التي هي بأيدي سفرة كرام بررة، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها.

3. المصطلحات الاقتصادية الصناعية الواردة في الرسائل

أولى إخوان الصفا العناية بالمصطلحات الاقتصادية الصناعية، فبيّنوا بالتعريف والأمثلة أهمّها، ومن هذه المصطلحات:

1 عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت 1983م، ص 384.

2 سيد حسن نصر، "رسائل إخوان الصفا هويتها ومحتواها"، مجلة المعرفة السورية السنة التاسعة والعشرون العددان 322-323 (تموز «يوليو» آب «أغسطس» 1990م، ص 51.

3 عادل العوا، الموسوعة العربية، مج 1، ص 559. (إخوان الصفا)

..... الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

- الجَدَق في الصنائع: "هو تحصيل الصورة في الهيولى، وتتميمها وتكملتها؛ لينال الانتفاع بها في الحياة الدنيا"¹.
- "الخلق: هو تقدير كل شيء من شيء آخر، والمصنوع ليس هو بشيء غير كون الصورة في الهيولى، وأما الإبداع والاختراع فهو إيجاد شيء لا من شيء"².
- الصانع: هو مَنْ يُؤَلَّف الأجسام بعضها إلى بعض، ويركَّبها"³، والصنَّاع: "هم الذين يعملون بأبدانهم، وأدواتهم في مصنوعاتهم الصور والنقوش والأصباغ والأشكال، وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لصالح معيشة الحياة الدنيا"⁴.
- الصنائع: هي "تأليف الأجسام بعضها على بعض"⁵.
- الصنعة العملية: "هي إخراج الصانع العالم الصورة التي في فكره ووضعها في الهيولى. والمصنوع: هو جملة مجموعة من الهيولى والصورة جميعاً"⁶.
- العلوم: "هي صور المعلومات في نفس العالم"⁷، أو: "العلم ليس بشيء سوى صورة المعلوم في نفس العالم، وأن الصنعة ليست شيئاً سوى إخراج تلك الصورة التي في نفس الصانع العالم ووضعها في الهيولى"⁸.
- "الغرض: هو غاية تسبق في علم العالم أو في فكر الصانع، ومن أجله يفعل ما يفعله، فإذا بلغ إليه قطع الفعل وأمسك عن العمل"⁹.

¹ رسائل إخوان الصفا، مطبعة نخبة الأخيار، الهند 1888م، ج 1 ص 30.

² رسائل إخوان الصفا، دار صادر، بيروت د. ت، ج 3 ص 472-473 .

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 50.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 31.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 50.

⁶ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 25.

⁷ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 25.

⁸ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 110.

⁹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 359.

- "المال: فنية جسدانية تُقام بها حياة الجسد في دار الدنيا"¹.
- المصنوعات البشرية: "مثل ما يعمل الصنّاع من الأشكال والنقوش والأصباغ في الأجسام الطبيعية في المدن والأسواق وغيرها من المواضع.
- والمصنوعات الطبيعية: هي صور هياكل الحيوانات وفنون أشكال النبات وألوان جواهر المعادن"².
- وعرفوا الأشياء التي يحتاجها الصانع في تنميص صنّعته، فقالوا: "الجسم الواحد يسمى تارة هيولى، وتارة موضوعاً، وتارة صورة، وتارة مصنوعاً، وتارة آلة، وتارة أداة.
- وإنما يسمى الجسم هيولى للصورة التي يقبلها، وهي الأشكال والنقوش والأصباغ وما شاكلها.
- ويسمى موضوعاً³ للصانع الذي يعمل منه وفيه الأشكال والنقوش.
- وإذا قبل ذلك سمي مصنوعاً.
- وإذا استعمله الصانع في صنّعته أو في صنعة أخرى يسمى أداة.
- مثال ذلك: قطعة حديد، فإنه يقال لها هيولى لكل صورة تقبلها، ويقال لها أيضاً إنها موضوع للحدّاد الذي يعمل فيها صنّعته، وإذا أصلح الحدّاد منه سكيناً أو فأساً أو منشاراً أو مبردأ أو غير ذلك، سمي مصنوعاً، وإذا استعمل السكين القصبّاب أو غيره، يسمى أداة، وهكذا الفأس وغيرها...
- والفرق بين الآلة والأداة، أن الآلة هي اليد والرجل والرأس والعين، وبالجملة أعضاء الجسد. وأن الأداة ما كانت خارجة من ذات الصانع، كفأس النجّار ومطرقة الحدّاد وإبرة الخيّاط وقلم الكاتب"⁴.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 54.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 26.

³ ذكر إخوان الصفا أن الموضوع في صناعة البشر نوعان؛ روحاني وجسماني: فالروحاني: هو موضوع الصنائع العلمية، والجسماني: هو الموضوع في الصنائع العملية، وهو نوعان: بسيطة ومركبة، فالبسيطة هي النار والهواء والماء والأرض، والمركبة ثلاثة أنواع: وهي الأجسام المعدنية والأجسام الطبيعية والأجسام الحيوانية. رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 27-28.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 26-27.

4. أسس الاجتماع الصناعي

يستند الاجتماع الصناعي عند إخوان الصفا إلى الأسس الآتية:

1.4. تعدد الحاجات الإنسانية وتنوعها: من المأكولات، والمشروبات، واللباس، والمسكن،

والمركب، والأثاث، وما لا بد منه في قوام الحياة الدنيا¹.

ويحتاج قضاء كل واحدة من هذه الحاجات إلى إحكام صنائع شتى²، فيكون اتخاذ اللباس بصناعة الحياكة، وصناعة الحياكة لا تتم إلا بصناعة الغزل، وصناعة الغزل لا تتم إلا بصناعة الندف، وصناعة الندف لا تتم إلا بصناعة الحلج، وهكذا³.

2.4. التعاون في الصناعات: يحتاج الصناعات إلى معاونة بعضهم في الأسواق، كمعاونة

الحدادين للنجارين، والنجارين للبنائين، وكتعاون الحلج للنداف، والنداف للغزاليين، والغزاليين للنساج، والنساج للخياطة وما شاكل ذلك⁴.

فيضطرهم التعاون في قضاء الحاجات وطيب العيش إلى الاجتماع في المدن والقرى⁵.

3.4. اختلاف الاختيارات المركوزة في جبلّة الإنسان: وذلك أن من الناس من تُيسر له أسباب

الحرف والصناعات، وآخر أسباب العمل والتصرف، وآخر أسباب التجارات والبيع والشراء، وآخر أسباب البطالة والفراغ⁶.

فأوجبت الحكمة الإلهية أن يشتغل جماعة منهم بإحكام الصناعات، وجماعة في التجارات، وجماعة بإحكام البنيان، وجماعة بتدبير السياسات، وجماعة بإحكام العلوم وتعليمها، وجماعة بالخدم والسعي في حوائجهم؛ لأن مثلهم في ذلك كمثل إخوة من أب واحد في منزل واحد

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 309.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 52.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 30.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 2 ص 390.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 52.

⁶ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 51.

متعاونين في أمر معيشتهم، كل منهم في وجه منها¹.

4.4. **الحرص في طلب المرغوب:** وهو من خصال الفطرة المركوزة في الجبلة؛ لأن الإنسان لما خلق محتاجاً إلى مواد لبقاء هيكله ودوام شخصه مدة ما، وإبقاء صورته في نسله زماناً ما، جعل في طبعه وجبلة الرغبة في الدنيا والحرص في طلبها، والجمع لها، والادخار والحفظ لوقت الحاجة إليها؛ لأن الإنسان لا يجد في كل وقت وفي كل زمان ما يريده وما يحتاج إليه.

وهذا الجمع والحفظ للرغائب قسماً؛ محمود ومذموم:

- فيكون الجمع والادخار لوقت الحاجة محموداً إذا كان بمقدار الحاجة، واستعمل ما ينبغي كما ينبغي.

- ويكون مذموماً إذا كان أكثر من الحاجة، أو جمع ولم يُنفق ولم يستعمل في وقت الحاجة إليه، التقتير، أو أنفق واستعمل الحرص فيما لا ينبغي الإسراف².

ويطلق على سياسة تدبير وإصلاح المعاش بمقدار الحاجة ودون تقتير أو إسراف: الطريقة الوسطى في طلب معيشة الحياة الدنيا³.

5. أقسام الصنائع

توجد تقسيمات عديدة للصنائع في الرسائل، كتقسيمها بحسب الحاجة إليها، أو بالنظر إلى مكانتها بين الصنائع الأخرى، كالاتي:

أولاً: قسموا الصنائع بحسب الحاجة إليها إلى: صناعات ضرورية، وصناعات الجمال والزينة⁴.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 51-52.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 79.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 5-6.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 30.

..... الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

1.1.5. أما الصناعات الضرورية، فهي ثلاثة: الحراثة، والحياسة، والبناء. وأما سائرها فتابعة ومكملة:

أ. لما خُلِق الإنسان محتاجاً إلى القوت والغذاء، والقوت والغذاء لا يكونان إلاً من حب النبات وثمر الشجر، دعت الضرورة إلى صناعة الحراثة والغرس، ولما كانت صناعة الحرث محتاجة إلى إثارة الأرض وحفر الأنهار، ولا يتم ذلك إلاً بالمساحي والفُدن وما شاكلها، والمساحي والفُدن لا يكون إلاً بصناعة النجارة والحدادة، دعت الضرورة إلى اتخاذهما، وصناعة الحديد محتاج إلى صناعة المعدن وإلى صنائع أخر، فصارت كلها تابعة وخادمة لصناعة الحراثة والغرس، ولما كان حب الزرع وثمر الشجر يحتاج إلى الدقّ والطحن، دعت الضرورة إلى اتخاذ صناعة الطحن والعصر، ولما كان الطحن لا يجري الغذاء به إلاً بعد الخبز، دعت الضرورة إلى صناعة الخبز والطبخ، وكل واحد منهما محتاج إلى صناعة أخرى متممة لها.

ب. ولما خُلِق الإنسان رقيق الجلد عرياناً من الشعر والصوف والوبر والصدف والريش وما هو موجود لسائر الحيوان، دعت الضرورة إلى اتّخاذ اللباس بصناعة الحياكة، ولما كانت الحياكة لا تتم إلاً بصناعة الغزل، وصناعة الغزل لا تتم إلاً بصناعة الندف، وصناعة الندف لا تتم إلاً بصناعة الحلج، فصارت هذه الثلاثة تابعة لها وخادمة، وأيضاً لما كان اللباس لا يتم إلاً بالحياسة فحسب، صارت صناعة الخياطة والقصارة والطرز متممة لها ومكملة.

ج. ولما كان الإنسان محتاجاً إلى ما يكفئه من الحر والبرد والتحرُّز من السباع وتحصين القوت، دعت الضرورة إلى صناعة البناء، وصناعة البناء محتاجة أيضاً إلى النجارة والحدادة، وكل واحد منهما محتاجة إلى صناعة أخرى معينة أو متممة لبعض.

2.1.5. وهناك صناعة الجمال والزينة، فهي كصناعة الديباج والحريز، وصناعة العطر وما شاكلها.

ثانياً: وفاضلوا بين الصنائع من وجوه عديدة، فأشرف الصنائع من جهة الهيولى الموضوع

فيها، فمثل صناعة الصاغة والعطّارين وما شاكلها، وأشرف الصنائع من جهة النفع لعموم الناس، فمثل صناعة الحّمّامين؛ وذلك أن الحّمّام المنفعة فيه للصغير والكبير والشريف والذنيء والغريب والقريب، كلها بالسوية، لا يتفاضلون في الانتفاع بها، وأما أكثر الصنائع فأهلها متفاوتون في منافعها، كاختلافهم في الملابس والمأكولات والمسكنات، وأمثالها من الأمتعة المصنوعة، حال الغني فيها خلاف حال الفقير¹.

ثالثاً: كما قسموا الصنائع كقسمة طبقات الناس، فعلم الحساب كالمك؛ لأنه يحتوي على سائر العلوم والصنائع، ثم تتدرج الصنائع بعد ذلك حتى تنتهي إلى صنائع العامة وأصحاب المهن الخسيصة والصنائع القبيحة².

6. التخصص في الصنائع

تناول إخوان الصفا موضوع التخصص من جوانب عدة، كالآتي:

1.6. التخصص قوام طيب العيش الهني: فالإنسان الواحد لا يقدر أن يعيش وحده إلاّ عيشاً نكداً؛ لأنه محتاج إلى طيب العيش من إحكام صنائع شتى، ولا يمكن الإنسان الواحد أن يبلغها كلها؛ لأن العمر قصير والصنائع كثيرة، فمن أجل ذلك اجتمع الناس في المدن والقرى لمعاونة بعضهم بعضاً³.

2.6. التخصص من قواعد تعلم الصنائع: كل صانع من البشر لا بد له من أستاذ يتعلم منه صنعته أو علمه، وذلك الأستاذ من أستاذ له قبل، وهكذا⁴. فمن الناس من هو مطبوع على تعلم صناعة واحدة أو عدة صنائع بسهولة في قبولها، ومن الناس من لا يتعلم الصناعة البتة⁵.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 32.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 396.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 52.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 37.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 34.

..... الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

ويمتتع ارتياض النفس الواحدة بجميع أصناف العلوم؛ لأن كلية العلوم موضوعة بإزاء قوى نفوس جميع الناس، كما أن كلية الصناعات البشرية موضوعة بإزاء قوى أجساد جميع الصنّاع، فلا يتهيأ لإنسان واحد بقوته الجزئية الاستنباط بجميع العلوم والاحتمال لسائر الصنّاع¹.

فالسبب في تعدد الصنّاع واختلافها يعود إلى اختلاف طبائع الناس وجواهرهم، وما يشترك كل واحد منهم إليه بما يوافق طبيعته ويناسب جوهره من الصنّاع، مثل اختلاف شهواتهم ومآكلهم ومشاربهم وجميع أحوالهم². فعمارة الحياة الدنيا مبنية على التضاد والاختلاف في الأفعال والأعمال³.

قال إخوان الصفا: "... وكلها يحتاج الإنسان فيها إلى التعلم والنظر والروية والاعتبار، وبهذا العلم يتفاضل الناس بعضهم بعضاً، كل واحد يختص بشيء منها"⁴.

فتتعدد اختيارات الناس نحو علوم الصنّاع والأعمال؛ لصالح الموجودات وإبقائها على أفضل الحالات وأتم الغايات، وهذا من تدبير الله تعالى وحده؛ لأن تدبير البشر يكون بالاتفاق والتنظيم أما تدبير الله فيكون بالاختلاف والتنوع والتضاد.

3.6. وسائل اختيار الصنّاع الملائمة لطباع الصبيان: يقول الصبيان في تعليم الصنّاع يتنوع بحسب طباعهم المختلفة، فكان اليونان الذين كانوا في قديم الزمان إذا أرادوا تسليم الصبي إلى صناعة من الصنّاع اختاروا له يوماً من الأيام وأدخلوه إلى هيكل الصنّاع وصور سائر الكواكب، وقربوا قرباناً لصنم ذلك الكوكب الذي دلّ على صناعته وسلّموه إلى تلك الصناعة، بعدما يكونوا عرفوا ذلك من مولده. وإن لم يكونوا عرفوه من مولده عرضوا عليه الصنّاع المصورة في ذلك الهيكل، فأرغب في واحدة منها، وبعد توقيفهم له على أحوال تلك الصنعة سلّموه إليها⁵.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 404، 426.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 394.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 395.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 81.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 35.

4.6. صناعة الآباء والأجداد أنجع في الأولاد من صناعة الغرياء، وخاصة من دل مولده عليها، ويكونون فيها أحذق وأنجب: ومن أجل هذا أوجبوا في سياسة أردشير بن بابكان على أهل كل طبقة من الناس لزوم صناعة آبائهم وأجدادهم قطعاً، وأن لا يتجاوزوها، وزعموا أن ذلك فرض من الله¹.

5.6. يجب على الرعية بعد الطاعة للملك أن يُعرّفه كل واحد منهم ما عنده من المعرفة، وما يحسن من الصناعة، وما يصلح له من الأعمال؛ لئُنزل الملك كل واحد منهم منزلته، ويستخدمه فيما يحسن، ويستعين به فيما يصلح له².

6.6. يؤثر المناخ في التخصص: حيث يؤدي اختلاف ترب البلاد وأهويتها إلى اختلاف طباعهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم، لا يشبه بعضهم بعضاً، بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه الأشياء لا يشاركها فيها غيرها³.

7.6. إذا كثرت الأعمال من الإنسان ألبسته من الأخلاق بما توجهه عادته التي قد دام عليها وعرف بها⁴، فلكل صنف منها أخلاق وطباع وسجايا ومآرب أكسبتهم إياها أعمالهم وأوجبتها لهم متصرفاتهم⁵.

7. الجودة الصناعية

1.7. تعددت المصطلحات والأفكار التي تناولت موضوع الجودة في الصنائع عند إخوان الصفا، فعبروا عنها بمصطلحات الحذق والإتقان والإحكام.

وأشاروا إلى أثر الجودة في الأثمان والأجور، حتى يستحق كل إنسان من الأجرة بحسب

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 35.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 2 ص 241، ج 4 ص 133.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 4، ج 2 ص 300.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 297.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 55.

..... الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

اجتهاده في العمل ونشاطه في الصناعات¹؛ لأنه مركوز في جِبِلَّة العقول أن الصنعة المتقنة لا تكون إلا من صانع قدير².

ويشكل هذا حافظاً مادياً لكل صانع أن تكون مصنوعاته على أتقن ما يمكن³، ويجتهد في أن يُحكم صناعته إحكاماً أجود ما يقدر عليه⁴.

كما أشاروا إلى أثر التخصص والقرابة في الجودة، فلكل صناعة أهل يكونون فيها أحذق وأنجب⁵، وأشد تهيئاً لقبول صناعتهم⁶.

ولم يقصروا على بيان أثر الحوافز المادية وحدها في الجودة، فأضافوا لها الحوافز المعنوية أيضاً؛ وذلك عندما عدُّوا الحِذْق في كل صنعة هو التشبه بالصانع الحكيم جلَّ جلاله، ويقال: إن الله يحب الصانع الفاره الحاذق، فالباري جلَّ تآؤه أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأصنع الصناعات وأفضل الأخيار، فكل من ازداد في هذه الأشياء درجة ازداد من الله قربة⁷.

وبيَّنوا ضرورة علم الهندسة في جودة الصناعات، فيحتاج إليه الصنَّاع في التقدير قبل العمل؛ لأن الصانع الذي يؤلَّف ويركَّب الأجسام لا بد له أن يقدر المكان؛ في أي موضع يعملها، والزمان؛ في أي وقت يعملها ويبتدئ فيها، والإمكان؛ هل يقدر عليه أم لا؟ وبأي آلة وأداة يعملها؟⁸.

وهناك نوع من الصناعات استخرجها الصنَّاع بذكائهم وصفاء قريحتهم، لم يُسبقوا إليها⁹.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 53.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 2 ص 115.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 463.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 359.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 37، 141.

⁶ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 45.

⁷ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 34.

⁸ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 50.

⁹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 50.

2.7. والمصطلح المقابل لمصطلحات الجودة السابقة عند إخوان الصفا هو: الشبه، وعدّدوا

أسباب دخول الشبه في الصنائع والأعمال، وهي الآتي:

أ. أن يتعاطى الصناعة العلمية من ليس من أهلها، أو كان ناقصاً فيها، أو ساهياً عنها.

ومن أجل ذلك قيل: استعينوا على كل صناعة بأهلها¹.

ب. عوائق أخرى، مثل: علة في المادة، أو عسر الهولى عن قبول الصورة، أو عدم الأدوات

والآلات، أو ضعف القوة والنسيان والغفلة والسهو، أو قلة المعرفة بالحدق في الصنعة².

8. الحالة الاقتصادية للصناع

الناس أصناف وطبقات في متصرفاتهم في أمور الدنيا، لا يحصي عددها إلا الله جل ثناؤه،

كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 13]، ولكن يجمعهم كلهم هذه السبعة

أقسام:

وذلك أن منهم أرباب الصنائع والحرف والأعمال، ومنهم أرباب التجارات والمعاملات

والأموال. ومنهم أرباب البنايات والعمارات والأماك. ومنهم الملوك والسلطين والأجناد وأرباب

السياسات. ومنهم المتصرفون. ومنهم الخدّامون والمتعيشون يوماً بيوم. ومنهم الزمئى والغطل

وأهل البطالة والفراغ. ومنهم أهل العلم والدين والمستخدمون في الناموس³.

ولكل واحد من هذه الأصناف وظائف وأعمال يختص بها:

- فبالأجناد يبطش الملك بأعدائه، ومن خالف أمره من الثوار والخوارج واللصوص وقطاع الطرق

والغوغاء والعيارين، ومن يريد الفتنة ويثيرها ويريد الفساد في الأرض.

- وبالوزراء والكتّاب والعمّال وأصحاب الدواوين وجباة الخراج يجمع الملك الأموال والنخائر

وأرزاق الجند، وما يحتاج إليه من الأمتعة والثياب والأثاث.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 52.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 359، 463.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 55.

..... الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

- وبالبنائين والدهَّانين والمزارعين وأرباب الحرث والنسل تعمر البلاد ويتم تدبير قوام أمر المعاش للكل.

- وبالقضاة والعلماء والفقهاء الذين هم قوام الدِّين وحكَّام الشريعة يحفظ الملك الرعية والأمة، ويسوسهم ويدبر أمورهم على أحكمه وأحسنه.

- وبالتجَّار والصنَّاع وأصحاب الحرف والمتعاونين في المعاملات والتجارات يتم أمر المعاش وطيب الحياة¹.

وأرباب الحرف والصنائع والأعمال من طبقة الفقراء، والحكمة من كون الصنَّاع من هذه الطبقة هو الحث لهم على الاجتهاد في اتخاذ الصنائع والثبوت فيها².

قال إخوان الصفا: "وأما الفقراء؛ فهم الصنَّاع والذين يعملون بأبدانهم، واتكالهم على صناعتهم وقوة أبدانهم"³.

ولأن الغرض من الصنائع في الدنيا صلاح الجسم وقوامه على الحالة الصالحة، فإن من وُقِّع لنيل ما به قوام جسمه من علم واحد ومعرفة واحدة فقد نال السعادة الكاملة والنعمة الشاملة⁴.

كما طالبوا الصنَّاع بالاجتهاد في العمل واكتساب المال أيام القوة والنشاط من العمر؛ حتى يستغنوا عن السعي ويستريحوا من العمل عندما تضعف قوة البدن⁵.

وهو ما يفسر توجه إخوان الصفا لإخوانهم بالأمر بالاجتهاد في الطلب والسعي في الاكتساب⁶؛ ليكونوا ذوي غنى عن الحاجة إلى من سواهم في جميع ما يحتاجون إليه من أمر

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 2 ص 299-300.

² رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 1 ص 31.

³ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 69.

⁴ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 395.

⁵ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 3 ص 295.

⁶ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 394.

معيشة الدنيا، ولأن بلوغ النفس حدَّ الطمأنينة في الدنيا لا يكون بغير صلاح معيشة الدنيا¹.

9. الخاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1.9. أكد إخوان الصفا في المصطلحات التي ساقوها حول الصناعة إلى تميز العمل الصناعي عن وجوه المكاسب الأخرى بعنصرين أساسيين: مباشرة الصانع للعمل، والدُّربة والخبرة الناتجة عن الممارسة.

2.9. ترجع أسس الاجتماع الصناعي عند إخوان الصفا في قسم منها إلى طبيعة المشكلة الاقتصادية، مثل: تعدد الحاجات الاقتصادية الإنسانية، ويرجع القسم الآخر منها إلى دوافع فطرية جبليّة، مثل: الحرص في طلب المال.

3.9. ليست الصناعات عند إخوان الصفا على درجة واحدة من الأهمية، وليس للتفاضل بين الصناعات قانون ثابت مطرد عندهم.

4.9. تتعدد العوامل النفسية والموضوعية المؤثرة في تقسيم العمل الفردي؛ لذلك تتعدد طرق الكشف عن نوع العمل المناسب للتعليم، وتأتي الاختبارات المهنية ومراعاة حرفة الآباء والأقارب في مقدمتها.

5.9. يرى إخوان الصفا أن التخصص الدولي يعود إلى تنوع واختلاف الظروف المناخية الطبيعية الجيو اقتصادية.

6.9. تستند الجودة الصناعية في فكر إخوان الصفا إلى ركنين: التخصص في العمل، والتعليم المهني.

7.9. يعد مستوى الدخل من أهم معايير التفاضل بين الصناعات عند إخوان الصفا.

8.9. دعا إخوان الصفا الصنّاع إلى تحسين حالتهم الاقتصادية؛ للاحتفاظ بجزء من الدخل وادخاره للمستقبل.

¹ رسائل إخوان الصفا، مرجع سابق، ج 4 ص 411-412.

..... الأفكار الاقتصادية الصناعية في "رسائل إخوان الصفا"

المصادر والمراجع

- رسائل إخوان الصفا. ج 1: مطبعة نخبة الأخيار، الهند 1888م. ج 2-4: دار صادر، بيروت د. ت.
- سيد حسن نصر. "رسائل إخوان الصفا هويتها ومحتواها". مجلة المعرفة السورية السنة التاسعة والعشرون العددان 322-323 تموز «يوليو» آب «أغسطس» 1990م.
- عادل العوا. الموسوعة العربية. إخوان الصفا
- عمر فروخ. تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون. دار العلم للملايين، ط 4، بيروت 1983م.
- محمد عبد الحميد الحمد. صابئة حران وإخوان الصفا. دار الأهالي، ط 1، دمشق 1998م.

التعريف بالكتب

الدراسات المعجمية لدى محمد البكري في كتاب "شفاء القلب العليل بتحقيق شرم منظومة البكري عن أوصاف الخيل"

د. عز الدين حفار

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

الجزائر

مقدمة

إن الباحث الأول على الاهتمام بدلالات ألفاظ اللغة العربية، هو فهم وتفسير ألفاظ القرآن الكريم، وألفاظ الحديث النبوي الشريف أولاً، والحفاظ على اللغة العربية ثانياً. وعليه، فالاهتمام بالجانب الدلالي للألفاظ لم يقتصر على اللغويين فقط، وإنما كان قاسماً مشتركاً بين عدة علوم، كأصول الفقه، والفقه، وعلوم الحديث، وعلوم التفسير، وعلم المنطق...

ومما يستوقف الناظر، أن مرحلة جمع اللغة وتدوينها، كانت فتحاً مبيناً على الدرس اللغوي العربي، فهبَّ نفرٌ من اللغويين يؤلفون، ويصنفون رسائل لغوية، وكل رسالة تعالج موضوعاً واحداً، بحيث كان اللغوي يجمع كل الألفاظ التي تدخل في حقل واحد. "... والذي يذكر بالضرورة هو أن اللغويين العرب القدماء تقطنوا تطبيقاً وممارسة في وقت مبكر إلى فكرة الحقول"¹.

ونستنتج مما تقدم، أن صناعة المعاجم اللغوية بدأت بالرسائل اللغوية ذات الحقل الدلالي

¹ عزوز أحمد، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، ص 21.

الواحد، ثم أوجت للغويين بضم هذه الرسائل في شكل كتاب واحد يسمى بالمعجم.

ومن الرسائل التي ألفت في الحقل الدلالي الواحد نذكر على سبيل التمثيل:

- رسائل في الإبل "لأبي عمرو الشيباني، والنضر بن شميل، والأصمعي..."¹.
- ورسائل في أسماء الأسد: "لعبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي"².
- رسائل في خلق الإنسان "لأبي مالك الأعرابي عمرو بن كركرة، أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس..."³
- ورسائل ألفت في: الأنواء، والبيئر، والحشرات، والزرع، والطير، والسلاح...⁴
- أما في مجال الخيل، فنجد رسائل عديدة مثل: "أبي مالك الأعرابي، وأبي عمرو الشيباني، والأصمعي، وابن الأعرابي محمد بن زياد"⁴.
- وفي أسماء الخيل نجد: "هشام بن محمد بن السائب الكلبي"⁵، وفي أنساب الخيل نجد: "ابن دريد، واليزيدي، والزرجاج، والنضر بن شميل، وقطرب، وأبو عبيد، والمدائني، وأبو محم الشيبان، والرياضي، وابن قتيبة"⁶.

تصنف هذه الرسائل ضمن ما يسمى حديثاً، بمعجم المعاني، أو الموضوعات، أي الكلمات ترتب فيها وفق الحقل الدلالي، ولعل الغاية من تأليف هذه الرسائل "إضافة إلى خدمة أغراض اللغة، وبيان وجوهها، ومداخلها، وتلونات أبعادها، القصد التعليمي الذي يسعى لتقليب وجوه البحث اللغوي، ووضع مادة اللغة بين أيدي طلابها"⁷.

¹ عبد الجليل عبد القادر، المدارس المعجمية، ص 425.

² المرجع نفسه، ص 425

³ المرجع نفسه، ص 426

⁴ المرجع نفسه، ص 426 وما بعدها.

⁵ المرجع نفسه، ص 427.

⁶ المرجع نفسه، ص 427.

⁷ المرجع نفسه، ص 48.

وقد يجد الباحث، أو الطالب صعوبة في انتقاء الكلمة المناسبة أثناء الحديث أو الكتابة، ومثل هذه الرسائل تمدد بالعون المطلوب "لا عندما يعسر عليه المعنى، ولكن عندما يستعصي عليه لفظ يوافق معنى يدور في خاطره"¹؛ لأن ترتيب هذه المعاجم، قد خالف المعاجم السابقة، بحيث لم تصنف الألفاظ وفق النقلييات الصوتية أو الألفبائية، وإنما بتجميع الألفاظ حسب الحقول التي تنتمي إليها، ومن هنا فهي تسعى إلى وضع "مفردات اللغة في شكل تجميعي يحقق لها التركيبية وينفي عنها التفكيك"² لأنها تضم الألفاظ التي تنتمي إلى مجال واحد.

ومن المعاجم اللغوية العربية التي شاكلت الرسائل اللغوية نجد معجم "الغريب المصنف لأبي القاسم بن سلام، ومعجم كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ، لأبي يوسف يعقوب ابن السكيت، والمنجد لكراع النمل، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، ومختير الألفاظ لأحمد بن فارس، وفقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي.

ويعد المخصص لابن سيده (ت 458هـ)، أكمل هذه المعاجم، وأكثرها إحاطة بالموضوعات، بحيث عمد مؤلفه إلى تصنيفه وفق الحقول الدلالية، فحاول استقصاء الحقول والألفاظ التي ترتبط فيما بينها بعلاقات دلالية، فالمخصص "... يتكون من مفردات اللغة التي تصنف حسب معانيها ودلالاتها، ليجعل هذه المعاني والدلالات أبواباً وفصولاً يضم الفصل المفردات التي تدور في فلك واحد وتعبّر عن مجال أو موضوع واحد، فالعلاقات بينها دائمة لا أعني العلاقات اللفظية كما هو في المعجم الاشتقاقي، بل العلاقات الدلالية"³.

يحتوي المخصص على خمسة موضوعات وهي: خلق الإنسان، والحيوان، والطبيعة بعامّة، والإنسان في المجتمع، وقد أفرد القسم الأخير من معجمه لمعالجة المسائل الصرفية.

¹ ظاها حسن، كلام العرب، ص 148.

² عيد محمد الطيب، المعجمات اللغوية ودلالات الألفاظ، ص 39.

³ المرجع نفسه، ص 39.

الدراسات المعجمية لدى محمد البكري

التعريف بمحمد البكري:

ولد العلامة الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن بن محمد الطيب بالزاوية البكرية، بمدينة أدرار سنة 1260هـ ترعرع بين أحضان أهواله، وتلقى العلم على خاله وشيخه سيدي الحسن بن سعيد وعليه حفظ القرآن الكريم، وأخذ الفقه والحديث، واللغة العربية، والتفسير. ثم أخذ العلم عن الشيخ العلامة سيدي مولاي عبد الحاكم، وكان لهذا الشيخ فضل كبير في العلم والتربية. فقد... "خلع عليه مولاه من العلوم الظاهرة والباطنة ما لا يدخل تحت حصر من غير عناء ولا مشقة ولا ترداد على مجالس العلماء ولا كثرة مطالعة للكتب بل قذفه الله في قلبه كما قيل: ليس العلم بكثرة الروايات وإنما العلم هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده¹ توفي - رحمه الله - عام 1339هـ.

مؤلفاته - رحمه الله تعالى:

1. له منظومة ذات فصول سماها المعيار في ذم الاستقصاء للناظر.
2. أرجوزة طويلة تتضمن ثلاثة علوم: التوحيد والفقه والتصوف.
3. أكثر من ثلاثين قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.
4. له منظومة على البادسية.
5. قصائد في مدح آل البيت ومدح الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ محمد البكري بن سيدي عبد الكريم، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وشرفاء تردانت.
6. نبذة في علم الميراث.

تلاميذه:

خلف الشيخ محمد البكري - رحمه الله تعالى - عدداً كبيراً من التلاميذ، أشهرهم:

¹ انظر، المرجع نفسه، ص 27-45.

..... الدراسات المعجمية لدى محمد البكري

- الشيخ الفاضل سيدي عبد العزيز بن الصافي من الزاوية البكرية.
- الشيخ الفاضل سيدي البكري بن محمد الصالح من الزاوية أيضاً.
- الشيخ محمد بن عبد الوافي البكري.
- الشيخ سيدي سالم بن محمد الطيب من الزاوية.

التعريف بمحقق المخطوط:

أخرج هذا المؤلف النفيس إلى النور، فضيلة الشيخ بن سالم بن عبد الكريم، فإنه يعود الفضل في شرح وتوضيح ما أشكل منه، فجاء واضحاً مفهوماً.

ولد هذا العالم في سنة 1969م ببلدة زاوية الشيخ بن الكريم المغيلي التابعة لزاوية كنتة بولاية أدرار، الجزائر وما فتئت مدينة أدرار تثبت العلماء والفقهاء، وقد كان والده الشيخ عبد القادر بن سيدي سالم، من كبار علماء المنطقة من توات وصالحيةا.

بدأ حفظ القرآن الكريم وعمره لا يتجاوز السادسة، على يد الشيخ أحمد اجدير بمدرسة الطلحاي سليمان، ثم انتقل إلى مدرسة مسجد محمد بن الخطاب بحي الحطابة عند الشيخ مسعود بوسعيد.

ثم ختم القرآن الكريم، ودرس مبادئ النحو والفقهاء بزاوية الشيخ المغيلي، على يد الشيخ الحاج أحمد لحسين من سنة 1978 إلى غاية 1982م.

ثم التحق بالمدرسة الفقهية بسالي، ومكث فيها ثلاثة سنوات يتلقى العلم على يد الشيخ مولاي عبد الله بن الشيخ العلامة مولاي أحمد.

ثم واصل تعليمه بالمدرسة الفقهية على عالمها التحرير الشيخ محمد بلكبير - رحمه الله تعالى.

التحق بالمدرسة الوطنية لتكوين الأئمة بولاية سعيدة لمدة أربع سنوات، ثم تخرج منها سنة

1991م. يعمل حالياً إماماً بمدينة أدرار. له عدة بحوث وقصائد¹.

منظومة محمد البكري على أوصاف الخيل:

وفيما يلي، نورد المنظومة التي ألفها الشيخ محمد البكري على أوصاف الخيل يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً:
فإن تسألني عني وما كان سانحا
بفكري فألقى السمع يارية الخبا
تريني يا أم البنين محدثا
بغير قراع الدارين الكتاببا
وما همتي إلا جهاد أمة
من الكفر والأرجاس أسقيهم العطببا
على أجرد نهد أقب نعامي
طمر هضب سايح يثم الهضببا
جواد حصان صافن مؤرب وءا
مسح كميث عجلره تدرربا
فيا حبذا عنجوج مرخاء محضير
أمين عناية لدى المزية القرى
هو الجرشع العلي الأقطار نحضه
فقل خاطي غرد النسا يرسل الرعبا
هو الناشر الأكتاد ما شأنه فجا
ولا نهك ولا وجا لا ولا شظا
ولاصكك ولا دخيس تكعببا
لنسر كملفوظ النوى أو كما الحصا
له حوشب يكتن منه تهذببا
هو السامي القصيرى سام تليله
إلى كلكل ضخم رحيب تركببا
قريب الذي بين المطى وقطأته
بجرم دسيع مفعم يهصر العضببا
لموحاه الحاظ اللئى بهما قبل
بعكس القدال والصلا يعرض الشبا
إلى صهوة اخلولقت لتسنم
لإعليطي المرخ اللذين تقلببا
ترى ذاك المداخل الخلق قد مسد
إلى رحب شجر في كلام تصوبا
طويل التليل والذراع وأذنه
إذا ما دعا خفا كما الريح إن هبا
قصر العسيب والمطأ الرسغ محربا
رحيب مناخر وجوف وجبهة
وصافيا لأديم العين والحافر أعبا

¹ انظر، البكري، شفاء القلب العليل، ص 176.

طويل سيبُ فوق الأرض تصوبا
خوافي عقاب الجو إن خفتت ضريا
لعتق مبين في نجار تطيبا
له أفكَلعن صحة الطبع أعربا
إلى حَارِك مثل الغبيط المدأبا
ريان العَسِيبُ من جنوب ومن نكبا
صليبين أصمعين منه تصلبا
وعدو لسرحان وتثقل انصبا
دَرِير كخدروف الوليد مصوبا
من النخل نضرا كما الزهو أطربا
أسافل عرقوب للأعداء عرقبا
بقي من نخيل للمعاكسة انسبا
وأفعاله في الكون حسبي به ربا
إلى حادث تصغى الى عينه الرقيبى
وأعتبه مهما يحمم مرعبا
محمدا البكري يوما إذا كبا
ويعقب يسر الله ممتهن الصعبا

صَالِعُ يشيل الذيل في وقت عدوه
له تُنُّ سود سوايغ لونها
له سُنُّبُك لم يُنُّه وقت شره
له خفقان لا يهدن روعه
له كَفَل كالدَّعْص لبد بالندى
إلى كونه عَبْلُ الجُرَاة والشوى
إلى كون مَنُّه مذاك عروس في
إلى أيطلي ظبي وساقى نعمه
إلى كونه الجَيَّاشُ في الذَّبْلَانِه
به أنبت الرحمن للخير ستة
بدير حزام في عذار أمام في
كذا عصرة الركاب سادسها وما
فما ثم إلا الله لا رب غيره
ترى أذنه على الدوام كأنها
سأقحمه وسط الوغى إن وجدته
فإن تعذلي أم البنين وتعتبي
فان الخطوب سحب صيف ستجلي

الدراسة المعجمية لأوصاف الخيل:

- الأَجْرُدُ: "القصير الشعر وضده مزموم"¹. جاء في اللسان: "الأجرد من الخيل والدواب كلها: القصير الشعر حتى يقال إنه لأجرد القوائم، وفرس أجرد: قصير الشعر"².

¹ شفاء القلب العليل، ص 88.

² لسان العرب، ج 2، ص 235.

يقول الجوهري: "وفرس أجرد، وذلك إذا رقت شعرته وقصرت؛ وهو مدح"¹.

• تَهْدُ: "طويل عال مشرف"².

يقول صاحب اللسان: "وفرس نهدي: جسيم مشرف: تقول منه: نهدي الفرس بالضم، نهودة؛ وقيل: كثير اللحم حسن الجسم مع ارتفاع"³.

• أَقْبُ: "الضامر الباطن"⁴. يقول ابن منظور: "الأقْب الضامر، وجمعه قَب. ابن الأعرابي: قَب

إذا ضمير للسباق، وقَب إذا خف: وألقب والقِب: دقة الخصر وضمور البطن ولحوقه... هو أَقْب والأنتى قباء... قال الشاعر يصف فرساً:

اليد سابحة والرجل طامحة والعين قاذحة والبطن مقبوب

أي قَب بطنه... وهو شدة الدمج للاستدارة..."⁵.

• نَعَامِي: "منسوب إلى نعامة، وهو فحل كريم للحارث بن عباد، إليه تنسب الخيول الكريمة،

وليس المشروط أن يكون من هذا الفحل المذكور، بل المراد أن يكون شريف النسب من أي

فحل كريم كان، لأن من كرم الخيل أن المهر تسري إليه أو صاف أبيه لا يترك منها شيئاً،

فذلك كانت العرب تحافظ على أنساب خيولها كما تحافظ على أنسابها"⁶.

جاء في اللسان:

ويكون مركبك والقلوص ورحله وابن النعامة يوم ذلك مركبي

ابن النعامة فرس خزز بن لوذان السدوسي، والنعامة أمه فرس الحارث بن عباد"⁷.

¹ الصحاح، ج 2، ص 455.

² شفاء القلب العليل، ص 88.

³ لسان العرب، ج 14، ص 301.

⁴ شفاء القلب العليل، ص 88.

⁵ لسان العرب، ج 11، ص 6.

⁶ شفاء القلب العليل، ص 88.

⁷ لسان العرب، ج 14، ص 212.

● **طَمْرٌ**: "سريع"¹.

"قال السيرافي: الطمْر مشتق من الطُمور، وهو الوَثْب، وإنما يعني بذلك سرعته"².

● **هَضْبٌ**: "كثير العرق لأنه أدعى إلى اتساع جلده، وسلامته من احتباس الفضلات في أرجائه"³.

جاء في اللسان: "الهَضْبُ من الخيل: الكثيرُ العَرَق؛ قال طرفة:

من عَنَاجِيحِ ذُكُورٍ وَفُحٍّ وَهَضَبَاتٍ إِذَا ابْتَلَّ الْعُدْرُ

وَالوُفْحُ: جمع وَفَاحٍ، للحافر الصُّلْب، والعَنَاجِيحُ: الجيادُ من الخيل، واحدها عُنْجُوجٌ"⁴.

● **سَابِحٌ**: "سريع أيضاً يسبح في البر كما يسبح السابح في البحر"⁵.

سَبَّحَ الفرس: جريه. وفرس سَبَّوحٌ وسَابِحٌ: يسبح بيديه في سيره. والسَّوَابِحُ الخيل لأنها تسبح...

قال ابن الأثير: هو من قولهم فرس سَابِحٌ إذا كان حسن مَدَّ اليدين في الجري...؛ أنشد ثعلب:

لقد كان فيها للأمانة موضعٌ وللعين مُلْتَدًُّ وللكفَّ مَسْبِجُ

وقال الأعشى:

لقد كان فيها للأمانة موضعٌ وسابِحٌ ذي مَيْعَةٍ ضَامِرٍ"⁶

● **يَثْمٌ**: "يكسر"⁷.

يقول ابن منظور: "وَتَمَّ الفرس الحجارة بحافره يَثْمُها وَتَمًّا إذا كَسَرها... وَوَتَمَّ الفرس الأرض

بحافره وَتَمًّا وَتَمَّةً: رجمها ودَقَّها..."⁸.

¹ شفاء القلب العليل، ص 90.

² لسان العرب، ج 8، ص 200.

³ شفاء القلب العليل، ص 90.

⁴ لسان العرب، ج 15، ص 98.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 90.

⁶ لسان العرب، ج 6، ص 143.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 90.

⁸ لسان العرب، ج 15، ص 213.

- جواد: "كريم من الخيل"¹.
"جاد الفرس أي صار رائعاً يوجد جودة، بالضم، فهو جواد للذكر والأنثى من خيل... وهو الفرس السابق الجيد..."².
- حصان: "الذكر من الخيل كأنه محصن عن الترو وليس كالأنثى أو يحصن صاحبه من إدراك العدو أو يحصن صاحبه من العدو"³.
"الحِصَانُ: الفحل من الخيل، والجمع حُصْن. قال ابن جنى: قولهم فَرَسُ حِصَانٍ بَيِّنُ التحصُن هو مشتق من الحِصَانَةِ لأنه مُحْرَزٌ لفارسه،... وقيل سمي الفرس حصاناً لأنه ضَنَّ بمائه فلم يُنْزَلْ إلا على كريمة"⁴.
- صَافِنٌ: "الذي يرفع إحدى قوائمه ويقوم على ثلاث والجمع صافنات"⁵.
"صَفَنَ الفرس إذا قام على طرف الرابعة. وفي التنزيل العزيز: "إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد"... وفي الصحاح: الصَّافِنُ من الخيل القائم على ثلاث قوائم. وقد أقام الرابعة على طرف الحافر..."⁶.
- مُقْرَبٌ: "معد للحرب غير ممتهن في غيرها فقرب لأجل ذلك"⁷.
"الخيال المُقْرَبَةُ التي تكون قريبة مُعَدَّة... ابن سيده: المُقْرَبَةُ والمُقْرَبُ من الخيل: التي تُدْنَى، وتُقْرَبُ، وتُكْرَمُ، ولا تترك أن تُرَوَدَ، قال ابن دريد: إنما يفعل ذلك بالإناث، لئلا يَقْرَعَهَا فَحْلٌ لئيم"⁸.

¹ شفاء القلب العليل، ص 92.

² لسان العرب، ج 2، ص 2412.

³ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁴ لسان العرب، ج 3، ص 210.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁶ لسان العرب، ج 7، ص 369.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁸ لسان العرب، ج 11، ص 84.

● **وعا:** "شديد"¹.

"الوَأَى: الفرس السريع المقتدر الخَلْق... قال شمر: الوَأَى الشديد"².

● **كُمَيْت:** "شديد الحمرة مع سواد العرف والظهر والجمع كُمت"³.

"ابن سيده: الكُمَّتَةُ لون بين السواد والحمرة، يكون في الخيل والإبل وغيرهما... والكميت من الخيل يستوي فيه الذكر والمؤنث... قال سيبويه: سألت الخليل عن كميت... قال: إنما هي حمرة يخالطها سواد، ولم تخلص، وإنما حقروها لأنها بين السواد والحمرة، ولم تخلص لواحد منها، فيقال له أسود أو أحمر، فأرادوا بالتصغير أنه منهما قريب..."⁴.

● **عَجَلَزَه:** "شديد"⁵.

"العَجَلَزَة والعَجَلَزَة: جميعا: الفرس الشديدة الخَلْق..."⁶

● **عُنْجُوج:** "أجود من الخيل"⁷.

"العُنْجُوجُ: الرائع من الخيل، وقيل الجواد، والجمع عَنَاجِجُ"⁸

● **مَرْخَاء:** "سريع"⁹.

"المَرْخَاءُ: الناقاة المسرعة نشاطا"¹⁰.

● **مِحْضِيرُ:** "عداء بأمتلة المبالغة"¹.

¹ شفاء القلب العليل، ص 92.

² لسان العرب، ج 15، ص 196.

³ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁴ لسان العرب، ج 12، ص 153.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁶ لسان العرب، ج 9، ص 66.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁸ لسان العرب، ج 9، ص 418.

⁹ شفاء القلب العليل، ص 92.

¹⁰ تاج العروس، ج 7، ص 342.

- "اِحْتَصَرَ الفرس إذا عدا، واستَحْضَرْتُهُ: أَعَدَيْتُهُ؛ وفرس مَحْضِرٌ، الذكر والأنثى في ذلك سواء. وفرس مَحْضِرٌ ومِحْضَارٌ... إذا كان شديد الحُضْرِ، وهو العَدُوٌّ".²
- أمين عَجَايَة: "سالم عَجَايَة؛ والعَجَايَة عصبية من باطن اليد"³.
- قال ابن شميل: العَجَايَة من الفرس العَصْبَة المُسْتَطِيلَة في الوَظِيف ومنتهاها إلى الرُّسْغِين وفيها يكون الحَطْمُ، قال: والرُّسْغُ منتهى العَجَايَة. وقال ابن سيده...: العَجَايَة عصبٌ مركَّبٌ فيه فُصُوصٌ من عظام كأمثال فصوص الخاتم تكون عند رُسْغِ الدابة"⁴
- الجُرْشُوعُ: "ضخم الصدر"⁵.
- "الجُرْشُوعُ: العظيم الصدر، وقيل الطويل"⁶.
- غرد النَّسَا: "أي شديد النسا غير مسترخية وهو عرق يستبطن الفخذين حتى يصير إلى الحافر"⁷.
- "النَّسَا: عرق يخرج من الورك فَيَسْتَبْطِنُ الفخذين ثم يمر بالعُرْقُوب حتى يبلغ الحافر، فإذا سمنت الدابة انْفَلَقَتْ فحذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النَّسَا بينهما واستبان، وإذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان وماجت الرِّبْلَتان وخفي النسا"⁸.
- الناشر الأكتاد: "أي المرتفع الأكتاد جمع كتد وهو ما بين الوسط والكاهل"⁹.
- "الكَنْدُ والكَنْدُ: مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس، وقيل هو أعلى الكتف، وقيل هو الكاهل،

¹ شفاء القلب العليل، ص 92.

² لسان العرب، ج 3، ص 218.

³ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁴ لسان العرب، ج 9، ص 75.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁶ لسان العرب، ج 2، ص 201.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 92.

⁸ لسان العرب، ج 14، ص 131.

⁹ شفاء القلب العليل، ص 98.

وقيل: هو ما بين الكاهل إلى الظهر... قال ذو الرُّمّة:

وَإِذْ هُنَّ أَكْتَادُ بِحَوْصَى كَأَنَّمَا رَهَا الْأَلُّ عَيْدَانَ الْخَيْلِ الْبِوَاسِقِ¹

● ماشانه فَجَا: "أي ما قبعه فجا وهو إفراط تباعد ما بين الكعبيين"².

"الْفَجَا: تباعد ما بين الفخذين، وقيل: تباعد ما بين الركبتين وتباعد ما بين الساقين. وقيل:

هو من البعير تباعد ما بين عُرْقُوبَيْهِ، ومن الإنسان تباعد ما بين ركبتيه..."³

● ولا صكك: "أي اصطكاك الكعبيين وهو تدانيهما"⁴.

"الصَّكَّكُ: اضطراب الركبتين والعرقوبين من الإنسان وغيره...، والصَّكَّكُ أن تضرب إحدى

الركبتين الأخرى عند العدو فتؤثر فيهما أثراً..."⁵.

● ولانخيس: "وهو ورم يكون في أطراف حوافره"⁶.

"الدَّخْسُ: داء يأخذ في قوائم الدابة، وهو ورم يكون في أطرة الدابة..."⁷.

● ولا نَهْكَ: "وهو ضعف المرض"⁸.

"النَّهْكَ: النَّتْقُصُ. وَنَهَكَتْهُ الْحَمَى نَهْكَاً جَهْدَتَهُ، أَضْنَتَهُ وَنَقَصَتْ لَحْمَهُ، فَهُوَ مَنُهْوكٌ، رُؤْيٍ أَثْرُ

الهُزَالِ عَلَيْهِ مِنْهَا"⁹.

● وجا: "وهو داء يصيب الحافر يبلغ باطن الرسغ"¹⁰.

¹ لسان العرب، ج 12، ص 26.

² شفاء القلب العليل، ص 98.

³ لسان العرب، ج 10، ص 26.

⁴ شفاء القلب العليل، ص 98.

⁵ لسان العرب، ج 7، ص 379.

⁶ شفاء القلب العليل، ص 98.

⁷ لسان العرب، ج 4، ص 306.

⁸ شفاء القلب العليل، ص 98.

⁹ لسان العرب، ج 14، ص 308.

¹⁰ شفاء القلب العليل، ص 98.

- "ابن السكيت: الْوَجَا أَن يَشْتَكِي الْبَعِيرِ بَاطِنَ خُفِّهِ وَالْفَرَسِ بَاطِنَ حَافِرِهِ... وَوَجِيَّ الْفَرَسِ، بِالْكَسْرِ: وَهُوَ أَن يَجِدَ وَجِعاً فِي حَافِرِهِ، فَهُوَ وَجٌّ، وَالْأُنْثَى وَجِيَاءٌ..."¹.
- شَطَاً: "وهو عظم لاصق بالذراع"².
- "الشَّطَى عَظِيمٌ لَازِقٌ بِالذَّرَاعِ، فَإِذَا زَالَ قِيلَ شَطَيْتَ عَصَبُ الدَّابَّةِ"³.
- حَوْشَبُ: "وهو موصل الوظيف في الرسغ"⁴.
- "الْحَوْشَبُ: مُوَصِّلُ الْوَضِيفِ فِي رُسْغِ الدَّابَّةِ. وَقِيلَ: الْحَوْشَبَانُ مِنَ الْفَرَسِ: عَظْمَا الرُّسْغِ؛ وَفِي التَّهْذِيبِ: عَظْمَا الرُّسْغَيْنِ"⁵.
- لنسر كملفوظ النوى: "أي إلى نسر وهو في باطن الحافر كأنه النوى، ومؤخر الحافر يقول له الدائرة"⁶.
- النَّسْرُ: لَحْمَةٌ صُلْبَةٌ فِي بَاطِنِ الْحَافِرِ كَأَنَّهَا حِصَاةٌ أَوْ نَوَاةٌ، وَقِيلَ: هُوَ مَا ارْتَفَعَ فِي بَاطِنِ حَافِرِ الْفَرَسِ مِنْ أَعْلَاهُ، وَقِيلَ: هُوَ بَاطِنُ الْحَافِرِ، وَالْجَمْعُ نُسُورٌ؛ قَالَ الْأَعْشَى:
- سَوَاهِمُ جُدْعَائِهَا كَالْجَلَا مِ قَدْ أَضْقَرَ حَ الْقَوْدُ مِنْهَا النُّسُورَا"⁷
- كلكل ضخم رحيب: "أي صدر عظيم واسع"⁸.
- "الْكَلْكَلُ: الصِّدْرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... وَالْكَلْكَالُ مِنَ الْفَرَسِ: مَا بَيْنَ مَحْزِمِهِ إِلَى مَا مَسَّ الْأَرْضَ مِنْهُ إِذَا رِيضٌ"⁹.

¹ لسان العرب، ج 15، ص 228.

² شفاء القلب العليل، ص 98.

³ لسان العرب، ج 7، ص 124.

⁴ شفاء القلب العليل، ص 98.

⁵ لسان العرب، ج 3، ص 183.

⁶ شفاء القلب العليل، ص 101.

⁷ لسان العرب، ج 14، ص 122.

⁸ شفاء القلب العليل، ص 101.

⁹ لسان العرب، ج 12، ص 146.

• **الْقُصَيْرِيُّ**: "أي المرتفع آخر الأضلاع"¹.

"الْقُصَيْرِيُّ: أسفل الأضلاع، وقيل: هي الضلع التي تلي الشاكلة، وهي الواهنة، وقيل: هي آخر ضلع في الجنب. التهذيب: الْقُصَيْرِيُّ: الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن؛ وأنشد: نَهْدُ الْقُصَيْرِيِّ يَزِينُهُ حُصْلَهُ"²

• **سام تَلِيلُهُ**: "مرتفع عنقه"³.

"التَّلِيلُ: العُنُقُ، قال لبيد:

تَتَّقِينِي بِتَلِيلِ ذِي حُصَلٍ

أَي عُنُقِ ذِي حُصَلٍ مِنَ الشَّعْرِ، والجمع أَتْلَةٌ وَتُلٌّ وَتَلَالٍ"⁴.

• **دَسِيعُ**: "مركب العنق في الظهر"⁵.

"الدَّسِيعُ: وهو مركَّب العنق في الكاهل؛ وقيل: الصدر والكاهل، قال سلامة بن جندل يصف فرساً:

فِي جُوجُوجٍ كَمَدَاكِ الطَّيِّبِ مَخْضُوبٍ"⁶

يَرْقَى الدَّسِيعُ إِلَى هَادٍ لَهُ تَلْعُ

• **مُفْعَمٌ**: "ممتلئ لحمًا"⁷.

"مُفْعَمٌ: أَي مملوء، وأنشد أبو سهل:

مُقَلَّدٌ قُضْبَ الرِّيحَانِ مَفْعُومٌ

أَبْيَضٌ أَبْرَزُهُ لِلضَّحِّ رَاقِبُهُ

أَي ممتلئ لحمًا"⁸.

¹ شفاء القلب العليل، ص 101.

² لسان العرب، ج 11، ص 188.

³ شفاء القلب العليل، ص 101.

⁴ لسان العرب، ج 2، ص 46.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 101.

⁶ لسان العرب، ج 4، ص 346.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 101.

⁸ لسان العرب، ج 10، ص 294.

قريب الذي بين المطا: "أي الظهر"¹.

"المطا هو الظهر"².

● قَطَّأَتْهُ: "موضع الردف، يعني قريب ما بين الظهر وموضع الردف منه، وذلك كناية عن قصره وهو محمود في الخيل"³.

"القَطَّاءُ: العَجْز، وقيل: هو ما بين الوَرَكَيْن، وقيل: هو مقعد الردف أو موضع الردف من الدابة خلف الفارس"⁴.

● القَدَّال: "وهو جماع مؤخر الرأس حيث مقعدة العذار"⁵.

"القَدَّال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا، والجمع أَقْدَلَةٌ وَقُدْلٌ... قال

زهير:

وَمَلْجَمُهَا مَا إِنْ يُنَالُ قَدَّالُهُ وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنْامِلُهُ⁶

● الصَّلَا: "وهما عرفان عند أصل الذنب والمعنى بعيد ما بين القذال والصلأ كناية عن طول عنقه"⁷.

"الصَّلَا: وسط الظهر من الإنسان ومن كلّ ذي أربع، وقيل هو ما انحدر من الوركين، وقيل:

هي الفرجة بين الجاعرة والذنب..."⁸.

● قَبِلُ: "ميل الحذافة إلى الأنف"⁹.

¹ شفاء القلب العليل، ص 104.

² لسان العرب، ج 13، ص 135.

³ شفاء القلب العليل، ص 104.

⁴ لسان العرب، ج 11، ص 234.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 104.

⁶ لسان العرب، ج 11، ص 76.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 104.

⁸ لسان العرب، ج 7، ص 398.

⁹ شفاء القلب العليل، ص 104.

"الْقَبْلُ: إقبال الحدقتين على الأنف"¹

● إِعْلِيْطُ الْمَرْخُ: "أي أذنيه كالقفل"².

"الإِعْلِيْطُ: ما سقط ورقه من الأغصان والفُضْبَان، وقيل: هو ورق المَرْخِ، وقيل: هو وعاء تَمَر

المرخ؛ قال امرؤ القيس:

لها أذنٌ حَسْرَةٌ مَشْرَةٌ كماِ عْلِيْطِ مَرْخِ إذا ما صَفِرَ

واحدته إِعْلِيْطَةٌ، شبه به أذن الفرس"³.

"والمَرْخُ: شجر كثير الوَرِي سريعه"⁴

● صِهْوَةٌ: "موضع مقعد الراكب من الظهر".

"الصَّهْوَةٌ: موضع اللِّدِ في ظهر الفرس، وقيل: مقعد الفارس"⁵.

● اخْلَوْلَقْتُ: ملست.

"اخْلَوْلَقَ: أمْلَسَ ولانَ واستوى"⁶.

● شَجْرُ: "مجتمع عظمي اللحية من الفرس"⁷.

"شَجْرُ الفرس: ما بين أعالي لَحْيَيْهِ من معظمها، والجمع أشجار وشُجُور"⁸.

● مَسَدٌ: "أي فتل لين الملمس وكذلك شعر العرف إن كان لين الملمس فانه يدل على جودة

الخييل وعنقها"⁹.

¹ تاج العروس، ج 30، ص 211.

² شفاء القلب العليل، ص 104.

³ لسان العرب، ج 9، ص 355.

⁴ لسان العرب، ج 13، ص 28-29.

⁵ لسان العرب، ج 7، ص 432.

⁶ لسان العرب، ج 4، ص 196.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 108.

⁸ لسان العرب، ج 7، ص 35.

⁹ شفاء القلب العليل، ص 108.

"المَسْدُ: المَعَارُ: الشديد القَتْل. وَيَطْن مَمْسُود: لين لطيف"¹

● دَعَا: "عدا بنوع من العدو وهو الفرس الذي إذا جرى يحسبه الناظر اليه كأنه لم يطأ الأرض من سرعة عدوه"².

"دءا: عدا أشدَّ العَدُو"³.

● طَوِيل التَّيْل: "أي العنق"⁴.

"التَّيْل: العُنُق، قال لبيد:

تَتَّقِينِي بِتَيْلِ ذِي خُصَل

أي: بَعُوقُ ذِي خُصَل من الشعر، والجمع أَيْلَةٌ وتَلَلٌ وتَلَالِيلٌ"⁵.

● قَصِير العَسِيب: "منبت الذنب من الجلد"⁶.

"عَسِيبُ الذَّنْبِ مُنْبِئُهُ من الجلد والعظم"⁷.

● قَصِير المَطَا: "الظهر"⁸.

"المطا: هو الظهر"⁹.

● الرُّسْعُ: معروف"¹⁰.

"الرُّسْعُ: مَفْصِلُ ما بين الكف والدُّرَاع، وقيل: مجتمع الساقين والقدمين، وقيل: هو مَفْصِل ما

¹ تاج العروس، ج 9، ص 174.

² شفاء القلب العليل، ص 108.

³ لسان العرب، ج 4، ص 272.

⁴ شفاء القلب العليل، ص 111.

⁵ لسان العرب، ج 2، ص 46.

⁶ شفاء القلب العليل، ص 111.

⁷ لسان العرب، ج 9، ص 197.

⁸ شفاء القلب العليل، ص 111.

⁹ لسان العرب، ج 13، ص 135.

¹⁰ شفاء القلب العليل، ص 111.

- بين الساعد والكفّ والساق والقدم، وقيل: هو المَسْتَدِقُّ الذي بين الحافر ومَوْصِلِ الوَظِيفِ من اليد والرجل"¹.
- الأَؤِيمُ: "الجلد"².
 - "أَدِيمُ كل شيء: ظاهر جلده"³.
 - ضَلِيعُ: "عظيم الأضلاع المنتفخ الجبين"⁴.
 - "فرس ضَالِيعُ: تام الخَلْقُ مُجَفَّرُ الأضلاع غليظ الألواح كثير العصب. والضَالِيعُ: الطويل الأضلاع الواسع الجنبين العظيم الصدر"⁵.
 - طويل سَبِيبُ فوق الأرض: "بقليل ولا يمسه"⁶.
 - "السَّبِيبُ: من الفرس: شَعْر الدَّنْبِ، والعُرْفِ، والنَّاصِيَةِ"⁷.
 - ثُنُنُ: "وهو الشعر المتدلي في مؤخر الرسغ"⁸.
 - "النُّنَّةُ من الفرس: مُؤَخَّر الرُّسْغِ، وهي شعرات مُدَلَّاة مُشْرِفات من خلف"⁹.
 - سُنْبُكُ: "وهو مقدم الحافر"¹⁰.
 - "السُّنْبُكُ: طرف الحافر وجانباه من قُدَم، وجمعه سَنَابِكُ"¹¹.

¹ لسان العرب، ج 5، ص 211.

² شفاء القلب العليل، ص 111.

³ لسان العرب، ج 1، ص 97.

⁴ شفاء القلب العليل، ص 113.

⁵ لسان العرب، ج 8، ص 76.

⁶ شفاء القلب العليل، ص 113.

⁷ لسان العرب، ج 6، ص 140.

⁸ شفاء القلب العليل، ص 113.

⁹ لسان العرب، ج 2، ص 135.

¹⁰ شفاء القلب العليل، ص 116.

¹¹ لسان العرب، ج 6، ص 383.

- أَفْكَلٌ: "أي الارتعاد"¹.
"الأفْكَلُ: الرُّعْدَةُ"².
- كَفَلٌ كَالدَّعْصِ: كالكتيب الصغير من الرمل³.
"الكَفَلُ: العَجْزُ، وقيل: رِدْفُ العَجْزِ... والجمع أَكْفَالٌ"⁴.
- حَارِكٌ: "أي الكاهل وهو مستقر فروع كتفيه"⁵.
"الحَارِكُ من الفرس فروع الكتفين وهو أيضاً الكاهل"⁶.
- عَبْلُ الجُرَّازَةِ: "أي غليظ التوائم حيث مجمع المفصلين"⁷.
"فرس عَبْلُ الشَّوَى أي غليظ القوائم"⁸.
"وفرس ضخم الجُرَّازَةِ فإنما يريدون غلظ يديه ورجليه وكثرة عصبهما"⁹.
- رِيَانُ العَسِيبِ: "غليظ العسيب"¹⁰.
"عَسِيبُ الذَّنْبِ مُنْبِئُهُ من الجلد والعظم"¹¹.
- إِلَى كَوْنِ مَتْنِهِ مَدَاكِ عَرُوسٍ: "أي ظهره لين وصلب"¹².

¹ شفاء القلب العليل، ص 119.

² لسان العرب، ج 10، ص 309.

³ شفاء القلب العليل، ص 119.

⁴ لسان العرب، ج 10، ص 309.

⁵ شفاء القلب العليل، ص 119.

⁶ لسان العرب، ج 3، ص 136.

⁷ شفاء القلب العليل، ص 122.

⁸ لسان العرب، ج 3، ص 25.

⁹ لسان العرب، ج 9، ص 271.

¹⁰ شفاء القلب العليل، ص 122.

¹¹ لسان العرب، ج 9، ص 197.

¹² شفاء القلب العليل، ص 122.

"الْمَثْنُ من كل شيء: ما صَلَبَ ظهره، والجمع مُثُونٌ ومِثَانٌ"¹.

● الجيَّاشُ: "وهو الذكي القلب النشط في السير".

"الجيَّاشُ: الفرس الذي إذا حركته بِعَقَبِكَ جَاشَ، أي ارتفع وهاج، قال امرؤ القيس يصف فرساً:

على الدَّبَلِ جيَّاشٌ كأنَّ اهْتِزَامَهُ
إذا جَاشَ فيه حمُّهُ غُلِّيَ مِرْجَلِ²

● الدَّبَلُ: "أي يدر العدو والجري أي يديهما".

"دَبَلَ الفرس: ضَمَّر، ومنه قول امرئ القيس:

على الدَّبَلِ جيَّاشٌ كأنَّ اهْتِزَامَهُ
إذا جَاشَ فيه حمُّهُ غُلِّيَ مِرْجَلِ³

● دَرِيرٌ: "أي يدر العدو والجري أي يديهما"⁴.

"دَرَّ الفرس يَدِرُّ دَرِيرًا ودِرَّةً: عدا عدوا شديدا، قال امرؤ القيس:

دَرِيرٌ كَحَذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرَهُ
تَتَابَعُ كَفَيْهِ بِخَيْطِ مُوصَلِ⁵

خاتمة:

ختاماً نوجز أهم النتائج التي توصلنا إليها فيما يلي:

- استمرار التأليف في مجال الرسائل اللغوية، وهذا ما فعله الشيخ محمد البكري الذي اقتدى بأسلافه الذين ألفوا في هذا المجال.
- إن العلماء المسلمين قد ساهموا بإبداعاتهم في المجال الدلالي، ولاسيما في نظرية الحقول الدلالية؛ بحيث تقف أعمالهم شاهداً على عبقريتهم، ولم يكن اللغويون الجزائريون بمعزل عن

¹ لسان العرب، ج 13، ص 18.

² تاج العروس، ج 17، ص 118.

³ لسان العرب، ج 5، ص 26.

⁴ شفاء القلب العليل، ص 122.

⁵ لسان العرب، ج 4، ص 326.

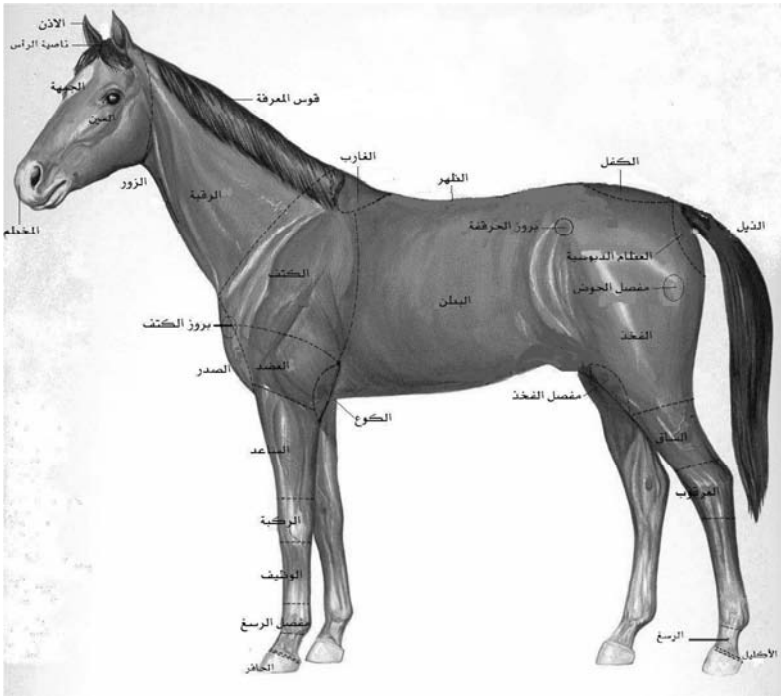
التعريب العدد الرابع والخمسون - حزيران (يونية) 2018م

ذلك الحدث العلمي، فها هو العالم محمد البكري يخلف لنا معجماً خاصاً بأوصاف الخيل، مساهماً بذلك في تأسيس نظرية الحقول الدلالية عملياً.

- استنثار هذا الزخم المعرفي في صناعة معاجم الموضوعات، لأن رسالة محمد البكري تعد زاداً ثرياً يمدُّ المعجمي بالعون المطلوب.

ثبت المصادر والمراجع

1. البكري محمد، شفاء القلب الغليل بتحقيق شرح منظومة البكري على أوصاف الخيل، تد. محمد سالم بن عبد الكريم، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2006.
2. عبد الجليل عبد القادر، المدارس المعجمية دراسة في البنية التركيبية، دار صفاء، عمان، الأردن، ط 1، 1420هـ-1999م.
3. ابن سيده، المخصص، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديد، بيروت، لبنان، د.ت.
4. طاظا حسن، كلام العرب، دار المعارف، الإسكندرية، 1971.
5. عزوز أحمد، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002.
6. عيد محمد الطيب، المعجمات اللغوية ودلالات الألفاظ، دار الزهراء، الرياض، ط 1، 1428هـ، 2007.
7. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 4، 1419هـ - 1999.
8. السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلاي، ط 2، 1407هـ - 1987م.



من أنشطة المركز
خلال النصف الأول من عام 2018

من أنشطة المركز خلال النصف الأول من عام 2018

تابع المركز في النصف الأول من عام 2018، تنفيذ أنشطته المقررة للدورة المالية -2018
2017 على النحو التالي:

– تم إصدار الكتب التالية:

- مدخل إلى الكيمياء الدوائية - الجزء الأول
- مدخل إلى الكيمياء الدوائية - الجزء الثاني
- الكيمياء الصيدلانية وتصميم الدواء – تاريخ وتوصيف الأدوية

– كتب قيد الإصدار:

- أطلس تقويم الأسنان (الحالات المعقدة)
- يقوم المركز حالياً بترجمة كتيبات لصالح اليونيسف (United Nations Children's Fund)

– زوّد المركز بعض الجامعات بإصداراته في إطار نشاط دعم الجامعات والمؤسسات العلمية.

– شارك المركز بالمعارض العربية والدولية التالية:

- معرض القاهرة الدولي للكتاب من 26 يناير 10 فبراير 2018
- معرض مسقط الدولي للكتاب من 21 فبراير 3 مارس 2018
- معرض بغداد الدولي للكتاب من 29 مارس وحتى 8 أبريل 2018
- معرض أبو ظبي للكتاب من 27 أبريل وحتى 1 مايو 2018

– أنشطة خارج البرامج:

شارك الأستاذ الدكتور مدير المركز باجتماعي المجلس التنفيذي والمؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مقر المنظمة بتونس.
شارك مدير المركز بالاحتفال الذي أقامه مجمع اللغة العربية بمناسبة يوم اللغة العربية - الأول من آذار.

**لإطلاع على إصدارات المركز كاملة
يرجى زيارة موقعنا على الروابط التالية**

الموقع على الشبكة (الإنترنت) : www.acatap.org

الصفحة على موقع التواصل الإجتماعي (فيسبوك):

<https://www.facebook.com/Acatap.Damascus>

المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر

البريد الإلكتروني الخاص بالمجلة: acatap2@gmail.com